أهمية كتاب موطأ الإمام مالك بن أنس واهتمام العلماء به

محمد بن عبدالله حيّاني

كلية التربية - قسم الدراسات الإسلامية - جامعة الملك فيصل - الأحساء

الحمد لله الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، والقائل في كتابه العزيز : ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾(1) ، وصلى الله وسلم على الهادي البشير الذي أنزل عليه القرآن الكريم فبينه بأقواله وأفعاله وتقريراته : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (2) ، فكانت أقواله وأفعاله وتقريراته سنته الماضية بين المسلمين والمصدر للتشريع بعد القرآن الكريم ، ورضي الله عن أصحابه والتابعين الذين اعتنوا بسنته حق العناية، وقاموا بواجبها حق القيام ، ورضي الله عنهم وعن أتباعهم ، ومن سار على نهجهم وتخلق بأخلاقهم إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن من نظر في تاريخ السنة المشرفة سوف يقف بدهشة وإعجاب أمام منهجها الشامخ المحكم المنيع ، الذي شيدته أيدي العلماء ، يحدوهم الإيمان بالله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، ويدفعهم الحرص على استمرارها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لأن السنة هي سبب الأمان في الدنيا والفوز في الآخرة لمن تمسك بها مع القرآن الكريم ، لقد بذل العلماء نفوسهم وأموالهم في سبيلها ، فرحلوا فيها من مسافات سحيقة ، فكان مَن في الشرق الأدنى يسافر إلى المغرب الأقصى وكذا العكس ، تحمله رجلاه أو الخيل ونحو ذلك من وسائل النقل البدائية، رغم ما يعترض ذلك من متاعب ومهالك وانقطاع في الصحراء المهلكة ، ونفاد الزاد والمؤنة أحياناً ، هذا مع العفة والكرامة . إنه عذاب مرير مازجته عذوبة الإيمان بالله وحب رسوله عليه الصلاة والسلام ، والحرص على حياة الإسلام وعز المسلمين ، ومع هذا لم تكن هذه الرحلة والمتاعب الشاقة إلا جزءاً من مقومات المحدث المقبول ، ولم تكن وحدها هي عامل القبول عند المحدثين .

فكم من آلاف مؤلفة من العلماء الذين رحلوا فيها ممن امتلأت كتب التاريخ بتراجمهم ، حتى كتب الخطيب البغدادي جزءاً لطيفاً في ذلك ضرب فيه أمثلة من تلك الرحلات الشاقة أسماه: (الرحلة في طلب الحديث)(3) . إن هذا الاهتمام لم يكن لجمع السنة من أفواه الرجال الذين انتشروا في طول الأرض وعرضها فحسب ، وإنما القصد من ذلك جمعها ثم تمييز الصحيح من السقيم ، كي يتسنى بعد ذلك العمل بما صلح للاحتجاج منها ، وهذا الجانب كلف علماء الحديث طاقات كبيرة ، فجمع السنة ثم تنقيتها وتصنيفها في الكتب تصنيفاً متنوعاً ، ثم تصنيف علل الأحاديث والأسانيد في كتب أخرى ، وكذا الناسخ والمنسوخ منها ، ثم ترجمة عشرات الألوف من الرجال في كتب مستقلة ، ومعرفة أنسابهم ، وأوطانهم، ورحلاتهم ، وشيوخهم ، وما سمعوه من كل شيخ وتقييم العلماء لهم ووفاياتهم ، كل ذلك يستهلك طاقات ليست بالقليلة بل ولم تمض تلك الطاقات عبر سنوات قليلة وإنما استهلكت أكثر من ثلاثة قرون ، وهذا الجهد كوَّن مكتبة حديثية عملاقة تقاصرت دونها باقي المكتبات في سائر العلوم الإسلامية الأخرى، ولم تزل أقلام العلماء والباحثين تخط في خدمة السنة إلى هذه الساعة ، ولله الحمد .

ويمثل كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس جزءاً من تلك الطاقات التي بذلها العلماء في سبيل السنة ، فقد شرع الإمام مالك في تصنيفه رحمه الله في الوقت الذي شرع عدد من العلماء في أقطار متعددة في التصنيف في السنة بعد أمر الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، حيث شهد آخر القرن الأول ومطلع القرن الثاني فتوحات إسلامية واسعة أودت بحياة العديد من حملة السنة والفقه آنذاك، ولم يسبق للسنة تدوين في الكتب والصحف إلا نادراً، وإنما كانت محفوظة في صدور الرجال.

كما لم يسبق للفقه أن دُوِّن منه شيء، اللهم إلا ما كان من الفتوى في المسائل على لسان الصحابة والتابعين دون كتابة أو تدوين، مع أن ما صدر عنهم من ذلك ليس بالقليل.

وهذا الواقع دعا عمر بن عبد العزيز - رحمه الله وهو الخليفة آنذاك - إلى أن يأمر بتدوين السنة ونشرها بين الناس خوفاً عليها من الضياع وحفاظاً على استمراريتها ، إذ هي مصدر الفقه ومادته، وبه تحسن العلاقة بين العباد وبين خالقهم من جهة ، وفيما بينهم من جهة أخرى ، فقد أخرج البخاري[٤] من حديث عبد الله ابن دينار أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن حزم - وهو عامله على المدينة - أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء.

إن هذا الأمر من الخليفة أضفى على السنة والفقه ثوباً جديداً ، إذ إن كبار العلماء آنذاك قد بدأوا الكتابة بالفعل في أشهر الأمصار الإسلامية، فقد كتب في المدينة واليها وقاضيها أبو بكر بن عمرو بن حزم (ت ١١٧ وقيل ١٢٠هـ) ومحمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) ومحمد ابن عبد الرحمن بن أبي ذئب (ت ١٥٨هـ) ومالك بن أنس (ت ١٧٩هـ)، وفي مكة عبد الملك بن جريج (ت ١٥٠هـ)، وفي اليمن معمر بن راشد (ت ١٥٣هـ) وفي الشام عبد الرحمن ابن عمرو الأوزاعي (ت ١٥٨) ، وفي الكوفة سفيان الثوري (ت ١٦١هـ) ، وفي البصرة سعيد بن أبي عروبة (ت ١٥٦هـ) وحماد بن سلمة (ت ١٧٦هـ) .. وفي خراسان عبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـ) ، وفي واسط هشيم بن بشير الواسطي (ت ١٨٣هـ)[٥] .

فكان تدوين هؤلاء الأئمة هو النواة الأولى للسنة من حيث انتشارها عن طريق الكتابة - وإن كان غالبها محفوظاً في الصدور- كما كان النواة الأولى للفقه كي ينطلق في مرحلة جديدة هي الكتابة والتفنيد، إذ كانت أكثر تلك المصنفات قد جمعت بين كتابة الحديث والفقه.

ولقد نال موطأ الإمام مالك قصب السبق في القبول عند العامة والخاصة، في الشرق والغرب لأسباب متعددة، منها ما يتعلق بشخصية الإمام مالك، ومنها ما يعود إلى الكتاب نفسه.

أما الأسباب التي تتعلق بشخصية الإمام مالك فهي:

١ - ما تمتعت به شخصية الإمام مالك من خصائص سامية يندر وجودها في كثير من العلماء.

فقد كان رحمه الله شديد التحري في الرواية إلى حد جعل الأئمة ينظرون الراوي إن كان أخذ عنه مالك رووا عنه وإن تركه تركوه، قال الإمام سفيان بن عيينة : مَن نحن عند مالك، إنما كنا نتتبع آثار مالك وننظر إلى الشيخ: إن كان مالك كتب عنه وإلا تركناه[٦] .

بل جعل بعض العلماء إرسال مالك بحكم المسند المتصل ، قال عبد الله بن وهب : مالك والليث إسناد وإن لم يسندا .

وقال سفيان بن عيينة : إذا قال مالك: بلغني فهو إسناد قوي[٧] .

وزيادة التحري في الرواية صفة نادرة الوجود بين العلماء، فقد كان مالك رحمه الله لا يحدث إلا عن ثقة، فيتحرى الرجل عدالةً وضبطاً، فإذا اطمأن قلبه إليه روى

تسلسل	الموضوعات	الكتب	البحوث	المؤتمرات والندوات	المحاضرات في الدورات	المقالات	رسائل الدكتوراه	الدوريات والنشرات	النشرة الإحصائية	التقارير	الدراسات الاستشارية	عدد الوحدات
٣٨.	الكتاب	٢	٢			٥						٩
٣٩.	الكتب – معارض	٤				٤						٨
٤٠.	المخطوطات العربية – فهارس	٧										٧
٤١.	المراجع والخدمة المرجعية	٢										٢
٤٢.	مراكز مصادر التعلم	٣	٢				٢					٧
٤٣.	مراكز المعلومات	٤	١		١	٣					٢	١١
٤٤.	مصادر المعلومات	٦	٢		١	١						١٠
٤٥.	المصغرات الفلمية	٣	٢		١						١	٧
٤٦.	المكانز	٣			١							٤
٤٧.	المكتبات	٤				٣						٧
٤٨.	المكتبات– أدلة	١										١
٤٩.	المكتبات– تدريس					١		١			١	٣
٥٠.	المكتبات (مهنة)	١				٢						٣
٥١.	المكتبات – تنظيم وإدارة				١		١				١	٣
٥٢.	المكتبات – جمعيات					٣						٣
٥٣.	المكتبات – طرق بحث	٤			٣		٢					٩
٥٤.	المكتبات – لوائح	١				١					١	٣
٥٥.	المكتبات – معاجم	١										١
٥٦.	مكتبات الأطفال	٣		١							١	٥
٥٧.	المكتبات الجامعية					٢				١		٣

الشافعي ما في الأرض كتاب في العلم أكثر صواباً من موطأ مالك[١٥] .

٢ - اشتمال الكتاب على الفقه المذهبي : إن الزمن الذي جمع فيه مالك الموطأ قد ظهر فيه مصنفات أخرى على نحوه ، ولكن ما إن رآه علماء عصره حتى شهدوا له بالصحة ولمالك بالإمامة وأقبلوا عليه ، وهذا يرجع إلى ما تقدم من الدقة والتحري في التحمل والأداء ودقة الاستنباط مع حسن التبويب والترتيب.

عندما لمع نجم الإمام مالك ورحل الناس إليه لسماع الموطأ، وانتشر مذهبه في الحجاز والمغرب ومصر واليمن وغيرها من البلاد أصبح مذهبه يمثل مدرسة الحجاز الفقهية التي لها منهجها المتميز، خاصة وأن الحجاز مهبط الوحي ومجتمع الصحابة من أهل الفتيا الذين خلفوا ميراثاً فقهياً كبيراً له شأنه.

كل ذلك حدا بالعلماء شرقاً وغرباً أن يرحلوا إلى المدينة لسماع الموطأ ثم روايته ونشره في بلادهم بعد ذلك، وذلك فضلاً عن علماء المدينة ومن يَفِدون إليها أيام المواسم.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أقبلوا عليه شرحاً لأحاديثه ، وتعليقاً على أحكامه وتنويهاً بفوائده، وتفسيراً لغريبه ، وترتيباً لأحاديثه على طريقة الأطراف ، وعلى طريقة المسانيد ، وحصر مواطن اختلاف رواياته ، ووصل أسانيده المنقطعة ومرسلاته وبلاغاته ، وحصراً لرجاله ، وترجمتهم للتعريف بهم وبمراتبهم الحديثية وغير ذلك من فنون الخدمة العلمية ، من ذلك العهد إلى عصرنا الحاضر، من محدثين ولغويين ، وفقهاء من شتى المذاهب الفقهية . إنه أمر يلفت النظر ، وقد ذكرهم القاضي عياض رحمه الله فبلغ بهم إلى (١٠٣) وذكر الإمام الذهبي منهم نقلاً عن القاضي عياض (٩٣) عالماً لكنه زاد (٣) على ما ذكره القاضي عياض ، فكان المجموع (١٠٦) ، وقد وقفت اتفاقاً على (٤٣) عالماً من اعتنوا بالموطأ في كتب التراجم وكتاب تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين فاجتمع لدي (١٤٩) عالماً خدموا هذا الكتاب .

إلا أن هذا الرقم لا يعتبر كحصر محكم إطلاقاً ، لأنني لم أتتبع وأستقرئ الأمر استقراءً تاماً ، وإنما ذكرت ما وقفت عليه اتفاقاً فحسب لإعطاء تصور عن مدى أهمية الكتاب من خلال اهتمام العلماء به ، على لأني أجزم بأن عددهم الإجمالي لا يقل عن (٣٠٠) عالم خدموا هذا الكتاب ، ودليل ذلك :

١ - لم أتتبع ذلك أصلاً وإنما اقتصرت على ما وقفت عليه اتفاقاً فحسب فجاء هذا العدد .

٢ - قبل التصنيف لما وقفت عليه وبعده وإلى الآن أقف على أسماء كتب بين الحين والآخر في خدمة هذا الكتاب من كتب التراجم لم أصنفها قط لحال الطول .

٣ - أن الكتاب له روايات كثيرة منتشرة في العالم الإسلامي ، وفي كل بلد يقوم بعض علمائه بخدمة تلك الرواية ، فلا عجب !

ولو تتبع ذلك باحث في كتاب كشف الظنون ، وهداية العارفين ، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة مثلاً ، وفهارس المخطوطات في خزائن العالم لجاء برقم أكبر من (٣٠٠) كتاب هذا الأمر الملفت للنظر حفزني على إبراز أهمية هذا الكتاب من خلال خدمة العلماء له واهتمامهم فحسب ، بحيث أعطي تصوراً عن مدى ذلك ، وما بين يدي يكفي في إبراز هذا التصور .

كما أن السيد محمد بن علوي المالكي ألف كتاباً في هذا المعنى أسماه الموطأ وعناية الأمة الإسلامية به ، وهو كتاب متكامل في موضوعه ، مؤلف في كتابين و(١٢) فصلاً ، وما أنا بصدده جزء من كتابه فقد جعله الفصل الخامس من الباب الثاني ، فذكر فيه (١٠) شروح للموطأ: تحدث فيه عن مؤلفيها ومنهجهم في تلك الكتب ، هذا إضافة إلى فصلين من الباب الثاني في أهمية الكتاب

والاهتمام به، ودرجته من الصحة بين كتب السنة ، وفصلين من الباب الأول في التعريف بالموطأ ، ورواته ، وعدد أحاديثه . أما باقي الفصول فتتعلق بفقه الموطأ وثناء بعض المستشرقين عليه ، ونقد بعضهم له ، ورد المؤلف عليهم .

أما عملي في هذا الكتاب : فقد قمت بترجمة موجزة للإمام مالك رحمه الله من باب ما لا بد منه ، وإلا فإن عدداً من العلماء أفردوه بالترجمة في كتب مستقلة ، ذكر منها القاضي عياض[16] (٣٤) كتاباً فضلاً عن كتب التراجم التي أفاضت في ترجمته رحمه الله .

ثم عرّفت بالكتاب ، ثم أتبعت ذلك باهتمام العلماء بسماعه وروايته ، ثم عنايتهم بمتونه وأسانيده ثم عقبت ذلك بذكر منزلته بين كتب السنة من حيث الرتبة والترتيب .

وقد جعلت خطة البحث على النحو الآتي :

١ – المبحث الأول : ترجمة الإمام مالك .
- المطلب الأول : نشأته ونسبه .
- المطلب الثاني : شيوخه .
- المطلب الثالث : صفاته النادرة ، وشهادة العلماء له بالعلم والفضل .
- المطلب الرابع : وفاته .

٢ – المبحث الثاني : التعريف بالموطأ .
- المطلب الأول : معنى الموطأ ، وسبب تسميته بذلك.
- المطلب الثاني : سبب تصنيف الموطأ .
- المطلب الثالث : وقت جمع الموطأ وإخراجه للناس .
- المطلب الرابع : ثناء العلماء على الموطأ .

٣ – المبحث الثالث : اهتمام العلماء بالموطأ سماعاً ورواية.
- المطلب الأول : اهتمامهم بسماعه وروايته .
- المطلب الثاني: العلماء الذين رووه عن الإمام مالك.

٤ – المبحث الرابع : عناية العلماء بمتونه وأسانيده .
- المطلب الأول : العلماء الذين شرحوه .
- المطلب الثاني : العلماء الذين فسروا غريبه .
- المطلب الثالث : العلماء الذين رتبوه على ترتيب المسند، أو اقتصروا على ذكر المسند المرفوع منه.
- المطلب الرابع : العلماء الذين صنفوا فيما يتعلق بأسانيده .
- المطلب الخامس : العلماء الذين صنفوا فيما يتعلق بأسانيده ومتونه معاً .

٥ – المبحث الخامس : منزلة الموطأ بين كتب السنة .
- المطلب الأول : مقارنة بين الصحيحين والموطأ في الحجية من حيث الجملة .
- المطلب الثاني : سبب عدم عدِّ الموطأ ضمن الكتب الستة المشهورة .

٦ – الخاتمة .

والله أسأل تمام العون والسداد والتوفيق ، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه إنه سميع مجيب ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المبحث الأول :

ترجمة الإمام مالك رحمه الله تعالى :
- المطلب الأول : نشأته ونسبه .
- المطلب الثاني : شيوخه .
- المطلب الثالث : صفاته النادرة ، وشهادة العلماء له بالعلم والفضل .
- المطلب الرابع : وفاته .

المطلب الأول : نشأته ونسبه :

في أواخر القرن الأول الهجري وأول القرن الثاني كانت المدينة المنورة تزخر بكبار العلماء الذين أخذوا علمهم عن الصحابة وكبار التابعين.

ومن هؤلاء نافع مولى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (ت ١١٧هـ) ، وعبد الرحمن بن هُرْمُز الأعرج (ت ١١٧هـ)، وسعيد بن أبي سعيد المقبري (ت ١٢٠هـ)، ومحمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ) ، وأبو الزناد

عبد الله بن ذكوان (ت ١٣٠هـ) ، وصالح بن كيسان (ت ١٣٠هـ) ، وقيل (١٤٠هـ) ، وصفوان بن سليم (ت ١٣٢هـ) ، وربيعة الرأي (ت ١٣٦هـ) ويحيى بن سعيد الأنصاري (ت ١٤٣هـ) وغيرهم .

وفي الوقت الذي كان فيه عمر بن عبد العزيز[١٧] أمير المدينة المنورة كانت هناك أسرة علمية تقطن المدينة ينحدر أصلها إلى ذي أصبح بطن من اليمن، ومن ملوكها، من بني أبرهة بن الصباح ، نزلوا المدينة قديماً فحالفوا التيميين وانتسبوا إليهم.

وقد كان العلم والفضل ظاهراً في أصول هذه الأسرة العريقة إذ كانوا من الناس الذين أبلوا في الإسلام بلاءً حسناً ، وقدموا فيه التضحيات النفسية والفكرية.

من هذه الأسرة العريقة النسب والشرف والفضل ولد الإمام مالك بن أنس وفيها نشأ وتربى وترعرع، ومن منهل المدينة العلمي اغترف حتى أصبح إمام دار الهجرة وشيخ المذهب الفقهي المتبع في أكثر الأصقاع الإسلامية آنذاك.

أما نسبه رحمه الله فهو : الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غَيْمان بن خُثَيل ابن عمرو بن الحارث . والحارث هذا يلقب بذي أصبح . ولا خلاف في هذا القدر من نسبه[١٨] .

أما نسب ذي أصبح فقد اختُلف فيه اختلافاً كثيراً ، ولكن لا خلاف في أنه من ولد قحطان ، وأنه حليف بني تيم من قريش إلا ما ذكر عن ابن إسحاق حيث زعم أنه من مواليهم.

وقد أفاض الإمام ابن عبد البر والقاضي عياض في رد هذا الزعم[١٩] .

وبالنظر في هذا النسب العريق في الوقت الذي أشرقت فيه شمس الإسلام في المدينة المنورة نجد أنه اتصل بالإسلام في وقت مبكر وسجل فيه أسمى صفحات الشرف والفضل .

فقد كان أبو عامر بن عمرو بن الحارث ممن أدرك الإسلام في باكورة أمره في المدينة المنورة واعتنقه بقلبه وتغلغل في دمه ، وشارك في نشره مع رسول الله ﷺ ، حيث شهد جميع المغازي خلا غزوة بدر الكبرى[٢٠] .

ثم كان مالك بن أبي عامر جد الإمام مالك - يكنى أبو أنس - من كبار التابعين الذين رووا عن عمر ابن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وعائشة وأبي هريرة وحسان بن ثابت رضي الله عنهم جميعاً .

وكان ممن شارك في كتابة المصاحف لما أمر عثمان رضي الله عنه بذلك .

وأغزاه عثمان رضي الله عنه أفريقيا ففتحها ، وكان أحد الذين حملوا عثمان رضي الله عنه إلى قبره وغسلوه ودفنوه .

وكان خليلاً لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه .

روى عنه أبناؤه أنس ونافع وأُوَيس والربيع ، وروى عنه سليمان بن يسار وسالم أبو النضر ومحمد بن إبراهيم التيمي ، وأخرج له أصحاب الكتب الستة . ووثقه ابن سعد والنسائي وابن حبان وغيرهم[٢١] .

وكان أنس والد الإمام مالك عالماً يروي عن أبيه ، وروى عنه ابنه مالك والإمام الزهري[٢٢] .

وكان عمه نافع بن مالك أبو سهيل من أقران الإمام الزهري ، أخذ العلم عن عبد الله بن عمرو وسهل بن سعد الساعدي وأنس بن مالك وسعيد بن المسيب والقاسم بن محمد رضي الله عنهم .

روى عنه الإمام الزهري ، وعبد العزيز الدراوردي ، وسليمان بن بلال ، والإمام مالك أيضاً . وقد اشتهر بالعلم، وكان يؤخذ عنه القراءة بالمدينة المنورة ، وثقه الإمام أحمد والنسائي وأبو حاتم وابن حيان وغيرهم . وأخرج له أصحاب الكتب الستة[٢٣] .

أما عمه أويس والربيع فلم يشتهرا بالعلم وإنما كان لهما رواية عن أبيهما[٢٤] .

إن عراقة النسب لا تمنح الرجل الفاشل فضلاً غير أنه إذا تعهدته اليد الصناع فإنها تبدع منه الكثير ولقد كان لذلك الأثر في النشأة العلمية والسلوكية الصحيحة في شخصية الإمام مالك منذ صغره إذ كان والداه خير موجه لتلك الوجهة الصحيحة ، ويتجلى ذلك في قول الإمام مالك : كان لي أخ في سن ابن شهاب فألقى أبي يوماً علينا مسألة فأصاب أخي وأخطأت ، فقال أبي : ألهتك الحمام عن طلب العلم، فغضبت وانقطعت إلى ابن هُرْمُز سبع سنين لم أخلطه بغيره ، وكنت أجعل في كمي تمراً وأناوله صبيانه وأقول لهم : إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا : مشغول[٢٥] .

هذا الموقف التوجيهي الحكيم ترك أثراً عميقاً في قلب الإمام مالك نحو العلم والانشغال به بهمة عالية .

أما والدته عالية بنت شريك الأزدية فكان لها دور رائد في توجيه ولدها التوجيه السديد من حيث كانت توصيه بأن يتعلم الأدب من العلماء قبل أخذ العلم عنهم ، فالأدب قبل العلم . قال الإمام مالك : كانت أمي تعممني وتقول لي : اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه[٢٦] .

إنها لم تكن حريصة على الأدب فحسب من حق العلم، بل كانت حريصة على إعطاء جميع الحقوق للعلم ولو بالهيئة والتجمل له .

قال الإمام مالك : قلت لأمي : أذهب فأكتب العلم ؟ فقالت : تعال فالبس ثياب العلم ، فألبستني ثياباً مُشَمَّرة – غير مسبلة – ووضعت الطويلة على رأسي وعممتني فوقها ثم قالت : اذهب فاكتب الآن[٢٧] .

إن هذه المواقف التربوية الحكيمة في الأم الواعية له أثره في غرس ابنها الغرس الصحيح في الأرض الطيبة كي ينبت بعد ذلك النبات الحسن .

وقد ظهرت ثمار هذا التوجيه السديد في أدبه مع ميراث النبي ﷺ وورثته عند تحمله ثم عند أدائه .

سئل الإمام مالك أسمع من عمرو بن دينار ؟ فقال : رأيته يحدث والناس قيام يكتبون فكرهت أن أكتب حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم[٢٨] .

ومرّ يوماً بمجلس أبي الزناد عبد الله بن ذكوان وهو يحدث فلم يجلس إليه ، فلقيه بعد ذلك فقال له : ما منعك أن تجلس إليّ ؟ قال : كان الموضع ضيقاً فلم أرد أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم[٢٩] .

إنه إن كره القيام في تحمل الحديث أدباً فذلك يدل على أنه كان لا يزاحم في مجلس العلم أدباً أيضاً، قال ابن وهب : سُئل مالك : هل كنتم تتقايسون – تتزاحمون – في مجلس ربيعة ويكسر بعضكم على بعض ؟ قال: لا والله[٣٠] .

إن أدبه لم يتوقف عند حديث رسول الله ﷺ فحسب بل مع حملته وأساتذته قال الإمام سفيان بن عيينة : شهدت مالكاً يسأل زيد بن أسلم عن حديث عمر رضي الله عنه أنه حمل على فرس في سبيل الله . فجعل يرفق به ويسأله عن الكلمة بعد الأخرى والشيء بعد الشيء[٣١] .

وقال الإمام مالك : كنت آتي نافعاً نصف النهار ، وما تظلني الشجرة من الشمس أتحين خروجه فإذا خرج أدعه ساعة كأني لم أرده، ثم أتعرض له فأسلم عليه وأدعه، حتى إذا دخل البلاط أقول له : كيف قال ابن عمر في كذا وكذا ؟ فيجيبني ، ثم أحبس عنه ، وكان فيه حدة[٣٢] .

إنه أدب الحريص العاقل لا يقرع باب شيخه وإنما ينتظره ليخرج إلى المسجد ، فإذا خرج لا يقترب منه حيناً، حتى إذا اقترب من المسجد سلم عليه وسكت قليلاً ثم سأله بعد ذلك متحسساً رضاه من ملامح وجهه ولهجته في رد السلام أدباً وحرصاً .

هذا الأدب المثالي في طلب العلم تبعه الأدب في تعليمه أيضاً .

قال إسماعيل بن أبي أويس : كان مالك إذا جلس

للحديث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ، ولا أحدّث به إلا على طهارة متمكناً .

وكان يكره أن يحدث في طريق قائماً أو مستعجلاً[٣٣] .

ذلك الأدب أثر من آثار المواقف الأبوية التربوية السامية والتي لم يقتصر أثرها على ذلك فحسب وإنما على علو الهمة أيضاً في طلب العلم ، ويتجلى أثرها في موقف أبيه عندما ألقى عليه سؤالاً لم يعرفه . فقال له : ألتهك الحمام عن طلب العلم . فألهب ذلك همته إلى أن ينقطع إلى شيخه ابن هرمز ويعطي صبيانه تمراً متلطفاً ويقول لهم : إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا : مشغول . حرصاً على المزيد من شيخه .

وقال القاضي عياض : كان مالك قد اتخذ تُباناً محشواً للجلوس على باب ابن هرمز ويتقي به برد حجر هناك[٣٤] .

وما ذلك إلا لطول جلوسه عنده .

وقال الإمام مالك : شهدت العيد ، فقلت : هذا اليوم يخلو فيه ابن شهاب ، فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه . فسمعته يقول لجاريته : انظري من على الباب ؟ فنظرت . فسمعتها تقول مولاك الأشقر مالك . فقال : أدخليه . فدخلت . فقال : ما أراك انصرفت بعد إلى منزلك؟ فقلت : لا . قال : هل أكلت شيئاً ؟ قلت : لا . قال : فتطعم – أتأكل – ؟ قلت : لا حاجة لي فيه . قال فما تريد ؟ قلت : تحدثني . فحدثني سبعة عشر حديثاً ، ثم قال : وما ينفعك أن أحدثك ولا تحفظها . قلت : إن شئت رددتها عليك ، فرددتها عليه[٣٥] .

وقال أنس بن عياض : كان مالك حين طلبه يتتبع ظلال الشجر ليتفرغ لما يريد ، فقالت أخته لأبيه: هذا أخي لا يأوي مع الناس . قال : يا بنية إنه يحفظ حديث رسول الله ﷺ[٣٦] .

تلك البداية المحرقة بالحرص العلمي والصبر عليه والأدب فيه أثمرت تلك النهاية المشرقة لهذا الإمام الفذ .

أما تارخ ولادة هذا الإمام فقد تعددت الأقوال ما بين التسعين إلى سبع وتسعين ، والأصح في ذلك والمشهور سنة ثلاث وتسعين في العام الذي عزل فيه عمر بن عبد العزيز عن إمرة المدينة المنورة .

أما وفاته رحمه الله فلا خلاف أنها كانت سنة تسع وسبعين ومائة[٣٧] .

المطلب الثاني : شيوخه :

في الوقت الذي بدأ فيه الإمام مالك طلب العلم في صغره كان مسجد النبي ﷺ يضم حلقات علمية متعددة ، أشهرها حلقة نافع مولى ابن عمر رضي الله عنهما ، وعبد الرحمن بن هُرْمُز الأعرج وربيعة الرأي ، ومحمد بن شهاب الزهري ، فلازمهم بتوجيه أبويه ثم بهمته العالية حيث كان يحب أن يتلقى العلم عن كبار أهله في اختياره الأول مع الحرص على تلقيه عن الكثيرين ممن دونهم .

وقد كثرت شيوخه رحمه الله حتى أفردهم بالذكر الإمام مسلم وأبو محمد بن حزم وأبو عبد الله بن خلفون الأزدي[٣٨] وغيرهم .

ونظراً لطول ملازمته للأئمة المذكورين فلا بأس بترجمتهم ترجمة مختصرة يتجلى فيها مدى تأثره بهم رحمهم الله .

١ – الإمام نافع مولى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

هو أبو عبد الله القرشي العدوي أصله من بلاد المغرب ، وقيل : من نيسابور . وقيل : من كابل وقيل غير ذلك ، والمرجح أنه فارسي . أصابه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في بعض مغازيه[٣٩] .

روى عن مولاه وجماعة من الصحابة رضي الله

عنه، منهم : أبو هريرة ، ورافع بن خديج ، وأبو سعيد الخدري ، وعائشة وأم سلمة رضي الله عنهم جميعاً ، كما روى عن غيرهم من الصحابة وكبار التابعين .

روى عنه الإمام الزهري ، وأيوب السختياني ، وحُميد الطويل ، وبُكير بن عبد الله بن الأشج، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب ، وحجاج بن أرطأة ، والأوزاعي وغيرهم من الكبار رحمهم الله[٤٠] .

اتفق أهل العلم على توثيقه وإمامته ، قال الحافظ الذهبي : اتفقت الأمة على أنه حجة مطلقاً[٤١] .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : لقد منّ الله علينا بنافع[٤٢] .

وقال الإمام مالك: إذا قال نافع شيئاً فاختم عليه[٤٣] .

وقال أبو يعلى الخليلي : نافع من أئمة التابعين بالمدينة إمام في العلم متفق عليه ، صحيح الرواية منهم من يقدمه على سالم ، ومنهم من يقارنه به ، ولا يعرف له خطأ في جميع ما رواه[٤٤] .

وقال سفيان بن عيينة : أي حديث أوثق من حديث نافع[٤٥] .

وذهب الإمام البخاري إلى أن أصح الأسانيد : مالك عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما . وقد عرف هذا الإسناد عن المحدثين بسلسلة الذهب[٤٦] .

ونظراً لما تمتع به الإمام نافع من ثقة عالية فقد أرسله عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلم الناس السنن[٤٧] ، كما ولاّه على صدقات اليمن أيضاً[٤٨] .

ولا شك أنه نال ما ناله من تلك المكانة لغزارة علمه وتحريه ودقته حتى كان يتحرى أن يروي كما سمع ولو كان لحناً .

قال إسماعيل بن أمية : كنا نردّ نافعاً عن اللحن فيأبى ويقول : لا إلا الذي سمعته[٤٩] .

ولهذه الدقة في الرواية قال سفيان بن عيينة : فأي حديث أوثق من حديث نافع[٥٠] . ولعل وفرة العلم والدقة فيه كانت بملازمته لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما الذي اشتهر بعلمه وتحريه ودقته .

ثم إن المكانة العلمية التي تمتع بها نافع لم يصاحبها حظ وافر من إقبال الناس عليه .

قال مالك : كان نافع يجلس بعد الصبح في المسجد لا يكاد يأتيه أحد فإذا طلعت الشمس خرج ، وكان يلبس كساء وربما وضعه على فمه لا يكلم أحداً ، وكنت أراه بعد صلاة الصبح يلتف بكساء له أسود[٥١] .

ولعل قلة إقبال الناس عليه إنما كان لحدة فيه كما يظهر ذلك من قول مالك السابق (لا يكلم أحداً) وقد أكد مالك هذا الوصف بقوله : (كان في نافع حدة[٥٢]) إن هذه الحدة لم تكن مانعاً عند الإمام مالك من الأخذ عنه طالما يحتفظ بقسط وافر من علم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الصحابي الفقيه الدقيق الورع، وهذا الذي دفع الإمام مالكاً لتجاوز حاجز الحدة بالأسلوب المناسب ، حيث كان يتحين ساعة خروجه من داره ثم يلاطفه قبل أن يسأله العلم .

قال الإمام مالك كنت آتي نافعاً نصف النهار وما تُظلني الشجرة من الشمس أتحين خروجه فإذا خرج أدعه ساعة كأني لم أرِده ثم أتعرض له فأسلم عليه وأدعه حتى إذا دخل البلاط أقول له : كيف قال ابن عمر في كذا وكذا ؟ فيجيبني ثم أحبس عنه ، وكان فيه حدة[٥٣] .

وقال مصعب الزبيري : كان مالك يقود نافعاً من منزله إلى المسجد وكان قد كُفّ بصره فيسأله فيحدثه ، وكان منزل نافع بناحية البقيع[٥٤] .

إن هذا الموقف من الإمام مالك مع شيخه يعلم كلَّ طالبِ علم درساً في أدب التلميذ مع أستاذه ، الذي افتقده اليوم أكثر طلاب العلم ، ودرساً آخر في كيفية الحرص على العلم والتواضع في أخذه وتلقيه .

وحُق للإمام مالك أن يتبوأ تلك المكانة العلمية لأنه عرف الحقيقة ودفع الثمن غالياً .

وبعد هذا العرض الموجز لحياة مالك مع شيخه نلمس أن مالكاً تأثر بشيخه حديثاً وفقهاً ، إذ إنه روى عن شيخه نافع في كتابه الموطأ أكثر من غيره .

فقد عد الحافظ الذهبي مرويات مالك عن نافع في الموطأ فبلغت (٨٥) حديثاً[٥٥] علماً أنه لم يرو مثل هذا العدد عن غير نافع من شيوخه ، وهذا الإسناد مما ازدان به الموطأ لأنه عرف بسلسلة الذهب عند المحدثين كما تقدم.

لقد ترك هذا الإمام ميراثاً علمياً وافراً حاز الإمام مالك بالحظ الأوفر منه ، وقد مات رحمه الله سنة ١١٧هـ في الأرجح[٥٦] .

٢ - عبد الرحمن بن هُرْمُز الأعرج ، أبو داود :

وقيل : أبو حازم المدني ، مولى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب[٥٧] .

روى عن جماعة من الصحابة منهم : أبو هريرة ، وأبو سعيد الخدري ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مالك بن بُحينة ، ومحمد بن مسلمة الأنصاري ، ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم جميعاً ، كما روى عن كبار التابعين منهم : أبو سلمة بن عبد الرحمن ، وعمير مولى ابن عباس ، وعبد الله بن كعب بن مالك ، وعبيد الله بن أبي رافع ، وأسيد بن رافع بن خديج رحمهم الله .

وأشهر من أخذ عنه العلم الإمام الزهري ، وربيعة الرأي ، وموسى بن عقبة ، ويحيى بن سعيد الأنصاري ، ومحمد بن إسحاق صاحب المغازي ، وعبد الله بن لهيعة وغيرهم[٥٨] .

كان من علماء السنة الأثبات ، شهد بذلك الأئمة ، قال ابن سعد : كان ثقة كثير الحديث[٥٩] .

ووثقه علي بن المديني والعجلي وأبو زرعة بن خراش[٦٠] .

وقال الحافظ الذهبي : الإمام الحافظ الحجة[٦١] .

وقال الحافظ ابن حجر : ثقة ثبت عالم[٦٢] .

لازمه الإمام مالك سبع سنين دون انقطاع كما تقدم، لكنه استحلف الإمام مالكاً أن لا يذكر اسمه في حديث[٦٣] . ولعله فعل ذلك تواضعاً .

ولم تكن شخصيته العلمية تتصف بالحديث فقط بل اشتهر بتجويد القرآن الكريم وإقرائه وكتابة المصاحف ، وأنساب العرب ، واللغة العربية حتى قيل : أنه أول من وضع قواعد اللغة العربية .

قال الحافظ الذهبي : جوّد القرآن وأقرأه ، وكان يكتب المصاحف .

وحكى الحافظ الذهبي عن أبي النضر قوله : كان عبد الرحمن بن هُرْمز أول من وضع العربية فكان أعلم الناس بأنساب قريش . وقيل إنه أخذ العربية عن أبي الأسود الديلي[٦٤] .

مات رحمه الله مرابطاً بالإسكندرية سنة (١١٧) عن عمر جاوز الثمانين .

٣ - ربيعة الرأي :

هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن فَرّوخ ، أبو عثمان المعروف بربيعة الرأي .

روى عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد ، وسعيد بن المسيب ، والحارث بن بلال بن الحارث ، وحنظلة بن قيس الزُّرقي وغيرهم .

روى عنه يحيى بن سعيد الأنصاري ، وسليمان التيمي ، والإمام الأوزاعي ، وشعبة بن الحجاج العَتْكي ، وسفيان الثوري ، وحماد بن سلمة ، والليث بن سعد ، ومالك بن أنس ، وغيرهم من كبار العلماء .

وكان رحمه الله من كبار العلماء والفقهاء الذين انتهت إليهم رئاسة الفقه في المدينة ، وبه تميز وعُرف حتى لقب بربيعة الرأي لكثرة أقواله فيه وتخريجاته الفقهية .

قال الخطيب[٦٥] البغدادي : كان ربيعة فقيهاً عالماً حافظاً للفقه والحديث .

وقال الحافظ الذهبي[٦٦] : كان من أئمة الاجتهاد .

وقال مصعب الزبيري[٦٧] : كان يقال له : ربيعة الرأي وكان صاحب الفتوى بالمدينة ، وكان يجلس إليه وجوه الناس .

وقال عبيد الله بن عمر[٦٨] : هو صاحب معضلاتنا وعالمنا وأفضلنا .

وقال الحافظ الذهبي : كان من أوعية العلم[٦٩] .

وقال سَوّار بن عبد الله العنبري : ما رأيت أحداً أعلم من ربيعة الرأي[٧٠] .

وثقه ابن سعد ، وأحمد وأبو حاتم ، والنسائي ، والعجلي ، وغيرهم ، وقال يعقوب بن شيبة : ثقة ثبت[٧١] .

وقد تميزت شخصيته العلمية بالفقه حتى كان صاحب الفتوى في المدينة .

قال الإمام مالك: ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة[٧٢] .

وكانت حلقة ربيعة من أكبر حلقات العلم في مسجد رسول الله ﷺ وكان يحضرها أربعون مُعْتماً ، ومن بينهم الإمام مالك .

قال مصعب الزبيري : كان يجلس إليه وجوه الناس ، وكان يجلس في مجلسه أربعون مُعْتماً، وعنه أخذ مالك[٧٣] .

تلك المكانة التي تبوأها ربيعة دفعت بأسرة مالك أن يوجهوه إلى ربيعة ليتعلم منه منذ بدأ طلب العلم كما تقدم.

قال الحافظ الذهبي في معرض ذكر الرواة عن ربيعة ذكر منهم الإمام مالك ثم قال : وبه تفقه[٧٤] .

وإن ملازمة مالك لربيعة كان لها أثر كبير في بناء شخصيته الفقهية من حيث الدقة في انتزاع الحكم من الدليل ، وقد ظهر أثر ذلك في قبول القريب والبعيد لمذهبه الفقهي حتى تبوأ مكان الصدارة الفقهية في أكثر الأقطار الإسلامية في عصره .

ولا غرو في ذلك فربيعة انتهت إليه الرئاسة الفقهية والفتوى في المدينة قبل مالك بين كبار العلماء ، وقد لازمه مالك منذ صغره على نباهته ووفرة عقله وتوفيق الله له .

كما يظهر واضحاً بقول مالك : (ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة)[٧٥] .

إن تأسفه على موت ربيعة وذهاب حلاوة الفقه بعده لدليل واضح على تأثره بفقه ربيعة تأثراً أخذ حيزاً وافراً من عقليته الفقهية .

ومما يدل على ذلك أيضاً كثرة حديثه عنه بين الناس مما يدل على إعجابه به .

فقد أخرج الخطيب البغدادي في تاريخه[٧٦] بإسناده من حديث بكر بن عبد الله ابن الشَّرود الصنعاني قال : أتينا مالك بن أنس فجعل يحدثنا عن ربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن ، فكنا نستزيده من حديث ربيعة ، فقال لنا ذات يوم : ما تصنعون بربيعة ؟ هو نائم في ذاك الطاق، فأتينا ربيعة فأنبهناه ، فقلنا له : أنت ربيعة بن أبي عبد الرحمن ؟ قال : بلى ، قلنا : ربيعة بن فَرّوخ ؟ قال : بلى ، قلنا : ربيعة الرأي ؟ قال : بلى ، قلنا : هذا الذي يحدث عنك مالك بن أنس ؟ قال : بلى ، قلنا له : كيف حظي بك مالك ولم تحظ بنفسك ؟ قال : أما علمتم أن مثقالاً من دولة خير من حِمل علم .

لقد خلّف ربيعة ميراثاً علمياً أخذه عنه كثيرون أشهرهم الإمام مالك بن أنس ، وكان قد مات بالأنبار سنة (١٣٦) عندما أقدمه أبو العباس السفاح ليوليه القضاء .

وقيل : توفي في المدينة المنورة . رحمه الله تعالى .

٤ – الإمام الزهري :

هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة أبو بكر القرشي المدني نزيل الشام .

روى عن ابن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وأنس ابن مالك ، والسائب بن يزيد ، ومحمود بن الربيع ، وغيرهم من الصحابة .

كما روى عن كبار التابعين كسعيد بن المسيب - وجالسه ثماني سنوات وتفقه به - وعروة بن الزبير ، وأبي سلمة بن عبد الرحمن ، والقاسم بن محمد ، ومحمد بن النعمان بن بشير ، وقبيصة بن ذؤيب ، وغيرهم .

روى عنه عطاء بن أبي رباح ، وعمر بن عبد العزيز ، وعمرو بن دينار ، وزيد بن أسلم ، وأبو الزناد عبد الله بن ذكوان ، والإمام الأوزاعي ، ومعمر بن راشد ، وعبد الملك ابن جريج ، وصالح بن كيسان، والإمام مالك ، وغيرهم ولد رحمه الله سنة ٥٠ وقيل ٥١ للهجرة ومات سنة ١٢٤هـ[٧٧].

وكان هذا الإمام قد خرج من المدينة إلى الشام سنة اثنتين وثمانين للهجرة أيام عبد الملك بن مروان ، ومكث في الشام إلى أن توفي فيها غير أنه كان يتردد إلى مكة والمدينة في المواسم ويمكث مدة يلتقي فيها بأهل الحرمين فيسمعون منه العلم ثم يعود إلى الشام .

قال الليث بن سعد[٧٨] : قدم ابن شهاب على عبد الملك سنة اثنتين وثمانين .

وقال الزهري [٧٩] : اختلفت من الحجاز إلى الشام خمساً وأربعين سنة .

ويعدّ هذا الإمام من العلماء الذين انتهت إليهم الرئاسة في الحديث في عصره ، إذ إنه أدرك من الصحابة أمثال عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك، ممن أفتوا ورووا الكثير عن النبي ﷺ ، كما جلس مدة طويلة إلى كبار التابعين الذين انتهت إليهم الفتوى في المدينة كسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد وأبي سلمة بن عبد الرحمن ، وغيرهم ، وقد لازمهم ملازمة طويلة مع الحرص الدؤوب على طلب العلم مهما تنوعت مصادره وتعددت شعبه وطرقه .

قال أبو الزناد[٨٠]: كان ابن شهاب يكتب كلَّ ما سمع فلما احتيج إليه علمت أنه أعلم الناس . وقال صالح بن كيسان[٨١] : كنت أطلب العلم أنا والزهري فقال : تعال نكتب السنن فكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ ، ثم قال : تعال نكتب ما جاء عن الصحابة فكتب ولم نكتب، فأنجح وضيعت.

وقال إبراهيم بن سعد بن[٨٢] إبراهيم قلت لأبي : بما فاتكم ابن شهاب ؟ قال : كان يأتي المجالس من صدورها ولا يلقى في المجلس كهلاً إلا ساءله ولا عجوزاً ولا كهلة إلا ساءله حتى يحاول ربّات الحِجال .

تلك الهمة العالية والطلب الدؤوب جعل الزهري يحتل مكان الصدارة في علم السنة .

قال مكحول : ما بقي على ظهرها أعلم بسنة ماضية منه[٨٣] .

وقال عمر بن عبد العزيز : عليكم بابن شهاب هذا فإنكم لا تلقون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه[٨٤] .

وقد شهد له بالإمامة في السنة والفضل كبار الأئمة أمثال قتادة وأيوب السختياني والليث بن سعد ، ويحيى بن سعيد الأنصاري ، وسفيان بن عيينة وغيرهم .

بل قال له شيخه سعيد بن المسيب : ما مات من ترك مثلك[٨٥] . يريد أن علمه باقٍ بعد وفاته لأنه ورثه أمثال الإمام الزهري .

ثم إنه قد يعود الفضل إليه في جمع السنة وتدوينها، إذ يعتبر ممن دوّن السنة بأمر عمر بن عبد العزيز دون تأخر .

كما يعود إليه الفضل في رواية الحديث في الشام مسنداً غير مرسل .

قال الوليد بن مسلم : سمع الزهري أهل الشام يقولون في روايتهم : قال رسول الله ﷺ ، وقال رسول الله ﷺ . فقال : يا أهل الشام أرى أحاديثكم ليس لها أزمّة ولا خُطم . قال الوليد بن مسلم : فتمسك أصحابنا بالأسانيد في يومئذ[٨٦] .

إن ما تقدم يدل على إمامته في السنة لأنه رحمه الله كان يجمع بين السنة والفقه لذا نال تلك المنزلة عند العلماء

وأهل الفضل .

قال مُطَرِّف بن عبد الله : قال مالك : ما أدركت بالمدينة فقيهاً محدثاً غير واحد . قلت : من هو : فقال : ابن شهاب الزهري(٨٧) .

وقال علي بن المديني : أفتى أربعة: الحكم بن عُتيبة ، وحماد بن سلمة ، وقتادة ، والزهري . والزهري عندي أفقههم(٨٨) .

وقال السمعاني : كان الإمام الزهري من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقاً لمتون الأخبار ، كان فقيهاً فاضلاً ، روى عنه الناس(٨٩) .

وقال ابن الجوزي : جمع الفقه والحديث(٩٠) .

وقال : مُطَرِّف بن عبد الله : قال مالك : ما أدركت بالمدينة فقيهاً محدثاً غير واحد . فقلت : من هو ؟ فقال : الزهري(٩١) .

تلك الشخصية العلمية النادرة جعلت الإمام مالكاً يلازمها لينهل من معينها ، فقد حرص على التلقي عن الإمام الزهري في كل قدمةٍ قدمها إلى المدينة ، مما جعل الزهري يتعجب من تلك الهمة النادرة ، ونترك المجال للإمام مالك كي يحدثنا عن بعض تلك المواقف فيقول :

قدم علينا الزهري فأتيناه ومعنا ربيعة فحدثنا حديثاً، ثم أتيناه الغد فقال : انظروا كتاباً حتى أحدثكم منه أرأيتم ما حدثتكم به أمس أي شيء في أيديكم منه ؟ فقال له ربيعة : ها هنا من يرد عليك ما حدثت به أمس ، فقال : ومن هو ؟ قال : ابن أبي عامر ، قال : هات ، فحدثته بأربعين حديثاً منها ، فقال الزهري : ما كنت أرى أنه بقي من يحفظ هذا غيري(٩٢) .

كما يحدثنا مالك عن حرصه الدؤوب على السماع من الزهري حتى ولو في الأوقات التي ليست بالأوقات المعدة للسماع .

يقول رحمه الله : شهدت العيد فقلت : هذا اليوم يوم يخلو فيه ابن شهاب ، فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه ، فسمعته يقول لجاريته ، انظري من على الباب فنظرت فسمعتها تقول : مولاك الأشقر مالك ، فقال : أدخليه ، فدخلت فقال : ما أراك انصرفت بعد إلى منزلك ؟ فقلت : لا ، قال : هل أكلت شيئاً ؟ قلت : لا . قال : فتطعم؟ قلت : لا حاجة لي فيه . قال : فما تريد ؟ قلت : تحدثني ، فحدثني سبعة عشر حديثاً ثم قال : وما ينفعك أن أحدثك ولا تحفظها ؟ قلت : إن شئت رددتها عليك . فرددتها عليه فقال : قم فأنت من أوعية العلم أو قال : إنك لَنِعم المستودع للعلم(٩٣) .

لا شك أن تلك الملازمة والحرص الدؤوب كان لهما الأثر الكبير في بناء شخصية الإمام مالك الحديثية .

ولقد تحمل الإمام مالك عن الزهري نحواً من ثلاثمائة وخمسين حديثاً .

قال أحمد بن صالح : نظرت في أصول مالك فوجدتها شبيهاً باثنتي عشر ألف حديث ، وأخرج إليَّ ابن أبي أوفى سماع مالك من الزهري فإذا هو نحو ثلاثمائة وخمسين حديثاً .

وقد روى له في الموطأ ثمانية عشر حديثاً مرفوعاً ، فقط لأنه كان يروي أقل بكثير مما يسمع ويتحمل .

وعلى كل حال فالذي يظهر من شخصية الإمام مالك الفقهية والحديثية أنه اكتسب ذلك من شيخه ربيعة والزهري ونافع وابن هرمز أكثر من غيرهم ، يدل لذلك ما يأتي :

أولاً : أن مالكاً روى في الموطأ عن أكثر من مائة وثلاثين شيخاً لكنه لم يؤثر عنه ذكره لهم في مواقف علمية وتربوية تدل على ملازمته لهم وتأثره بهم علمياً وتربوياً كما أثر عنه في شيوخه نافع، وابن هرمز ، وربيعة ، والزهري .

ثانياً : من المعلوم أن التلميذ إذا وثق بأستاذه في العلم اتخذه قدوة حسنة في سلوكه ، والإمام مالك رحمه الله أثر عنه ما يدل على ثقته القوية وتأثره بشيخه ربيعة والزهري

أكثر من غيرهما، حيث لم يتصدر للفتيا حتى سأل من يثق به من شيوخه ويركن إليه وهو ربيعة والزهري.

قال ابن وهب : جاء رجل يسأل مالكاً عن مسألة فبادر ابن القاسم فأفتاه فأقبل عليه مالك كالمغضب وقال له: جسرت على أن تفتي يا عبد الرحمن ؟ يكررها عليه، ما أفتيت حتى سألت : هل أنا للفتيا موضع ؟ فلما سكن غضبه قيل له : من سألت : قال : الزهري وربيعة الرأي[٩٤] .

كما أنه لما بدأ نجم الإمام مالك يلمع في سماء العلم دعاه أمير المدينة مع العلماء إلى مجلسه ، فلم يستجب لذلك الطلب حتى استأذن شيخه ربيعة مع أنه طلب تشريف وتكريم تتسارع النفس إلى تلبيته .

قال ابن وهب : قال لنا مالك يوماً : دعاني الأمير في الحداثة أن أحضر المجلس فتأخرت حتى راح ربيعة فأعلمته وقلت : لم أحضر حتى جئت أستشيرك . فقال لي ربيعة : نعم .

قال ابن وهب : فقلت له : فلو لم يقل لك احضر لم تحضر ؟ قال : لم أحضر ثم قال : يا أبا محمد لا خير فيمن يرى نفسه بحالة لا يراه الناس لها أهلاً[٩٥] .

فمثل هذه المواقف تدل على مدى تأثر مالك بشيخيه ربيعة والزهري وهذا فضلاً عما تقدم مما دل على ذلك من ثناء مالك على ربيعة وتحسره على ذهاب حلاوة الفقه بعد موته.

كما يدل على ذلك أيضاً ثناؤه على الزهري ثناء يدل على ثقة قوية به حيث يقول : بقي ابن شهاب وما له في الناس نظير[٩٦] .

يضاف إلى ذلك أن الهمة العالية جعلته يتأثر بأكبر الشخصيات لا بأي شخصية برزت على الساحة العلمية .

قدم ابن شهاب المدينة فأخذ ربيعة ودخلا بيت الديوان فما خرجا إلى العصر ، فقال ابن شهاب ما ظننت أن بالمدينة مثلك ، وخرج ربيعة وهو يقول : ما ظننت أن أحداً بلغ من العلم ما بلغ ابن شهاب[٩٧] .

بعد هذا أود أن ألفت النظر إلى أمر فقده أكثر طلاب العلم اليوم في عصرنا الحاضر وهو موقف الطالب من أستاذه في جميع حالاته وحتى في المجالات النفسية .

فقد علّمنا فيه الإمام مالك درساً لا ينسى ، فإنه عندما يلتف الناس حول مالك وينظرون إليه بعين الإكبار والإقرار له بالعلم والفضل لم ينس أنه طالب ، ولم ينس أبوة أستاذه ، فلم يفتِ أحداً ، ولم يتصدر لذلك حتى أذن له بذلك شيخاه ربيعة والزهري .

والجدير بالذكر أن بعض النفوس في مثل هذه المواقف تنسى الذي علمها لأنها أصبحت في المكانة المقصودة والمرتبة التي تنشدها .

والأهم من ذلك أن أمير المدينة يدعو مالكاً ليحضر مجلسه مع العلماء على حداثة سنه - وهذا أمر تتسارع النفس إلى تلبيته وتتشوق إلى لقائه - فلم يؤثر ذلك على نفسية الإمام مالك حيث لم يحجبه عن رؤية حقيقته كطالب ولم يحجبه عن رؤية أبوة شيخه ، فلم يستجب لطلب الأمير حتى سمح له والده في العلم ربيعة الرأي .

فهذا الإخلاص والسلوك الصحيح منح مالكاً المكانة العلمية الرفيعة التي طمحت إليها الآماق وضُربت إليه أكباد الإبل من جميع الآفاق رضي الله عنه وعن سلفنا الصالح القدوة الحسنة للأمة الإسلامية .

المطلب الثالث : صفاته النادرة ، وشهادة العلماء له بالعلم والفضل :

إن المتتبع لتاريخ الشخصيات الإسلامية التي كان لها كبير الأثر في صنع التاريخ وتقبلتها قلوب العامة والخاصة دون منازع يجد أن العوامل الأساسية التي ساعدت على بناء تلك الشخصيات متعددة موضوعية ومتكاملة أهمها : الإخلاص ، القوة العقلية ، الغزارة العلمية .

والإمام مالك رحمه الله أحد تلك الشخصيات التي

كان لها أكبر الأثر في تاريخ القدوة الحسنة في عصره ، فقد ضربت إليه أكباد الإبل من الآفاق ، وطمحت إليه الآماق، وغدا منهجه الفقهي وسيرته العطرة منهجاً يحتذى إلى عصرنا الحاضر .

ويكفي إشادة بفضله وتميزه على أهل عصره إشارة النبي ﷺ إليه مبشراً به ومنوهاً بفضله .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ليضربن الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة[٩٨] .

لقد ذهب كثير من العلماء إلى أنه هو المراد في هذا الحديث منهم الإمام سفيان بن عيينة والشافعي وعبد الرزاق الضعاني، والحاكم ، والذهبي ، وغيرهم[٩٩] .

وإيضاحاً لتنويه النبي ﷺ بفضله لا بد من التنويه بعوامل تميزه السالفة الذكر :

أما الإخلاص فهو أهم ما ظهرت آثاره في أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته ، وعرف ذلك منه ، قال عبد الله بن مسلمة القعنبي : ما أحسب بلغ مالك ما بلغ إلا بسريرة كانت بينه وبين الله تعالى[١٠٠] .

وقال محمد بن خالد بن عَثْمة : كنت إذا رأيت وجه مالك رأيت أعلام الآخرة في وجهه ، فإذا تكلم علمت أن الحق يخرج من فيه[١٠١] .

وقال عبد الله بن المبارك : رأيت مالكاً فرأيته من الخاشعين لله وإنما رفعه الله بسريرة بينه وبينه ، وذلك أن كثيراً ما كنت أسمعه يقول : من أحب أن تفتح له فرجة في قلبه وينجو من غمرات الموت وأهوال يوم القيامة فليكن عمله في السر أكثر منه في العلانية[١٠٢] .

هكذا شاء العابدين الخاشعين المخلصين .

قال عبد الله بن وهب : كان أكثر عبادة مالك في السر بالليل والنهار حيث لا يراه أحد وقال : كان في كُمّ مالك منديل مطوي على أربع طاقات ، فإذا سجد سجد عليه فقيل له في ذلك . فقال : أفعله لئلا يؤثر الحصى في جبهتي فيظن الناس أني أقوم الليل[١٠٣] .

ومن آثار الإخلاص أيضاً الجرأة الحكيمة في دين الله عز وجل ، فالمخلص لربه لا يخشى سواه لأنه لا يعظم في قلبه سواه .

قال عبد الرحمن بن مهدي : ما رأيت أحداً الله في قلبه أهيب منه في قلب مالك بن أنس[١٠٤] .

وقال الإمام مالك : والله ما دخلت على ملك من هؤلاء الملوك حتى أصل إليه إلا نزع الله هيبته من صدري[١٠٥] .

لذا يقول الحق لا يخاف فيه إلا مولاه غير عابئ بمن سواه .

فقد أمره أبو جعفر المنصور أن لا يقول : إن طلاق المكره لا يقع . فأبى ذلك وصرح به فجلده أبو جعفر لذلك ، وأصر على قوله بعد الضرب ، حتى أنه حلق رأسه بعد الضرب وحمله على بعير وقيل له : ناد على نفسك فقال : ألا من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفْني فأنا مالك بن أنس أقول : طلاق المكره ليس بشيء فبلغ ذلك جعفر بن سليمان أمير المدينة فقال : أدركوه أنزلوه[١٠٦] .

إن تلك المحنة لم تحط من قدره بل زادته رفعة لأنه أراد رفع الحق .

يقول الواقدي : ما زال مالك بعد ذلك الضرب في رفعة من الناس وعلو من أمره وإعظام الناس له ، وكأنما كانت تلك السياط التي ضرب بها حلياً حلي بها[١٠٧] .

وهكذا شأن التقوى ترفع صاحبها ، قال مروان ابن محمد الأسدي الدمشقي : ما رفع الله مالكاً إلا بالتقوى[١٠٨] .

وإن الرفعة والقبول للإمام مالك بلغا حداً جعل الناس يتحملونه ويقدرونه في تخلفه عن صلاة الجمعة وقيل الجماعة لعذر صحي .

قال الواقدي : كان مالك يأتي المسجد فيشهد

الصلوات والجمعة والجنائز ويعود المرضى ويجلس في المسجد فيجتمع إليه أصحابه ، ثم ترك الجلوس فكان يصلي وينصرف ، وترك شهود الجنائز ثم ترك ذلك كله والجمعة واحتمل الناس ذلك كله ، وكانوا أرغب ما كانوا فيه ، وربما كلم في ذلك فيقول : ليس كل أحد يقدر أن يتكلم بعذره(١٠٩) .

أما عن قوة عقله ، فقد تمتع الإمام مالك بوفرة عقلية فاق بها أهل زمانه حتى لقب بالكامل وقال له أبو جعفر المنصور : أنت أعقل الناس ، وأنت أعلم الناس(١١٠) .

وقال عبد الرحمن بن مهدي : ما رأيت أحداً أهيب ولا أتم عقلاً من مالك(١١١) .

إن وفرة العقل لها ثمارها وآثارها الإيجابية النادرة ، فمنها : صونه للعلم ، ولشخصيته ، فلا يكلم فيما ، لا يعنيه ولا يسأل عما لا يعنيه .

قال الحارث بن مسكين : رحم الله مالكاً ما كان أصونه للعلم(١١٢) .

وقال ابن حارث : كان مالك يُجل الذي عنده إجلالاً عظيماً ويصون نفسه عن جميع الوجوه التي تنتقص وإن قلّت وكان مهيباً شديداً(١١٣) .

وقال هاشم بن عيسى : لما قدم هارون المدينة دعا مالكاً فقال له مالك : منكم خرج هذا العلم وأنتم أولى الناس بإعظامه ، ومن إعظامكم له ألا تدعوا حملته إلى أبوابكم ، قال : قد فعلت يا أبا عبد الله(١١٤) .

وقال بشر بن عمر الزهراني : كان مالك إذا أصبح لبس ثيابه وتعمم ولا يراه أحد من أهله ولا أصدقائه إلا متعمماً لابساً ثيابه ، وما رآه أحد قط أكل أو شرب حيث يراه الناس ، ولا يضحك ولا يتكلم فيما لا يعنيه(١١٥) .

ومن آثار العقل الوافر مداراة الناس وإنصافهم ، قال عبد الله بن المبارك : كان مالك أشد الناس مداراة للناس وترك مالا يعنيه(١١٦) .

وقال إسماعيل بن أبي أويس : كان مالك يستعمل الإنصاف ويقول : ليس في الناس أقل منه فأردت المداومة عليه(١١٧) .

إن صون مالك لشخصيته العلمية بوافر عقله وثبات دينه وورعه جعل الناس يذعنون له بالفضل ويجلونه ويهابونه ، لذلك كان مجلسه مجلس علم ووقار لا هزل فيه ولا لهو ، وكان الجلوس عنده لا يرفعون رؤوسهم إليه إجلالاً له وهيبة .

قال الواقدي : كان مالك يجلس على ضجاع ونمارق مطروحة في منزله يمنة ويسرة لمن يأتي من قريش والأنصار والناس ، وكان مجلسه مجلس وقار وحلم وكان رجلاً مهيباً ليس في مجلسه شيء من المراء واللغط ولا رفع صوت ، إذا سُئل عن شيء فأجاب سائله لم يقل له من أين رأيت هذا(١١٨) .

وقال عبد الله بن مسلمة القعنبي : ما رأيت قط أشد وقاراً من مجلس مالك كأن الطير على رؤوسهم(١١٩) .

وقال يحيى الليثي : كنا نجتمع على باب مالك فإذا توافينا صرخ الآذن ليدخل أهل المدينة ، ثم يؤذن لغيرهم فيدخلون ويسلمون عليه ، ويسكت ونسكت ساعة ، فإذا رأى منا ازدحاماً قال : توقروا فإنه عون لكم ، وليعرف صغيركم حق كبيركم(١٢٠) .

وقد كان مالك كالسلاطين هيبة وشأناً ، فقد كان يقف خلفه رجال يأمرهم بإخراج من أراد إخراجه لأي سبب يكره .

قال إسماعيل القواريري : دخلت على مالك فسألته الحديث فحدثني باثني عشر حديثاً فاستزدته ، وكان سُودان قيام على رأسه فإذا هم قد حملوني وأخرجوني من داره فرموا بي في الطريق(١٢١) .

وقال أبو مُسْهر : كان مالك يسأل عن مسألة وثانية فإذا سُئل عن ثالثة قال : خذوه بيده فأخرجوه(١٢٢) .

وقال القعنبي : رأيت مالكاً يقام بين يديه الرجل كما يقام بين يدي الأمير[١٢٣] .

روي أن سفيان الثوري رحمه الله كان في مجلس مالك ، فلما رأى إجلال الناس له وإجلاله للعلم أنشد:

يأبى الجواب فلا يراجع هيبةً
فالسائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار وعز سلطان التقى
فهو المهيب وليس ذا سلطان[١٢٤]

كل ذلك كان ثمرة التقوى وصون العلم وما أحوجنا اليوم إلى مثل ذلك .

أما عن الغزارة العلمية : فيكفي فيها شهادة النبي ﷺ كما تقدم ، وإذا كان كذلك فشهادة العلماء من باب أولى ، وقد شهد له بذلك أعيان العلماء في جميع الأقطار الإسلامية ، أقتصر على ذكر بعضهم طلباً للاختصار :

يقول الإمام أبو حنيفة رحمه الله : رأيت بالمدينة علماً مبثوثاً فإن يجمعه أحد فالغلام الأبيض الأحمر . يعني: مالكاً[١٢٥] .

وقال أيضاً : ما رأيت أسرع منه بجواب صادق وزهد تام[١٢٦] .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله : إذا ذكر العلماء فمالك النجم[١٢٧] .

ولما ذُكر عند الإمام أحمد رحمه الله : قدمه على الإمام الأوزاعي ، والثوري ، والليث بن سعد ، وحماد بن زيد ، والحَكَم بن عتيبة ، في العلم ، وقال : هو إمام في الحديث وفي الفقه[١٢٨] .

وقال الإمام الأوزاعي رحمه الله : هو عالم العلماء ، ومفتي الحرمين[١٢٩] .

وقال الإمام سفيان بن عيينة رحمه الله : مالك عالم أهل الحجاز وهو حجة زمانه .

وقال أيضاً : ما ترك على ظهر الأرض مثله[١٣٠] .

وقال الإمام أبو يوسف رحمه الله : ما رأيت أعلم من ثلاثة : أبا حنيفة، ومالك بن أنس ، وابن أبي ليلى[١٣١] .

وقال الإمام علي بن المديني رحمه الله : ما أُقدِّم على مالك أحداً في صحة الحديث ، ومالكٌ أمير المؤمنين في الحديث[١٣٢] .

وقال الإمام يحيى بن سعيد القطان رحمه الله : هو إمام يقتدى به[١٣٣] .

وقال الإمام يحيى بن معين رحمه الله : كان من حجج الله على خلقه[١٣٤] .

وقال الإمام النسائي : أمناء الله على علم رسوله ﷺ شعبة بن الحجاج ومالك بن أنس ، ويحيى بن سعيد القطان ، وقال : ما أحد عندي بعد التابعين أنبل من مالك ابن أنس ولا آمن على الحديث منه[١٣٥] .

وغير هؤلاء العلماء من شيوخه وأقرانه وتلاميذه ، ثم العلماء الذين عاشوا بعد عصره وذلك إجماع وإطباق على علمه وفضله رحمه الله[١٣٦] .

المطلب الرابع : وفاته :

أما وفاته رحمه الله : فكانت صبيحة يوم الأحد من شهر ربيع الأول ، على اختلاف في تحديد اليوم ، عام تسع وسبعين ومائة (١٧٩) رحمه الله ، ودفن في البقيع[١٣٧] .

المبحث الثاني : التعريف بكتاب الموطأ:

- المطلب الأول : معنى الموطأ ، وسبب تسميته بذلك.
- المطلب الثاني : سبب تصنيف الموطأ .
- المطلب الثالث : وقت جمع الموطأ وإخراجه للناس.
- المطلب الرابع : ثناء العلماء على الموطأ.

المطلب الأول : معنى الموطأ وسبب تسميته بذلك :

يطلق فعل وَطِئَ على معان :

منها : التمهيد والتسوية ، يقال : وطّأتُ الموضعَ توطئة . بمعنى مهدته وسويته بحيث يكون قابلاً للجلوس أو السير عليه .

ويقال : وطُؤ الموضع أي صار ممهداً .

ومنها : الموافقة ، يقال : واطأته على الأمر . إذا وافقته فيه ، ويقال : تواطؤوا على الأمر : إذا توافقوا عليه.

ومنها : الاتباع والتقليد ، يقال : مُوطأ العقِب يعني : سلطان يُتّبع .

ومنها : المشي بالأقدام أو الوقوف بها على الأرض ، يقال : وطِئْت الموضع إذا مشيت فيه ويقال لموضع القدم في الأرض وَطْأة .

ومنها : الضغط والتحامل على الشيء ، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : (اللهم اشدد وَطْأتك على مُضَر)[١٣٨] .

أما سبب تسميته بذلك ، فقد حكى السيوطي عن أبي حاتم الرازي : أن الإمام مالكاً صنف الكتاب ووطّأه للناس حتى قيل موطأ مالك .

وحكي أيضاً عن علي بن أحمد الخليجي قال : سمعت بعض المشايخ يقول : قال مالك : عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة فكلهم واطأني عليه فسميته الموطأ[١٣٩] .

وبالنظر إلى ما ذكر من سبب التسمية بالموطأ نجد أن المعنى اللغوي الأول والثاني يتطابقان معه تطابقاً كاملاً .

كما أن المعنى الثالث وهو الاتباع والتقليد لا يبعد أن يكون سبباً في التسمية وإن لم ينقل ذلك عن الإمام مالك ، إذ إن الموطأ ذاع صيته وانتشر في الأمصار واتبع ما فيه أهل مصر والمغرب وغيرهم ، علماً أننا لسنا بصدد توثيق ما ورد في سبب التسمية ، إذ المعنى اللغوي كافٍ في الدلالة على ذلك . والله أعلم .

المطلب الثاني : سبب تصنيف الموطأ :

قبل أن أذكر سبب جمع مالك الموطأ سأذكر من قيل فيه أنه جمع موطأ ، وهل الإمام مالك هو أول من صنف الموطأ ؟ أم هناك من سبقه ؟ أقول وبالله التوفيق :

لم ينفرد الإمام مالك رحمه الله تعالى بجمع موطأ بل هناك من العلماء من صنف هذا النوع من التصنيف كالإمام محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب المدني المتوفى سنة (١٥٨) وقيل[١٤٠] (١٥٩) ، وعبد العزيز بن سلمة الماجشون المدني المتوفى سنة (١٦٤)[١٤١] وقيل (١٦٦) ، وإبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي المدني المتوفى سنة (١٨٤)[١٤٢] ، وإسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد أبو إسحاق الأزدي المتوفى سنة (٢٨٢) ، وعبدان بن محمد المروزي المتوفى سنة (٢٩٣)[١٤٣].

فنلاحظ مما ذكر أن الذين نسب إليهم تصنيف الموطأ ثلاثة منهم في عهد الإمام مالك رحمه الله ، ويشاركونه في سكنى المدينة ، ولكن من هو الذي ابتدأ هذا النوع من التصنيف ؟

ليس بين أيدينا ما يدل على تحديد ذلك بصورة قطعية ، وإنما هناك بعض النصوص التي تدل على أن مالكاً هو أول من صنف الموطأ ، كما أن ثمة نصوصاً أخرى تدل على أن مالكاً قد سبقه غيره في التصنيف .

فقد قال الحافظ العلائي رحمه الله : ذكر جماعة من العلماء ، أن أول من وضع كتاباً من حديث النبي ﷺ على الأبواب الإمام مالك بن أنس . يعنون الموطأ ، وبقية الكتب التي بأيدي الناس عُملت بعده[١٤٤] .

فهذا القول صريح في أن مالكاً هو أول من ابتدأ بالتصنيف ، وقد حكاه العلائي عن جماعة من العلماء .

ولكن هناك نص يدل على أن عبد العزيز بن سلمة الماجشون المدني قد سبق مالكاً في التصنيف .

فقد حكى القاضي عياض أن أول من عمِل الموطأ عبد العزيز بن الماجشون عمله كلاماً بغير حديث ، فلما رآه مالك قال : ما أحسن ما عمِل ولو كنت أنا لبدأت بالآثار ثم شددت ذلك بالكلام ، ثم عزم على تصنيف الموطأ ، فعمل من كان بالمدينة يومئذ من العلماء الموطآت[١٤٥] .

فهذا النص صريح في الدلالة على أن مالكاً قد سُبق بالتصنيف ، ويمكن الجمع بين القولين بأن يقال : إن مالكاً يمكن أن يُعتبر هو أول من جمع الموطأ على الطريقة التي سلكها في كتابه من الجمع بين الحديث وفقهه.

ويعتبر ابن الماجشون أول من جمع الموطأ ككتاب فقه على الأبواب دون ذكر للدليل والله أعلم .

أما عن سبب جمع مالك للموطأ فقد ورد في ذلك سببان :

أحدهما : أن عبد العزيز بن سلمة الماجشون جمع موطأً وكان كلاماً بغير حديث فأعجب مالكاً وقال : لو كنت أنا لبدأت بالآثار ثم شددت ذلك بالكلام ثم عزم على تصنيف الموطأ ، وقد تقدم ذكر ذلك .

ثانيهما : أن أبا جعفر المنصور قال لمالك : ضع للناس كتاباً أحملهم عليه فما أحد اليوم أعلم منك ، فوضع الموطأ ، فلم يفرغ منه حتى مات أبو جعفر .

وقد وردت روايات متعددة لهذه القصة ، وفي جميعها طلبُ أبي جعفر من مالك جمع الموطأ(١٤٦) .

فهذان سببان وردا في جمع الموطأ ، ولا تعارض بينهما ، إذ لا يمنع أن يكون الإمام مالك قد رأى موطأ ابن الماجشون بعد أن طلب أبو جعفر المنصور منه جمع الموطأ، أو أنه رأى موطأ ابن الماجشون فحبذ عندئذ جمع الموطأ ، ثم طلب منه أبو جعفر جمع السنة في كتاب فحرك ذلك همته وعزم بعد ذلك على تصنيفه والله أعلم .

المطلب الثالث : وقت جمع الموطأ وإخراجه للناس :

إن الوقت الذي استغرقه الإمام مالك في جمع الموطأ لا يكاد يتحدد لنا بصورة محكمة ، ولكن ربما نقف على ما يقرب لنا حدود ذلك على وجه التغليب لا القطع ، فهناك بعض النصوص تشير إلى زمن الابتداء والشروع في جمعه ، ونصوص أخرى تشير إلى زمن الانتهاء على وجه التقريب أيضاً .

أما وقت الشروع فيه فحكى الحافظ السيوطي في كتابه تنوير الحوالك(١٤٧) قول أبي طالب المكي : هذه المصنفات من الكتب حادثة بعد سنة عشرين أو ثلاثين ومائة ، ويقال : أول ما صُنفّ في الإسلام كتاب ابن جُريج في الآثار وحروف من التفاسير بمكة ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني باليمن ، جمع فيه سنناً منثورة مبوبة ، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك .

وحكى السيوطي أيضاً في تاريخ الخلفاء(١٤٨) له قول الحافظ الذهبي : في سنة ثلاث وأربعين - يعني ومائة - شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير ، فصنف ابن جريج بمكة ، ومالك بن أنس الموطأ بالمدينة، وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم، أو يرون من صحف صحيحة غير مرتبة .

فقول أبي طالب المكي والحافظ الذهبي مشعر بأن الأمر على الاحتمال غير مقطوع به ولعل قول الحافظ الذهبي أحوط في تقريب زمن ابتداء التصنيف ، لأنه أضاف ثلاث سنوات إلى الأربعين ، وما ذلك إلا لما أداه اجتهاده إلى ذلك بعد تمحيص ، وذلك فضلاً عن شهرته بعلم الحديث والتاريخ إضافة إلى غيرهما من العلوم .

أما عن وقت الانتهاء من جمعه ، فهناك نصوص تدل على أن الموطأ كان ظاهراً للناس في سنة ستين ومائة.

فقد أخرج ابن عساكر بإسناده من حديث أحمد بن علي الأبّار قال : سألت مجاهد بن موسى عن سعيدٍ الزّنْبَري قال : سألت عنه عبد الله بن نافع الصائغ فقلت : يا أبا محمد إن المهدي أمر مالك بن أنس حين أخرج الموطأ يصير في صندوق ، حتى إذا كان في أيام الموسم حمل الناس عليه فان كان فيه شيء أصلحه .. وذكر قصة(١٤٩) .

وذكر القاضي عياض عن مالك قصة طويلة في قدوم المهدي إلى المدينة واجتماعه بمالك ، وأشار إلى قصة المهدي مع مالك من أجل حمل الناس على الموطأ(١٥٠) .

فهذا النص دال على أن الموطأ كان ظاهراً للناس عندما حج المهدي، والمهدي حج سنة ستين ومائة وهي أول حجة له بعد الخلافة بدون خلاف، ثم لم يحج بعدها وهو خليفة(١٥١).

ومما يساعد على ذلك أن عبد الرحيم بن خالد الإسكندري مولى الجُمَحيين سمع الموطأ من مالك ثم رحل إلى مصر، ونشر فقه مالك وروى الموطأ عنه، ثم مات سنة ثلاث وستين ومائة، وكان قد سمع عنه سعيد بن أيوب الخزاعي الموطأ ومات سنة إحدى وستين ومائة(١٥٢).

لذلك لا يبعد أن يعود عبد الرحيم بن خالد من المدينة إلى مصر قبل وفاته بمدة يستطيع فيها نشر فقه مالك ورواية موطَّئه.

وقد قال عبد الرحمن بن القاسم يوما لمالك : ما قوم أعلم بهذه البيوع من أهل مصر، فقال مالك : وأنى لهم بذلك؟ فقال : من قِبَل عبد الرحيم(١٥٣).

ومما يساعد على ذلك أيضاً : أن الإمام الشافعي رحمه الله قال : حفظت الموطأ وأنا ابن ثلاث عشرة سنة. وفي رواية : وأنا صبي لم أحتلم(١٥٤). والمعروف أن الشافعي ولد سنة خمسين ومائة، فيكون قد حفظه في سنة ثلاث وستين ومائة، وإذا كان كذلك فلا يبعد أن يكون الموطأ ظاهراً للناس قبل ذلك العام، بل قبل عام (١٦٠) متداولاً مشهوراً حتى انتقلت نسخة إلى مكة ومصر وغيرهما من الأقطار، يساعد ذلك ما رواه أبو مصعب أن أبا جعفر المنصور قال لمالك : ضع للناس كتاباً أدلهم عليه فكلمه مالك في ذلك، فقال : ضعه، فما أحد اليوم أعلم منك، فوضع الموطأ، فلم يفرغ منه حتى مات أبو جعفر(١٥٥).

ولا خلاف في أن وفاة أبي جعفر كان سنة (١٥٨هـ)(١٥٦).

وبناء على ما تقدم، فتكون المدة التي استغرقها الإمام مالك في جمع الموطأ حتى أخرجه للناس بصورة متكاملة نحواً من سبع عشرة سنة، ويحتمل أن يكون قد انتهى منه في أقل من ذلك، وهي ما بين ثلاث وأربعين وبين الستين، ولكن قد يعكر على هذا المقدار من الزمن ما أخرجه ابن عساكر بإسناده من حديث عتبة بن حماد قال عرضت على مالك بن أنس رحمه الله الموطأ في أربعة أيام فقال مالك : علم جمعه شيخ في ستين سنة أخذتموه في أربعة أيام، لا والله لا ينفعكم الله به(١٥٧).

وما ذكره القاضي عياض عن صفوان بن عمر بن عبد الواحد قال : عرضنا على مالك الموطأ في أربعين يوماً فقال : كتاب ألّفتُه في أربعين سنة أخذتموه في أربعين يوماً؟ ما أقل ما تفقهون فيه(١٥٨).

ويمكن الجواب عن هاتين القصتين بأن الإمام مالكاً أراد الحث على الجهد في الطلب والبحث العلمي في غير سطحية، ولو حمل كلامه على إطلاقه لخالف المعتاد والمعروف من سِيَر المصنفين والمؤلفين في حياتهم العلمية وبلوغهم سن النضوج العلمي المكتمل، إذ لو نظرنا إلى رواية عتبة بن حماد عن مالك وأنه جمع الموطأ في ستين سنة، فلو اعتبرنا سنة ستين ومائة هي السنة التي كان الموطأ فيها ظاهراً للناس للزم من ذلك أن يكون قد بدأ مالك بجمعه وهو في سن الثالثة من عمره ولو نظرنا إلى رواية صفوان بن عمر بن عبد الواحد عن مالك وأنه جمعه في أربعين سنة للزم من ذلك أنه قد بدأ بجمعه وهو في سن العشرين من عمره، وذلك سنة (١١٧هـ) وهذا يعارض ما ذكره الذهبي من أن مالكاً شرع في تصنيف الموطأ سنة (١٤٣هـ) إذ بين سنة (١٤٣- ١٦٠) سبعة عشرة عاما فقط وليست (٤٠) سنة، علماً أن مالكاً ولد سنة ثلاث وتسعين في الراجح، وبدأ بطلب العلم في حدود سنة خمس ومائة، وتأهل للفتيا وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة، وحدث عنه جماعة وهو شاب، وقصده طلبة العلم من الآفاق في آخر دولة أبي جعفر المنصور

سنة خمسين ومائة وما بعد ذلك ، وازدحموا عليه في خلافة الرشيد وإلى أن مات رحمه الله تعالى[١٥٩] .

نعم ، يحتمل - وهو الراجح - أن الإمام مالكاً أراد من تلك السنين الطويلة منذ بداية طلبه للعلم - لأنها مرحلة إعداد وتهيئة للتأليف فيما بعد - إلى أن انتهى من تأليف الموطأ ، كي يوضح لمن حوله مدى الجهد الذي بذله في جمع الموطأ ، ثم يعجب من قراءته عليه في أربعة أيام أو أربعين يوماً - بعد ذلك - في يسر وسهولة ، دون تروٍ أو تأصيل لحفظه وفهمه . والله أعلم .

وفي الجملة فإن الذي يرتاح له القلب أن الموطأ كان مفرقاً في مسودات يعرضه الإمام مالك مفرقاً في مجالس، فلما رأى موطأ عبد العزيز بن أبي الماجشون شده ذلك على ترتيبه وتنقيحه وإخراجه مصنفاً مؤلفاً مجموعاً ، ولما كلمه أبو الجعفر المنصور أكد ذلك عزمه فرتبه وبيّضه ثم أخرجه للناس متكاملاً في أول خلافة المهدي سنة (١٥٨هـ) تقريباً . ثم جعل يحذف منه كلما عرض عليه لشدة تحريه.. والله أعلم .

المطلب الرابع : ثناء العلماء على الموطأ :

إن من تتبع المصنفات النافعة التي حازت القبول عند العامة والخاصة ، سواء كانت في العصور السالفة أو في عصرنا الحاضر يجد أن حيازتها على ذلك إنما تركز على أمرين أساسيين ، أحدهما يتعلق بشخصية الكاتب والآخر يتعلق بالكتاب نفسه.

أما الأول : فإنه لا بد لشخصية الكاتب من أن تتمتع بالحظ الأوفر من الاستقامة والغزارة العلمية والمرونة الفكرية الجادة.

أما الثاني : فإن الكتاب الناجح هو الذي يأتي بالجديد من الموضوعات المهمة ويتميز بحسن الترتيب والتبويب ، كما يبرز الغزارة العلمية ، والمرونة الفكرية ، والروح السامية التي يتمتع بها الكاتب هذا فضلاً عن التوفيق الذي يمنحه الله عز وجل للمخلصين الصادقين من خاصة عباده.

كما أن الإمام مالكاً - رحمه الله - قد توافرت فيه جميع الميزات السابقة بل زاد عليها كثيراً ، إذ استمر في الترقي حتى نال درجة إمامة المسلمين فيما يتعلق بفقههم وسنتهم ، فقد تبعه العامة والخاصة في أكثر أصقاع العالم الإسلامي وما ذلك إلا لرسوخ علمه ووفرة عمله وصدقه وإخلاصه ، حتى أذعنت له العقول وقبلته القلوب ، وشهد بفضله العالم والجاهل ، وقصده القريب والبعيد ، ووقف خليفة المسلمين هارون الرشيد ببابه ، وجلس[١٦٠] بين يديه ليسمع منه كتابه الموطأ ، مقراً بذلك بفضله ورفعة شأنه.

ثم جاء الموطأ ليبرز للناس إمامته وفضله ، إذ لم يكن الإمام مالك محدثاً فحسب بل كان محدثاً وفقيهاً ، بل نال أعلى وسام في الحديث وهو لقب أمير المؤمنين في الحديث كما نال أعلى درجة فقهية وهي سيد فقهاء الحجاز ومفتيهم.

ولقد جاءت شهادة العلماء لكتاب الموطأ لتؤكد أهميته الحديثية والفقهية على مستوى المحدثين والفقهاء في جميع الأقطار الإسلامية.

قال الإمام الشافعي- رحمه الله وهو أحد الأئمة الأربعة المتبوعين - قال : ما كَتب الناس بعد القرآن شيئاً هو أنفع من موطأ مالك ، وإذا جاء الأثر من كتاب مالك فهو في الثريا.

وقال أيضاً ما على الأرض كتاب أصح من كتاب مالك[١٦١].

وقال عبد السلام بن عاصم : قلت لأحمد بن حنبل رجل يحب أن يحفظ حديث رجل بعينه قال : يحفظ حديث مالك . قلت : فرأيٌ ؟ يعنى الفقه - قال : رأي مالك[١٦٢].

وهذه شهادة إمام السنة في عصره وأحدِ الأئمة

الأربعة المتبوعين ، وقد رُوي عنه قوله : ما أحسن الموطأ لمن تدين به[١٦٣].

وهذه الشهادة تمنح الثقة الكاملة لكل مسلم أراد أن يتعبد الله حسب ما جاء في الموطأ.

وقال عبد الرحمن بن مهدي : ما كتاب بعد كتاب الله أنفع للناس من الموطأ[١٦٤].

وقال سعيد بن أبي مريم : وكان ابنا أخيه بالعراق - لو جمعا بالعراق عمرهما ما أتيا بعلم يشبه موطأ مالك.

وفي رواية عنه : ما جاء بسنة مُجمَع عليها خلافَ ما في الموطأ[١٦٥].

وقال عبد الله بن وهب : من كَتَب موطأ مالك فلا عليه ألا يكتب من الحلال والحرام شيئاً[١٦٦].

إن هذه الشهادات تتضافر جميعاً لتؤكد الثقة الكاملة والأهمية الكبرى التي حظي بها هذا الكتاب في نفوس المسلمين ، وتِلكُم حادثة يسوقها لنا القاضي عياض كدليل على ذلك فيقول : قال سُحنون : قرأ ابن غانم كتاباً من الموطأ - يعني مثل كتاب الطهارة أو الصلاة ونحو ذلك - فقال له رجل : يعجبك هذا من قَوْلَة مالك؟ يريد فقهه. فألقى الكتاب من يده وقال : أليس وصْمةٌ في عقلي وديني أن أرد على مالك قوله؟ ولقد أدركت العُبَّادَ وأهلَ الورع والدين الذين يتورعون عن الذر فما فوقه سفيان وذوو سفيان فما رأيت أورع من مالك[١٦٧] .

ولما حاز الموطأ تلك المكانة السامية وتعددت في عصره المذاهب الفقهية رأى الخليفة أبو جعفر المنصور والخليفة بعده المهدي ، أن يحملوا المسلمين على الموطأ ليوحدوا بذلك المسلمين على مذهب فقهي واحد ، فكان الإمام مالك يأبى ذلك معتذراً بأن الناس قد أخذ كل قوم منهم بما سبق إليهم من علم الصحابة وعملوا به ودانوا له، وإنّ ردَّهم عن ذلك وجمعهم على مذهب واحد شديدٌ عليهم[١٦٨]. وهذا الموقف ينبع من غزارته العلمية وبُعده الفكري رحمه الله تعالى.

المبحث الثالث: اهتمام العلماء بالموطأ سماعاً وروايةً :

- المطلب الأول : اهتمام العلماء بسماعه وروايته .
- المطلب الثاني: العلماء الذين رووه عن الإمام مالك.

المطلب الأول : اهتمام العلماء بسماعه وروايته :

احتل الإمام مالك رحمه الله مكان الصدارة العلمية في عصره ، مما جعل العلماء يضربون إليه أكباد الإبل من أجل لقائه والسماع منه ، وقد ساعد ذلك أنه كان يقطن المدينة المنورة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - حيث يرتادها المسلمون في المواسم.

فقد رحل إليه العلماء من شتى بقاع الأرض من العراق وخراسان شرقاً وحتى بلاد المغرب و الأندلس وتونس غرباً ، ومن بلاد الشام شمالاً وحتى اليمن وحضرموت جنوباً ، هذا فضلاً عن أهل المدينة والحجاز والجزيرة العربية ، وقد كان أكثر من روى عنه هم أهل الحجاز والمغرب.

وقد اعتنى بعض العلماء بذكر من روى عن مالك لكثرة عددهم وعلو مقصدهم فممن عُني بذلك:

- الإمام محمد بن القاسم بن شعبان بن محمد بن ربيعة ، ويعرف بابن القُرطي المتوفى سنة (٣٥٥هـ)[١٦٩] .
- والإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن مفرِّج القرطبي المتوفى سنة (٣٨٠هـ)[١٧٠].
- والإمام علي بن عمر الدارقطني المتوفى سنة (٣٨٥هـ)[١٧١].
- والإمام أبو بكر بن ثابت الخطيب البغدادي المتوفى سنة (٤٦٣هـ)[١٧٢] .
- والإمام القاضي عياض المتوفى سنة (٥٤٤هـ)[١٧٣].
- والإمام أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بَشْكوال الأندلسي المتوفى سنة (٥٧٨هـ)[١٧٤].

- والإمام الحافظ محمد بن أحمد شمس الدين الذهبي المتوفى سنه (٧٤٨هـ)[١٧٥].

- وهناك ممن اعتنى بذلك ممن هو في طبقة الحافظ العلائي المتوفي سنة (٧٦١هـ). حيث حكى ذلك الحافظ العلائي ولم يسم أحداً فقال :روى عن الإمام مالك رحمه الله تعالى خلق كثير وجم غفير ، أفرد لهم الحافظ أبو بكر الخطيب مصنفاً فبلغ بهم ألف نفس ، ورأيت بعض الأئمة من أصحابنا اعتنى بذلك وزاد على من ذكر الخطيب خلقاً كثيراً[١٧٦] .

- وممن اعتنى بذلك أيضاً الإمام جلال الدين السيوطي المتوفى سنة (٩١١هـ)[١٧٧].

هذا ما وصلت إليه يدي في معرفة من اعتنى بذكر من روى عن مالك ، ويحتمل أن يكون هناك غير هؤلاء الأئمة ممن اعتنى بذلك أيضاً . أبو عبد الله بن أبي دليم وعبد الرحمن بن محمد البكري .

وإن الإفراد بالتأليف لأسماء من رووا عن مالك يدل على كثرتهم ، فقد بلغ بهم الخطيب البغدادي إلى ألف رجل إلا سبعة رجال ، حكى ذلك الإمام السيوطي في مقدمة كتابه تنوير الحوالك ، وقد سبق قول الحافظ العلائي وهو : أن الخطيب البغدادي بلغ بهم إلى ألف رجل ، فلعل السيوطي ذكرها على وجه الدقة والتحديد وذكرها العلائي على وجه الإجمال والله أعلم.

وبلغ بهم القاضي عياض إلى ألف وثلاثمائة رجل ونيف[١٧٨] ، وبلغ بهم الحافظ الذهبي قريباً من ألف وأربعمائة رجل[١٧٩].

وهذا العدد لا يمكن أن يكون على وجه الحصر وذلك لأمرين :

الأول : أن تحديد الرواة عن شيخ معين يتم عن طريقين ، وهما تصريح الراوي نفسه في وقت الرواية ، أو في سياق الرواية عن الشيخ ، أو أن يوجد اسمه في بعض سماعات الشيخ المعين.

وهذا لا يمنع أن يكون هناك من سمع من الشيخ ولم يصرح بذلك ، أو لم يذكره أحد ممن يعرفه لأن الذي يجمع في هذا الباب يعتمد على ما سبق ، ويعسر أن يبلغ النهاية في الاستقصاء.

الثاني : أن المدينة المنورة هي ثاني الحرمين الشريفين يقصدها الزوار في موسم الحج والعمرة ، والإمام مالك رحمه الله قد احتل الصدارة العلمية في العالم الإسلامي آنذاك ، وانتشر ذكره ، وكان يسكن المدينة ، ويجلس في الروضة الشريفة ، ويقرأ عليه الموطأ ويسمع منه الفقه ، لذلك لا يبعد أن يجلس إليه كثير من الناس دون أن يذكروا في السماعات لكثرتهم أو يعرفهم أحد ، لأن من يذكروا بذلك لا بد وأنهم ممن عرفوا بالعلم غالباً وقصدوا الإمام مالكاً للقائه والسماع منه ، خاصة وأن الرحلة في سماع الحديث والعلم كانت نشيطة إلى حد كبير آنذاك ، لهذا يمكن القول بأن العدد الذي بلغه الحافظ الذهبي لم يكن على سبيل الاستقراء التام والحصر الدقيق: وإنما هو حسب ما بلغ إليه علم المتقصي لهذا الأمر حسب الاستطاعة ، وما توفر لديه من قرائن ، والذي يؤكد ذلك تفاوت العدد وتدرجه في تقصي العلماء المتقدمي الذكر ، فالخطيب البغدادي بلغ بهم إلى الألف ، ثم جاء بعده القاضي عياض فبلغ بهم إلى ألف وثلاثمائة ونيف ثم جاء بعده الحافظ الذهبي فبلغ بهم قريباً من الألف وأربعمائة علماً أن الذي يزيد في العدد يكون أبعد زمناً من عهد الإمام مالك. والله أعلم.

يضاف إلى ما سبق أن هذا العدد من العلماء قد رووا عن الإمام مالك فقهه وموطأه وكتباً أخرى له ، وكان الجانب الفقهي يغلب على مجلسه - وإن كان هو رحمه الله بحد ذاته محدثاً وفقيهاً بدون نزاع - لأن الفتوى كانت تدور عليه ، يدل لذلك أن أبا بكر المُعيطي وأبا عمر بن

المكَوي جمعا آراء مالك الفقهية التي لم يشاركه فيها أحد من أصحابه فجاءت في مائة جزء[١٨٠].

وذكر الخطيب البغدادي عن أبي العباس السراج النيسابوري أنه قال : هذه سبعون ألف مسألة لمالك وأشار إلى كتب مُنَضَّدةً عنده كتبها[١٨١] .

والمقصود مما ذكر هو أنه لما غلب الفقه على مجلس مالك لذلك لا يبعد أن يكون عدد من روى عنه الفقه أكثر ممن روى عنه الموطأ. والله أعلم.

هذا فيما يتعلق بمن روى عن مالك الفقه والحديث سواء من روى منهم جزءاً من الموطأ أو جميعه كاملاً .

وقد ذكر القاضي عياض من رواه كاملاً فبلغ بهم إلى ستة وخمسين رجلاً ثم قال : فهؤلاء الذين حققنا أنهم رووا عنه الموطأ ، ونص على ذلك أصحاب الأثر المتكلمون في الرجال .

وقال أيضاً : ولا مرية أن رواة الموطأ أكثر من هؤلاء من جملة أصحابه ومشاهير رواته ، ولكنا إنما ذكرنا من بلغنا نصاً سماعه له منه ، وأخْذه له عنه ، أو من اتصل إسنادنا له فيه عنه[١٨٢] .

فهذا التصريح دال على أن رواة الموطأ أكثر من ستة وخمسين رجلاً ، ومع ذلك فهما بلغوا فهم قليلون بالنسبة إلى حجم الذين سمعوا منه الفقه وشيئاً من الموطأ أو كتباً أخرى .

والذي يؤكد ذلك أن الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي محمد بن أبي بكر عبد الله بن محمد ، أبو عبد الله (ت ٨٤٢هـ) ذكرهم في كتابه (إتحاف السالك إلى رواة الموطأ عن الإمام مالك) فبلغ بهم إلى (٧٩) تسعة وسبعين راوياً للموطأ[١٨٣] .

المطلب الثاني : العلماء الذين رووه عن الإمام مالك :

هذا وسوف أذكر أسماء رواة الموطأ - الذين ذكرهم القاضي عياض - مرتبين حسب التدرج في تاريخ الوفاة إن شاء الله تعالى ، والله ولي التوفيق. وهم كالآتي:

١ - سعيد بن عبدوس الطُّلَيْطلي المالكي : كان من أهل العلم والفقه ، وكان مفتي بلده ، رحل إلى مالك فسمع منه الموطأ وغيره ، (ت ١٨٠هـ)[١٨٤].

٢ - علي بن زياد التونسي أبو الحسن العبسي المالكي : يعتبر هذا العالم أول من أدخل موطأ مالك إلى المغرب، وقد سمعه منه كما سمع غيره من كتب مالك أيضاً. (ت ١٨٣هـ)[١٨٥].

٣ - محمد بن الحسن بن فَرْقَد أبو عبد الله الشيباني صاحب الإمام أبي حنيفة رحمه الله: رحل إلى الحجاز بعد وفاة شيخه الإمام أبي حنيفة، وسمع من الشيوخ وعلى رأسهم الإمام مالك بن أنس ، ونشر فقه الإمام أبي حنيفة بعد ذلك واحتج له بأحاديث الموطأ . قال الإمام الشافعي رحمه الله : ما رأيت أعقل ولا أفقه ، ولا أزهد ولا أورع ولا أحسن نطقاً من محمد بن الحسن. وقال الحافظ الذهبي : كان من أذكياء العالم انتهت إليه رياسة الفقه بالعراق بعد أبي يوسف ، وتفقه به أئمة، وصنف التصانيف. (ت ١٨٩هـ)[١٨٦].

٤ - يحيى بن مُضر القيسي وقيل : اليَحْصبي القرطبي : كان كبير فقهاء قرطبة سمع الموطأ من مالك ، صلبه الحَكَم بن هشام سنة (١٨٩هـ) رحمه الله[١٨٧].

٥ - عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جُنادة أبو عبد الله العُتَقي المصري المالكي : ورث عن أبيه مالاً جماً فأنفقه في رحلته إلى مالك ، قال ابن عبد البر: روايته في الموطأ صحيحة قليلة الخطأ، وكان فيما رواه عن مالك متقناً حسنَ الضبط. (ت ١٩١هـ)[١٨٨].

٦ - بكار بن عبد الله بن مصعب القرشي أخو مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، أبو بكر الأسدي : كان والي المدينة لهارون الرشيد. (ت ١٩٥هـ)[١٨٩] .

٧ – عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي مولاهم مولى يزيد ابن رَيْحانة المالكي : صحب مالكاً عشرين سنة سمع منه الموطأ وكتباً أخرى ، وانتهت إليه الفتوى في مصر ، (ت ١٩٧هـ)[١٩٠].

٨ – زياد بن عبد الرحمن بن زهير اللَّخْمي المعروف بشَبْطون المالكي : كان فقيهاً عالماً متبحراً بمذهب مالك ، حتى قيل : إنه أول من أدخل إلى الأندلس موطأ مالك. (ت ١٩٣) وقيل (١٩٤) وقيل (١٩٩هـ)[١٩١] .

٩ – معن بن عيسى بن يحيى بن دينار القزاز ، أبو يحيى المدني المالكي : كان من كبار أصحاب مالك ، وخلف مالكاً في الفقه بالمدينة وأكثر الملازمة لمالك حتى كان مالك يتكئ عليه عند خروجه من مسجده ، وهو الذي قرأ الموطأ على مالك للرشيد وابنيه. (ت ١٩٨هـ)[١٩٢].

١٠ – الغازي بن قيس أبو محمد الأندلسي المغربي شيخ الأندلس : كان فقيهاً مقرئاً عابداً صالحاً ، رحل إلى مالك فرآه يؤلف الموطأ فسمعه منه وكان يحفظه ظاهراً ، وقيل : هو أول من أدخل الموطأ إلى الأندلس. (ت ١٩٩هـ)[١٩٣].

١١ – سعيد بن أبي هند : اختلف في اسمه على أربعة أقوال فقيل : سعيد بن أبي هند ، وقيل سعيد بن عبد الرحمن بن أبي هند ، وقيل : عبد الرحمن بن أبي هند ، وقيل : عبد الوهاب بن أبي هند ، وقد قيل في كل اسم إنه من أهل طليطلة رحل إلى مالك وسمع منه الموطأ ، وكان الإمام مالك معجباً به وسماه الحكيم.

فقد ترجمه ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس له فيمن اسمه سعيد قال : سعيد بن أبي هند يكنى أبا عثمان أصله من طُلَيْطلة ، وسكن مدينة قرطبة ، رحل إلى المدينة فلقي مالك بن أنس وسمع منه ، وكان مالك يسميه الحكيم[١٩٤].

وقال فيمن اسمه عبد الرحمن قال : عبد الرحمن بن أبي هند الأصبحي من أهل طليطلة ، يكنى أبا هند سمع من مالك بن أنس وكان مكرماً له ، وكان يسميه حكيم الأندلس وانصرف فسكن قرطبة ، واستوزره بعض الخلفاء ، ذكره ابن حارث ، وقد مر مثل هذه الحكاية لسعيد بن أبي هند فلا أدري أهما رجلان أم رجل واحد اختلف في اسمه ، وقد قيل فيه : عبد الوهاب بن أبي هند الذي كان مالك يسميه حكيم الأندلس ، توفي سنة مائتين[١٩٥] .

وترجمه الحميدي في من اسمه سعيد فقال : سعيد ابن أبي هند يروي عن مالك ابن أنس ذكره محمد بن حارث الخُشَني في كتابه ، وزعم أن مالكاً رحمه الله كان يقول لأهل الأندلس إذا قدموا عليه : ما فعل حكيمكم ابن أبي هند[١٩٦] .

وقال فيمن اسمه عبد الرحمن : عبد الرحمن بن هند الأصبحي من أهل طُلَيْطِلة يكنى أبا هند روى عن مالك بن أنس ، وقد روى عنه مالك بن أنس حكاية، مات ببلده بعد المائتين[١٩٧] .

وقد ترجمه القاضي عياض في ترتيب المدارك وحكى الخلاف في اسمه ، غير أنه لم يسمه عبد الرحمن ضمن حكاية الخلاف ، وإنما ذكر اسم عبد الرحمن ابن أبي هند حال ذكره أسماء من روى الموطأ عن مالك ، وكأنه يرتاح إلى أنهما اثنان[١٩٨]. والله أعلم.

١٢ – الإمام الشافعي القدوة صاحب المذهب المعروف ، محمد بن إدريس بن العباس أبو عبد الله القرشي المطلبي : شهرته تغني عن التعريف به ، ولد سنة ١٥٠، وحفظ الموطأ في سن التمييز ، ولزم مالكاً وسمع منه الموطأ ، ثم قدم العراق فسمع من محمد ابن الحسن الشيباني. (ت ٢٠٤هـ)[١٩٩] .

١٣- عبد الحميد بن عبد الله بن أبي أُويس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي أبو بكر بن أويس المدني الأعشى: وثقه أبو داود ويحيى بن معين والدارقطني وابن حبان وغيرهم . سمع الموطأ من مالك وكان خاله. (ت ٢٠٢هـ)[٢٠٠] .

١٤- حفص بن عبد السلام السلمي السَّرقسْطي : كان متفنناً في العلوم، بليغاً حاذقاً لزم مالكاً سبعة أعوام، وسمع منه الموطأ . توفي في حدود المائتين[٢٠١] .

١٥- محمد بن يحيى السبائي أبو عبد الله القرطبي : رحل إلى مالك فسمع منه الموطأ، توفي بعد ست ومائتين[٢٠٢] .

١٦- سليمان بن بُرد بن نجيح التجيبي المصري : كان من فقهاء مصر ولم يكن في عصره أعلم منه بالقضاء ، رحل إلى مالك فسمع منه الموطأ والفقه . توفي سنة (٢١٠هـ)[٢٠٣] .

١٧- أبو قُرَّة موسى بن طارق السَّكْسَكي أبو محمد الجَنَدي ، اليمني قاضي زَبيد : كان إماماً محدثاً حجة ، روى الموطأ وغيره عن مالك ، ولم أعثر فيما لدي على تاريخ وفاته ، غير أن الحافظ الذهبي ترجمه في سير أعلام النبلاء - وهو مصنف على الطبقات - فيمن مات ما بين المائتين ومائتين وعشرة ، فالله أعلم[٢٠٤] .

١٨- أسد بن الفرات بن سِنان أبو عبد الله الحراني المغربي : كان إماماً حجة انتهت إليه الرئاسة في العلم ورئاسة الجُنْد في الجهاد في سبيل الله. توفي سنة (٢١٣) وقيل : (٢١٤هـ)[٢٠٥] .

١٩- عبد الله بن الحكم بن أعين بن الليث ، أبو محمد المصري المالكي : لزم مالكاً وسمع منه الموطأ ونحو ثلاثة أجزاء أخرى في الحديث ، وكان فقيه مصر مع التقوى والورع. (ت ٢١٤هـ)[٢٠٦] .

٢٠- إسحاق بن عيسى بن نجيح أبو يعقوب المعروف بابن الطباع : صحب مالكاً وسمع منه الموطأ وكان من الحفاظ. (ت ٢١٥هـ)[٢٠٧] .

٢١- محمد بن المبارك بن يعلى القرشي الصوري مفتي دمشق : كان فقيهاً حجة عابداً ، روى الموطأ عن مالك. (ت ٢١٥هـ)[٢٠٨] .

٢٢- عبد الله بن يوسف الكَلاعي الدمشقي أبو محمد التِّنيسي : كان إماماً حافظاً متقناً ، سمع الموطأ من مالك سنة (١٦٦هـ) قال ابن معين : ما بقي على وجه الأرض أوثق منه في الموطأ ، (ت ٢١٨هـ)[٢٠٩].

٢٣- حبيب بن أبي حبيب مرزوق ، ويقال : رُزَيق المدني المصري : كان كاتب مالك وقارئه ، وبقراءته سمع الناس الموطأ ، لكنه ضعيف لخفة ضبطه. توفي بمصر سنة (٢١٨هـ)[٢١٠] .

٢٤- عبد الأعلى بن مُسْهِر بن عبد الأعلى بن مُسْهِر أبو مُسْهِر الشامي شيخ الشام : كان فقيهاً حافظاً ثبتاً ورعاً ، سمع الموطأ من مالك وغيره ، من المسائل، توفي سنة (٢١٨هـ) [٢١١] .

٢٥- قَرَعوس بن العباس بن قَرَعوس بن حُميد الثقفي الأندلسي ، كان من أهل العلم والفضل على ديانة وورع فيه ، رحل إلى مالك فسمع منه الموطأ وغيره. توفي سنة ٢٢٠هـ[٢١٢] .

٢٦- مطرف بن عبد الله بن مطرف بن سليمان بن يسار الهلالي أبو مصعب المدني ابن أخت الإمام مالك : صحب مالكاً سبع عشرة سنة وتفقه به وبعبد العزيز بن الماجشون وابن دينار وغيرهم. (ت ٢٢٠هـ)[٢١٣].

٢٧- سعيد بن داود بن سعيد بن أبي زَنْبَر الزنبري أبو عثمان المدني : كان من خيار أهل المدينة ، لازم مالكاً كثيراً وقد ضعفه كثيرون لسوء حفظه ، وقد روى الموطأ عن مالك ، ولكنه تفرد بمناكير ، توفي في حدود (٢٢٠هـ)[٢١٤] .

٢٨- عبد الله بن مسلمة بن قعنب التميمي الحارثي أبو عبد الرحمن البصري المالكي : كان إماماً فقيهاً حجة عالماً عاملاً ، لزم مالكاً عشرين سنة وسمع منه الموطأ، (ت ٢٢١هـ)[٢١٥] .

٢٩- خالد بن نزار الغساني مولاهم أبو يزيد الأيلي: صدوق يخطئ، روى الموطأ عن مالك. (ت ٢٢٢هـ)[٢١٦] .

٣٠- يحيى بن صالح الوُحَاظي أبو زكريا الدمشقي : كان حافظاً . فقيهاً حدث بالموطأ عن مالك ، (ت ٢٢٢هـ)[٢١٧] .

٣١- سعيد بن الحكم بن محمد بن أبي مريم أبو محمد الجُمَحي المصري رحل إلى مالك فسمع منه الموطأ وغيره ، وكان محدث الديار المصرية عالماً عاقلاً. (ت ٢٢٤هـ)[٢١٨] .

٣٢- سعيد بن كثير بن عُفَير بن مسلم بن يزيد أبو عثمان المصري : كان إماماً حافظاً حجة في الحديث والتاريخ ، فصيحاً حسن البيان صحب مالكاً وسمع منه الموطأ. (ت ٢٢٦هـ)[٢١٩] .

٣٣- يحيى بن بُكير بن عبد الرحمن التميمي النيسابوري : كان ثقة ماموناً مرضياً ورعاً ، وكانت شمائله شمائل الصحابة والتابعين سمع الموطأ من مال، وقيل: إنه قرأه عليه ولازمه مدة للاقتداء به ، (ت ٢٢٦هـ)[٢٢٠] .

٣٤- إسماعيل بن أبي أويس عبد الله بن عبد الله بن أويس بن مالك بن أبي عامر أبو عبد الله الأصبحي أخو عبد الحميد بن عبد الله بن أبي أويس المتقدم برقم (٢) . كان عالم أهل المدينة ومحدثهم في زمانه، فسمع الموطأ من الإمام مالك وكان خاله. (ت ٢٢٦هـ)[٢٢١] .

٣٥- عتيق بن يعقوب بن صديق بن موسى بن عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي ، كان ملازماً لمالك ملازمة طويلة ، كتب عنه الموطأ وغيره وكان من خيار المسلمين. (ت ٢٢٩هـ)[٢٢٢] .

٣٦- يحيى بن عبد الله بن بُكير أبو زكريا القرشي المخزومي مولاهم المصري ، كان فقيه الفقهاء في مصر ، وكان عارفاً بالحديث وأيام الناس بصيراً بالفتوى وقد سمع الموطأ مرات متعددة ، وقد تكلم فيه بعض الأئمة بكلام واحتج به الشيخان ودافع عنه الذهبي. (ت ٢٣١هـ) [٢٢٣] .

٣٧- يحيى بن يحيى بن كثير بن وَسْلاس بن شمال بن مَنْغايا أبو محمد الليثي ، كان عالماً عاقلاً فاضلاً يشبه سمته سمت مالك رحمه الله ، رحل إلى مالك في السنة التي مات فيها مالك ، وقد سمع منه الموطأ سوى أبواب من كتاب الاعتكاف شك فيها فحدّث بها عن زياد المعروف بشَبْطون ، وكان قد سمع منه الموطأ قبل مالك ، وقد عوّل العلماء على روايته للموطأ وأصبحت هي المشهورة والمتداولة حتى اليوم . (ت ٢٣٣) وقيل : (٢٣٤هـ)[٢٢٤] .

٣٨- مصعب بن عبد الله بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ابن العوام أبو عبد الله القرشي المدني ، عرف بصحبة مالك وبروايته الموطأ عنه ، وكان علاّمة قريش في النسب والشعر والخبر ، (ت ٢٣٦هـ)[٢٢٥] .

٣٩- قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف بن عبد الله الثقفي مولاهم البلخي البغلاني الخراساني : كان حافظاً ثقة جوالاً ، قال عنه الذهبي : راوية الإسلام وشيخ الإسلام. روى الموطأ عن مالك. (ت ٢٤٠هـ)[٢٢٦] .

٤٠- سُويد بن سعيد بن سهل الحدثاني الأنباري : كان إماماً محدثاً وشيخ المحدثين حافظاً ، لقي مالكاً وسمع منه الموطأ. (ت ٢٤٠هـ)[٢٢٧] .

٤١- أبو مصعب الزهري أحمد بن أبي بكر القاسم بن الحارث بن زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ، روى الموطأ عن مالك وأتقنه عنه ،

كما روى غير الموطأ عنه أيضاً وتفقه بأصحاب مالك . (ت ٢٤٢هـ) [٢٢٨] .

٤٢- الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام المدني ، كان علاّمة قريش في وقته بالحديث والفقه والأدب والخبر والنسب روى الموطأ عن مالك ولكن في سماعه منه مقال . (ت ٢٥٦هـ)[٢٢٩] .

٤٣- أحمد بن إسماعيل بن محمد بن نُبَيه أبو حذافة السهمي القرشي المدني ، نزل بغداد وكان من كبار المسندين فيها ، وكان قد سمع الموطأ من مالك قال الدارقطني : روى الموطأ عن مالك مستقيماً . (ت ٢٥٩هـ) [٢٣٠] .

٤٤- حسان بن عبد السلام السُلمي السَّرَقُسطي : كان من أهل العلم والتدين ، رحل مع أخيه حفص إلى مالك ورويا الموطأ عنه [٢٣١] .

٤٥- أيوب بن صالح بن نمْران أبو سليمان المخزومي المدني سكن الرملة [٢٣٢] .

٤٦- مُحَرَّر بن عبد الله التيمي المدني ، ويقال : ابن هارون ابن عبد الله الهَديري المدني ، قال القاضي عياض : وأراه ابن هارون بن عبد الله الهديري . وابن هارون هذا ضعيف الحديث ، أما سماعه من مالك فالله أعلم به [٢٣٣] .

٤٧- يحيى بن الإمام مالك ، قال العقيلي : حدث عن أبيه بمناكير[٢٣٤] .

٤٨- فاطمة بنت الإمام مالك[٢٣٥] .

٤٩- خلف بن فضالة. قيرواني[٢٣٦] .

٥٠- يزيد المُغْنِي. بغدادي[٢٣٧] .

٥١- عبد الرحمن بن حبان الدمشقي[٢٣٨] .

٥٢- عيسى بن شجرة أندلسي[٢٣٩] .

٥٣- عباس بن أصبح أندلسي[٢٤٠] .

٥٤- عبد الرحيم بن خالد المصري الإسكندري ، سمع الموطأ مبكراً من الإمام مالك ثم رواه في مصر ، (ت ١٦٣هـ)[٢٤١] .

٥٥- أحمد بن منصور التامراني .

ولم أذكر ترجمة عبد الرحمن بن أبي هند لاحتمال أن يكون هو سعيد بن أبي هند كما تقدم توضيح ذلك في ترجمة رقم ١٠ وبذلك يتم العدد ٥٦ رجلاً رووا الموطأ عن مالك كما ذكرهم القاضي عياض رحمه الله تعالى في ترتيب المدارك ٨٦/٢ – ٨٧ – ٨٨ – ٨٩ إذا اعتبرنا في الرواة للموطأ محرر بن عبد الله التيمي المدني لا محرر بن هارون الهديري وإلا كان العدد ٥٥ راوياً . والله أعلم[٢٤٢] .

المبحث الرابع : عناية العلماء بمتونه وأسانيده:

- المطلب الأول : العلماء الذين شرحوا الموطأ .
- المطلب الثاني : العلماء الذين فسروا غريبه .
- المطلب الثالث : العلماء الذين رتبوا الموطأ على ترتيب المسند أو اقتصروا على ذكر المسند المرفوع منه .
- المطلب الرابع: الذين صنفوا فيما يتعلق بأسانيده.
- المطلب الخامس : العلماء الذين صنفوا فيما يتعلق بأسانيده ومتونه معاً .

بين يدي المبحث :

كان الموطأ يمثل الأصول الحديثية الصحيحة والمذهب الفقهي عند أهل الحجاز وأهل المغرب وغيرهم ممن يقلدون الإمام مالكاً في مذهبه ، نظراً للأصالة العلمية التي تمثلت في صحة أحاديث الكتاب آنذاك وبُعد النظر في استنباط الأحكام منها ، مما أظهر الصورة المثالية في شخصية الإمام مالك رحمه الله.

وهذا كان له الأثر الكبير في وضع الموطأ موضع

القبول عند علماء الحديث والفقه على وجه العموم – وإن كان بعضهم لا يقلد المذهب المالكي – لذلك قام كثير من العلماء بخدمة هذا الكتاب منذ آخر القرن الثاني – وهو القرن الذي ظهر فيه الموطأ ونضج فيه المذهب المالكي وانتشر – إلى عصرنا الحاضر.

ولم يسبق لكتاب أن خُدِم كخدمة الموطأ كما لم يأت بعده كتاب خدم تلك الخدمة اللهم إلا ما كان من صحيحي البخاري ومسلم – والله أعلم – فقد خُدِما خدمة لا تتقاصر عن خدمة الموطأ.

وقد شهد القاضي عياض بأن الموطأ خدم خدمة لم يحظ بها كتاب آخر، قال رحمه الله: لم يُعْتَنَ بكتاب من كتب الفقه والحديث اعتناء الناس بالموطأ، فإن الموافق والمخالف أجمع على تقديمه وتفضيله وروايته وتقديم حديثه وتصحيحه[٢٤٣].

إن قول القاضي عياض هذا لا يمنع أن يكون هناك كثير من العلماء قد قاموا بخدمة الصحيحين خدمة قد تزيد على خدمة الموطأ ولكن لم يبلغ ذلك القاضي عياض لأن الرجل خَبَر وسَبَر ما كان منذ القرن الثالث الهجري، إلى عهده رحمه الله، علماً أنه توفي سنة ٤٤٥ هـ، فقد جاء بعد عهد القاضي عياض من العلماء من خدموا الصحيحين ربما زاد عددهم على العدد الذي ذكره في خدمة الموطأ، فقد ذكر فؤاد سزكين وحده في تاريخ التراث ما يزيد على مائة وخمسين كتاباً كانت في خدمة الصحيحين، بعد عهد القاضي عياض رحمه الله[٢٤٤] ولو تتبع القاصد هذا الباب في مظانِّه مثل كشف الظنون وهداية العارفين ونحوهما فقد يبلغ إلى أضعاف هذا الرقم وهذا الاحتمال ينسحب على كتاب الموطأ أيضاً، حيث تتضح قرينته ممن ذكرهم الحافظ الذهبي المتوفى بعد القاضي عياض بقرنين (٧٤٨) ثم فؤاد سزكين المعاصر حسب تتبعي المحدود والذي أقصده أن كلام القاضي عياض لا يمكن حمله على إطلاقه.

نعود إلى اهتمام العلماء بالموطأ فنقول: وقد أشاد الحافظ الذهبي باهتمام العلماء قديماً وحديثاً بشأن الموطأ وعنايتهم به، فقد قال رحمه الله في معرض ذكره أسماء العلماء الذين قاموا بخدمته قال: وما زال العلماء قديماً وحديثاً لهم أتم اعتناء برواية الموطأ ومعرفته وتحصيله[٢٤٥].

إن هذا الاهتمام لم يكن محصوراً في أهل المذهب المالكي، بل ولا في أهل الحديث فقط ولا في أهل الفقه كذلك، بل شمل من كان من أتباع المذهب الحنفي والشافعي من الفقهاء والمحدثين وأهل اللغة العربية.

والذي يدل لذلك ابتداءً اعتناء الإمام محمد بن الحسن الشيباني– وهو الذي يعود إليه الفضل في شهرة المذهب الحنفي بعد أبي يوسف – بسماعه الموطأ وروايته، وبناء فقه العراق عليه، وكذلك اعتناء الإمام الشافعي رحمه الله تعالى إمام المذهب بحفظه وسماعه كذلك والرواية منه.

وسوف يتضح للقارئ عند ذكر العلماء الذين اعتنوا بالموطأ أثر ذلك، إذ كان منهم الفقيه المالكي وهم أكثر، والحنفي والشافعي[٢٤٦].

وقد ذكر القاضي عياض في ترتيب المدارك والحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء عند ترجمة الإمام مالك أسماء من خدموا هذا الكتاب ممن شرحه، أو فسر غريبه، أو وصل مرسلاته وبلاغاته، أو أفرد غرائبه، أو رتبه على المسانيد أو لخصه، أو ترجم رجاله وغير ذلك، فبلغوا حدود المائة أو تزيد قليلاً[٢٤٧]، ثم تتبعت بما في وسعي من كتاب تاريخ التراث العربي وكتاب سير أعلام النبلاء – في غير ترجمة الإمام مالك – وغيرهما من الكتب من شاركوا في خدمة هذا الكتاب فبلغوا الخمسين والمائة – ولم يكن تتبعي هذا تاماً لأن الهدف إبراز تصور مجمل عن مدى عناية العلماء بالموطأ لا أكثر وقد رتبتهم حسب نوعية

الخدمة العلمية ثم حسب التقدم في الوفاة.

فابتدأت بذكر من شرحه ، ثم من فسر غريبه ، ثم من رتبه حسب المسانيد ثم من خدم أسانيده ، ثم من خدمه خدمة تتعلق بمتونه وأسانيده معاً .

وسوف أقتصر على ذكر اسم المؤلف ونسبه وتاريخ وفاته واسم الكتاب الذي صنفه في خدمة الموطأ ، فان لم أعثر على اسم الكتاب ، فيبقى ذكر الرجل فيمن شرح الكتاب – مثلاً – ولم يعرف اسم ذلك الشرح لأن القاضي عياض أو الحافظ الذهبي قد يعدد رجالاً شرحوا الموطأ أو فسروا غريبه ونحو ذلك دون التعرض لذكر اسم كتبهم .

كما أنني لم أعثر بعد البحث على تراجم بعض من ذكرهم القاضي عياض فأثبتهم كما ذكرهم.

المطلب الأول : العلماء الذين شرحوا الموطأ:

١ – عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي المصري المالكي : كان أحد تلاميذ الإمام مالك ، تفقه به ونشر مذهبه في مصر. (ت ١٩٦هـ) (٢٤٨) .

٢ – عبد الله بن نافع مولى بني مخزوم كنيته أبو محمد ، ويعرف بالصائغ : يُعد من كبار فقهاء المدينة ، قال : صحبت مالكاً أربعين سنة ما كتبت عنه شيئاً وإنما كان حفظاً أتحفظه. (ت ٢٠٦هـ) فيما صححه الذهبي(٢٤٩).

٥ – عيسى بن دينار أبو محمد الأندلسي فقيه الأندلس : تفقه بابن القاسم ، (ت ٢١٢هـ)(٢٥٠) .

٤ – عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جُناهِمة وقيل– جُلْهمة – أبو مروان العمّار المالكي : كان يقطن إلبيرة ، وكان حافظاً للفقه على مذهب مالك نبيهاً فيه، غير أنه لم يكن له علم بالحديث ولا معرفة بصحيحه من سقيمه. (ت ٢٣٨) وقيل (٢٣٩هـ)(٢٥١).

٥ – حَرْمَلة بن يحيى بن عبد الله بن حَرْمَلة بن عمران التُّجيبي المصري الشافعي : تفقه بعبد الله بن وهب والإمام الشافعي ، وكان يفتي بمذهب مالك ، له (شرح الموطأ بما سأل عنه ابن وهب) حيث سمع حديث مالك من ابن وهب فشرحه. (ت ٢٤٣هـ)(٢٥٢).

٦ – أحمد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن السَّرْح : كان من جِلَّة العلماء ، شرح الموطأ رواية ابن وهب. (ت ٢٥٠هـ)(٢٥٣).

٧ – يحيى بن زكريا بن إبراهيم بن مُزَيِّن أبو زكريا الطُّلَيْطلي المالكي : كان معروفاً بالفضل : والنزاهة ، والحفظ ، ومعرفة مذاهب أهل المدينة ، وكان يحفظ الموطأ ، وكتبه حفظاً وشرحه وأسماه : تفسير الموطأ. (ت ٢٥٩هـ)(٢٥٤) .

٨ – محمد بن سُحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي المغربي المالكي : تفقه بأبيه ، ورحل إلى المشرق فحمل علماً كثيراً ، شرح الموطأ في أربعة مجلدات. (ت ٢٦٥هـ)(٢٥٥) .

٩ – محمد بن عبد الله بن عَيْشون أبو عبد الله الطُّلَيْطِلي المالكي : كان عالماً متقدماً فقيهاً حافظاً لمذهب مالك ، وقد أسمى شرحه للموطأ (توجيه الموطأ). (ت ٣٤١هـ)(٢٥٦) .

١٠– خلف بن الفرج بن عثمان بن جرير الكَلاعي أبو محمد الإلْبيري : يعد من كبار علماء الأندلس . (ت ٣٧١هـ)(٢٥٧) .

١١– يحيى بن شراحيل أبو زكريا البَلَنْسي المالكي : كان حافظاً لمذهب مالك ، ولم تشتهر له رواية ، وكان موصوفاً بالعلم . (ت ٣٧٢هـ)(٢٥٨) .

١٢– أبو بكر المقرئ محمد بن إبراهيم بن علي المقرئ الأصبهاني : محدث كبير صاحب مسانيد ، رحل كثيراً في الحديث ، وله فيه مصنفات ، منها شرحه

على الموطأ أسماه : (المنتخب من أحاديث مالك بن أنس). (ت ٣٨١هـ)[٢٥٩] .

١٣- الإمام الخطابي : حَمَد بن محمد بن إبراهيم البُستي الشافعي : كان ثقة ثبتاً من أوعية العلم ، ومن أعلام زمانه ، له مصنفات كثيرة منها : غريب الحديث (ومعالم السنن) و(المنتخب من موطأ مالك) شرح فيه ما انتخبه من أحاديث الموطأ. (ت ٣٨٨هـ)[٢٦٠].

١٤- أبو محمد الأصيلي عبد الله بن إبراهيم المالكي : كان من كبار حفاظ مذهب مالك ، عالماً بالحديث وعلله ورجاله ، شرح الموطأ في كتاب أسماه (الدلائل). (ت ٣٩٢هـ)[٢٦١] .

١٥- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زَمَنِّين المري البيري : كان من أجلّ أهل وقته علماً وفضلاً ، اختصر شرح يحيى بن مُزَيّن للموطأ أسماه (المهذب). (ت ٣٩٩هـ)[٢٦٢] .

١٦- أحمد بن نصر الداودي الأسدي أبو جعفر : كان من أئمة المالكية في المغرب ، والمتسعين في العلم المجيدين للتأليف : واسم شرحه للموطأ (النامي في شرح الموطأ). (ت ٤٠٢هـ)[٢٦٣] .

١٧- محمد أبو بكر بن موهب التُّجيبي الحَصَّار المعروف بالقبري : كان فقيهاً عالماً ، وطالع علوماً من المعاني والكلام ، شرح ملخص أبي الحسن القابسي المعروف (بملخص مسند الموطأ). (ت ٤٠٦هـ)[٢٦٤].

١٨- أبو المطرف عبد الرحمن بن هارون - وقيل ابن مروان - بن عبد الرحمن الأنصاري القَنازِعي القرطبي: فقيه زاهد ورع متقشف. (ت ٤١٣هـ)[٢٦٥] .

١٩- محمد بن يحيى بن محمد بن عبد الله المعروف بالحذَّاء أبو عبد الله القرطبي المالكي : كان فقيهاً ، عالماً ، يقظاً ، متفنناً في الآداب ، حافظاً للرأي مميزاً للحديث ورجاله ، شرح الموطأ في ثمانين جزءاً أسماه : (الاستنباط لمعاني السنن والأحكام من أحاديث الموطأ). (ت ٤١٦هـ)[٢٦٦] .

٢٠- محمد بن أحمد بن أسيد بن أبي صُفرة التميمي أخو المهلب : فقيه مشهور وبالفضل مذكور ، شرح ملخص أبي الحسن القابسي. مات قبل العشرين وأربعمائة[٢٦٧] .

٢١- أبو سعيد عمران بن عبد ربه المعافري القرطبي : فقيه صالح ، اختصر شرح أبي محمد الأصيلي للموطأ المسمى بالدلائل الكبير على أبواب الموطأ. (ت ٤٢١هـ)[٢٦٨] .

٢٢- القاضي يونس بن الصفار أبو الوليد بن عبد الله بن محمد بن مغيث القرطبي : كان مشهوراً بالعلم وسعة الرواية وجودة الخطابة وبراعة الشعر ، شرح مسند الموطأ أسماه (الموعب) . (ت ٤٢٩هـ)[٢٦٩] .

٢٣- أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي عيسى أبو عمر الطَّلَمَنْكي : كان واسع الرواية ، متفنناً في علوم الشريعة ، غلب عليه القرآن والحديث وكان من فضلاء الصالحين ، على هدى وسنة ، له (تفسير الموطأ) (ت ٤٢٩هـ)[٢٧٠] .

٢٤- المُهلَّب بن أحمد بن أسيد بن أبي صفرة التميمي أبو القاسم : كان من أهل العلم الراسخين ، المتفننين في الفقه والحديث والعبارة والنظر ، له (تفسير الموطأ). (ت ٤٣٣هـ) ، وقيل (٣٥)[٢٧١].

٢٥- مروان بن علي القطان بن عبد الملك البُوني أندلسي الأصل ، سكن بُونة ، كان من الفقهاء المتفننين ، حافظاً ناقداً في الفقه والحديث. هذا ما نسبه القاضي عياض في ترتيب المدارك .

ونسبه الحُميدي في جذوة المقتبس وابن عميرة في بغية الملتمس فقالا مروان بن محمد الأسدي أبو

عبد الملك البوني ، أصله من الأندلس رحل منها ودخل القيروان ، وطلب العلم بها ثم استقر ببونة .

ولكن نسبه ابن بَشْكوال في الصلة فقال مروان ابن علي الأسدي القطان يكنى أبا عبد الملك ويعرف بالبوني .

ويما تقدم يظهر أن القاضي عياض والحميدي وابن عُميرة وابن بَشْكوال اتفقوا على أنه أندلسي الأصل ثم استقر ببونة ومات فيها ، كما اتفقوا على كنيته وعلى أن له شرحاً للموطأ ، فلعل هذه القرائن ترجح أنه رجل واحد ، وإنما حصل الاختلاف في اسم أبيه ، والله أعلم. مات قبل الأربعين وأربعمائة رحمه الله تعالى(٢٧٢) .

٢٦- أبو محمد بن حزم : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري القرطبي : الإمام المشهور كان شافعياً ثم انتقل إلى القول الظاهر ونفى القول بالقياس ، وكان إليه المنتهى في الذكاء والحفظ ، وسعة الدائرة في العلوم ، شرح الموطأ في كتاب أسماه (الإملاء) يقع في (١٠٠٠) ورقة. (ت ٤٥٦هـ)(٢٧٣) .

٢٧- أبو الحسن بن رشيق القيرواني الشاعر : كان بارعاً في الشعر ، وله مصنفات كثيرة فيه وفي الحديث ، منها شرحه للموطأ المسمى : (المنتقى من أحاديث الموطأ). (ت ٤٦٣هـ) وقيل : (٤٥٦هـ)(٢٧٤) .

٢٨- الإمام ابن عبد البر ، يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر بن عاصم النَّمري ، القرطبي المالكي ، انتهت إليه رئاسة العلم في الأندلس والمغرب الكبير في عصره. شرح الموطأ في كتاب كبير أسماه : (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد) ثم اختصره في كتاب أسماه : (الاستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار ، وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار) ، ثم جرد أسانيد الموطأ والكلام عليها في كتاب مختصر أسماه (تجريد التمهيد) ويطلق عليه اسم: (التقصي). (ت ٤٦٣هـ)(٢٧٥) .

٢٩- أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الباجي القرطبي المالكي : إمام مشهور ، كان من كبار علماء زمانه في الحديث والفقه والأصول ، وله مؤلفات عديدة منها (الاستيفاء) في شرح الموطأ ، وهو كتاب كبير ثم اختصره في كتاب أسماه (المنتقى) وهو مطبوع في (٧) مجلدات ، ثم اختصره في كتاب أسماه (الإيماء). (ت ٤٧٤هـ). كما شرح الموطأ أيضاً في كتاب (المعاني) يقع في (١٢) مجلدة(٢٧٦) .

٣٠- أبو الوليد هشام بن أحمد بن خالد بن سعيد الكناني الأندلسي الطُّلَيطِلي عرف بالوَقَّشي : كان من أعلم الناس بالنحو واللغة والشعر والبلاغة ، حافظاً للسنن وأسماء الرجال ، مع حسن المحاضرة ، وصدق اللهجة ، لكنه اتهم بالاعتزال ، له (تفسير الموطأ). (ت ٤٨٩هـ)(٢٧٧) .

٣١- محمد بن سابق أبو بكر الصِّقلّي : قدم الأندلس ، وأخذ عنه أهل غرناطة ، وكان من أهل الكلام ، مائلاً إليه له (تفسير الموطأ). (ت ٤٩٣هـ)(٢٧٨) .

٣٢- عاصم النحوي ، لعله عاصم بن أيوب البَطَليوسي أبو بكر النحوي: له (تفسير الموطأ). (ت ٤٩٤هـ)(٢٧٩) .

٣٣- خازم بن محمد بن خازم أبو بكر المخزومي : كان قديم الطلب وافر الأدب ، وكان ذلك غالباً عليه ، وله تصرف في اللغة وقول الشعر ، ولكنه لم يكن بالضابط لما رواه شرح الموطأ في كتاب أسماه : (السافر عن آثار الموطأ) يقع في أربعين جزءاً . (ت ٤٩٦هـ)(٢٨٠) .

٣٤- محمد بن سليمان بن خليفة أبو عبد الله المالقي : كان من أهل العلم والنظر ، له كتاب (المحلى) في شرح الموطأ. (ت ٥٠٠هـ) وقيل (٤٩٩هـ)(٢٨١) .

٣٥- أبو الوليد هشام بن أحمد بن سعيد القرطبي المعروف بابن العواد : كان زاهداً لم يتزوج ولم يَتَسَرَّ، وكان يتناول أشغاله بنفسه ، له كتاب (الجمع بين التمهيد والاستذكار). (ت ٥٠٩هـ)[٢٨٢] .

٣٦- أبو محمد عبد الله بن محمد السيد البَطَلْيُوسي البلَنْسي : كان عالماً باللغات والآداب ، شرح الموطأ في كتاب أسماه (المقتبس) وله كتاب (سبب اختلاف الفقهاء). (ت ٥٢١هـ)[٢٨٣] .

٣٧- أبو عبد الله بن الحاج : محمد بن أحمد بن خلف ابن إبراهيم التُّجيبي القرطبي المالكي : كان حسن الضبط ، جيد الكُتُب ، كثير الرواية ، صَلْباً في دينه ، متواضعاً حليماً ، له (تفسير الموطأ) وهو كبير. (ت ٥٢٩هـ)[٢٨٤] .

٣٨- أبو عبد الله الأنصاري محمد بن الحسين بن أحمد ابن محمد الظاهري : له كتاب (التقريب لكتاب التقصي) ، (ت ٥٣٢هـ)[٢٨٥] .

٣٩- القاضي أبو بكر بن العربي ، محمد بن عبد الله ابن محمد بن العربي الأندلسي : الإمام الحافظ الفقيه المالكي ، له مصنفات عديدة في الحديث والتفسير واللغة ، شرح الموطأ في كتابين ، الأول (المسالك) ، والثاني (القبس على موطأ مالك بن أنس). (ت ٥٤٣هـ)[٢٨٦].

٤٠- ابن زَرْقون أبو عبد الله محمد بن أبي الطيب سعيد ابن أحمد بن سعيد بن عبد البر بن مجاهد الأندلسي: كان فقيهاً ، مبرزاً ، أديباً ، كاملاً ، حسن البَزَّة ، لين الجانب. له كتاب (الأنوار في الجمع بين المنتقى والاستذكار). (ت ٥٨٦هـ)[٢٨٧] .

٤١- علي بن أحمد بن محمد بن يوسف بن مروان بن عمر أبو الحسن الغساني الوادآشي : كان فقيهاً حافظاً يقظاً حسن النظر ، أديباً شاعراً مجيداً بليغاً ، شرح الموطأ في كتاب أسماه (نهج المسالك للتفقه في مذهب مالك). (ت ٦٠٩هـ)[٢٨٨] .

٤٢- أبو عبد الله محمد بن عبد الحق بن سليمان اليَعفُري البربري التِّلْمساني : كان قاضي تلمسان ، وكان إماماً مُعظماً كثير التصنيف ، شرح الموطأ في كتاب أسماه: (المختار في الجمع بين المنتقى والاستذكار) في عشر مجلدات. (ت ٦٢٥هـ)[٢٨٩] .

٤٣- علي بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم الجُـذامي القاضي المعروف بابن القفاص : كان فاضلاً جليلاً ضابطاً لما رواه فقيهاً حافظاً . له اختصار الاستذكار لابن عبد البر. (ت ٦٣٢هـ)[٢٩٠].

٤٤- ابن الموّاق محمد بن يحيى بن أبي بكر بن خلف ابن صاف المَرّاكشي : كان قاضي فاس . (ت ٦٤٢هـ)[٢٩١] .

٤٥- عبد الله بن محمد بن أبي القاسم فرحون بن محمد ابن فرحون أبو محمد اليعمري التونسي : كان من أكابر الأئمة الأعلام ، عالماً بالفقه والتفسير وفقه الحديث ومعانيه ، بارعاً في علم العربية ، له كتاب (الدر المخلَّص من التقصي والملخَّص) جمع فيه بين أحاديث التقصي لابن عبد البر والملخص للقابسي ، ثم شرحه في أربعة مجلدات أسماه (كشف المغطا في شرح مختصر الموطأ). (ت ٧٦٩هـ)[٢٩٢] .

٤٦- محمد بن أحمد بن فرج القرطبي صاحب التفسير : كان من كبار علماء قرطبة ، ارتحل إلى مصر ومات فيها سنة (١٧٦هـ) ، له اختصارا التمهيد لابن عبد البر[٢٩٣] .

٤٧- الإمام جلال الدين السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي المصري ، حافظ عصره وأحد الأئمة الأعلام ، زادت مصنفاته على ٧٠٠ مصنف ، له شرحان على الموطأ أحدهما كبير أسماه : (كشف

المغطا عن الموطأ) والثاني مختصر أسماه : (تنوير الحوالك) . (ت ٩١١هـ)[٢٩٤] .

٤٨- الشيخ زين الدين عمر بن أحمد الشمّاع الحلبي الشافعي ، فقيه أثري إخباري شاعر له مصنفات كثيرة، منها شرحه للموطأ أسماه : (إتحاف العابد الناسك بالمنتقى من موطأ مالك). (ت ٩٣٦هـ)[٢٩٥] .

٤٩- الشيخ ملا علي بن محمد بن سلطان الهَروي المعروف بالقارئ الحنفي ، نزيل مكة وأحد صدور العلم ، وحيد عصره في التحقيق وتنقيح العبارات ، له مصنفات عديدة ، منها تعليقات على الموطأ برواية محمد بن الحسن الشيباني توفي بمكة سنة (١٠١٤هـ) [٢٩٦] .

٥٠- الشيخ إبراهيم بن حسين بن أحمد بن محمد بن أحمد بن بيري زاده الحنفي ، كان مفتي مكة وأحد أكابر فقهاء الحنفية وعلمائهم المشهورين ، تبحر في العلوم وتحري نقل الأحكام ، وانفرد في الحرمين بعلم الفتوى ، له شرح الموطأ برواية محمد بن الحسن الشيباني في جزأين لطيفين أسماه : (الفتح الرحماني شرح موطأ محمد بن الحسن الشيباني) (ت ١٠٩٩هـ) [٢٩٧] .

٥١- محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن علوان الزرقاني المصري الأزهري : ينسب إلى زُرقان قرية من قرى منوف بمصر كان خاتمة الحفاظ وإمام الحديث في عصره ، شرح الموطأ في خمسة مجلدات شرحاً وسطاً مفيداً أسماه : (أنوار كوكب أنهج المسالك بمزج موطأ الإمام مالك). (ت ١١٢٢هـ)[٢٩٨].

٥٢- أبو الحسن علي بن أحمد الفاسي الحَريشي. دفين المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام. كان علامة وقته ، ومسند عصره ، شرح الموطأ في ثلاثة أسفار ، وقيل في ثمانية ولم يتمه ، أسماه (بغية السالك إلى شرح موطأ مالك). (ت ١١٤٣هـ) وقيل (١١٤٤هـ)[٢٩٩] .

٥٣- سلام الله شيخ الإسلام بن فخر الدين : شرح الموطأ بعنوان : (المحلى على أسرار الموطأ) . (ت ١١٧٠هـ)[٣٠٠] .

٥٤- شيخ الإسلام قطب الدين أحمد ولي الله أحمد بن عبد الرحيم بن وجيه الدين العُمري الدهلوي الهندي الحنفي : ولد سنة (١١١٤) وتوفي سنة (١١٧٦هـ) كان رحمه الله من حفاظ القرن الثاني عشر ، وكان قد رحل في طلب العلم ورُحل إليه فيه ، ومصنفاته كثيرة ، منها : شرحه للموطأ باللغة العربية. أسماه : (المُسوّى من أحاديث الموطأ) يقع في مجلدين وسط وهو مطبوع ، كما شرح الموطأ بالفارسية أسماه : (المصفى)[٣٠١] .

٥٥- أبو العباس أحمد بن الحاج المكي السَّدْراتي ، المتوفى سنة (١٢٥٣هـ) : شرح الموطأ في كتاب أسماه : (تقريب المسالك لموطأ مالك)[٣٠٢] .

٥٦- أبو الحسنات عبد الحي بن الشيخ محمد بن عبد الحليم الكنوي الحنفي ينتهي نسبه إلى سيدنا أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه كان خاتمة علماء الهند ، وأكثرهم تأليفاً ، وأتمّهم تحريراً واطلاعاً وإنصافاً وتوسطاً ، له مصنفات مشهورة في الحديث والتاريخ والفقه ، منها شرحه على الموطأ برواية محمد بن الحسن الشيباني أسماه (التعليق المجد على موطأ محمد) وهو مطبوع متداول . (ت ١٣٠٤هـ)[٣٠٣] .

٥٧- جَنّون أو كَنّون التهامي بن الحاج المدني بن علي بن عبد الله : له تعليق على الموطأ أسماه : (أقرب المسالك). (ت ١٣٣١هـ)[٣٠٤] .

٥٨- أبو علي عمر بن علي بن يوسف بن هادي بن عثمان

العثماني الوُرْيَفْلي : شرح الموطأ في كتاب أسماه : (المعهد الكبير الجامع لمعاني السنن والأخبار وما تضمنه موطأ مالك)[305] .

٥٩- أبو علي بن الزهراء . له شرح الموطأ بعنوان : (العهد الكبير)[306] .

٦٠- إدريس القابسي. له شرح الموطأ بعنوان : (المسالك على موطأ مالك)[307] .

٦١- عمر بن محمد بن حمد . له شرح الموطأ بعنوان : (كشف المغطا عن معاني ألفاظ الموطأ)[308] .

٦٢- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور التونسي ، يعد من العلماء الأعلام في تونس ، فسر القرآن الكريم في ثلاثين جزءاً ، وشرح بعض ألفاظ أحاديث من كتاب الموطأ في جزء أسماه : (كشف المغطا من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ) وهو كتاب نفيس كثير النفع طبعته الشركة التونسية للتوزيع . توفي حدود (١٣٩٠هـ)[309].

٦٣- الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف الشافعي المصري : يعد من كبار علماء الأزهر في وقته ، له تعليقات وتحقيقات نافعة لمصنفات متعددة منها تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني والتكملة بوفيات النقلة ، ومنها تعليقاته على رواية الإمام محمد بن الحسن وهو مطبوع متداول . توفي حدود سنة (١٣٩٠هـ) تقريباً رحمه الله تعالى[310] .

٦٤- الشيخ محمد زكريا بن محمد بن يحيى الكاندهلوي السَّهارنْفوري الهندي الحنفي ، ولد سنة (١٣١٥هـ) وطلب العلم ورحل فيه حتى بلغ الذروة ، وصنف في الحديث مصنفات عدة ، أشهرها شرحه على الموطأ المسمى : (أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك) ، يقع في (١٨) جزءاً من القطع الكبير وهو مطبوع متداول. توفي حدود سنة (١٤٠٣هـ) تقريباً في المدينة المنورة- رحمه الله تعالى[311] .

المطلب الثاني : العلماء الذين فسروا غريبه :

١ - أحمد بن عمران بن سلامة الألهاني الأخفش ، أبو عبد الله النحوي، كان نحوياً لغوياً ، أصله من الشام، وتأدب بالعراق ، مات رحمه الله ، قبل الخمسين ومائتين[312] .

٢ - محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن أبي زرعة البرقي المصري ، كان يعد من كبار علماء زملائه في مصر، وله تصانيف متعددة . (ت ٣٤٩هـ)[313].

٣ - أبو عبد الله بن مُفَرِّج ، محمد بن أحمد بن محمد ابن يحيى بن مفرج القرطبي ، تفرد بعلم الحديث ، وكان من أعلم أهل الأندلس به ، وأوثقهم فيه . (ت ٣٨٠هـ)[314] .

٤ - أحمد بن نصر الداودي أبو جعفر الأسدي . (ت ٤٠٢هـ) وتقدم ذكره فيمن شرحوا الموطأ رقم (١٦)[315] .

٥ - أبو المطرف عبد الرحمن بن هارون ، وقيل ابن مروان ابن عبد الرحمن الأنصاري ، المعروف بالقَنازَعي القرطبي . (ت ٤١٣هـ) وتقدم ذكره فيمن شرحوا الموطأ رقم (١٨)[316] .

٦ - محمد بن يحيى بن محمد بن عبد الله المعروف بالحذَّاء ، أبو عبد الله القرطبي المالكي . (ت ٤١٦هـ) وسبق ذكره فيمن شرحوا الموطأ . رقم (١٩)[317] .

٧ - أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي عيسى أبو عمر الطَّلَمنْكي . (ت ٤٢٩هـ) وسبق ذكره فيمن شرحوا الموطأ . رقم (٢٣)[318] .

٨ - مروان بن علي القطان أبو عبد الملك البوني مات قبل الأربعين والأربعمائه . سبق ذكره فيمن شرحوا الموطأ رقم (٢٥)[319] .

٩ - أبو محمد عبد الله بن محمد السيد البَطَلْيوسي البَلَنْسي. (ت ٥٢١هـ). وكتابه في شرح غريب الموطأ يسمى بـ (التعليق) ذكر ذلك الطاهر بن عاشور في كتابه كشف المغطا في فضل الموطأ[٣٢٠] وسبق ذكره فيمن شرحوا الموطأ رقم (٣٦).

١٠- الفساني المصري[٣٢١].

المطلب الثالث : العلماء الذين رتبوا الموطأ على ترتيب المسند أو اقتصروا على ذكر المسند المرفوع منه:

١ - سعيد بن كثير بن عُفَير بن مسلم بن يزيد أبو عثمان المصري ، كان إماماً حافظاً حجةً في الحديث والتاريخ ، فصيحاً حسن البيان وكان من أصحاب مالك رحمه الله. (ت ٢٢٦هـ)[٣٢٢].

٢ - إبراهيم بن نصر السرقسطي أبو إسحاق : ذكره الحميدي في جذوة المقتبس ، وذكر قبله رجلاً بالاسم نفسه ، وقال : أظن أن هذا الاسم والذي قبله واحد ، كما حكى قول القرطبي بمثل ذلك أيضاً. وقال أبو عُميرة في بغية الملتمس : نقلت من خط شيخي القاضي أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد بن حُبيش : إبراهيم بن نصر الجهني القرطبي ، توفي بسَرَقُسْطة سنة سبع وثمانين ومائتين. قال ابن عُميرة: فصحَّ بذلك ما ظنه الحميدي[٣٢٣].

٣ - موسى بن هارون الحمال أبو عمران البزاز البغدادي: كان ، إماماً حافظاً له مصنفات كثيرة . (ت ٢٩٤هـ)[٣٢٤].

٤ - أبو عبد الرحمن النَّسائي أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر الخراساني النسائي الشافعي صاحب السنن : كان من بحور العلم ، مع الفهم والإتقان والبصر ، ونقد الرجال . (ت ٣٠٣هـ)[٣٢٥].

٥ - القاضي إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد ابن زيد الأزدي البغدادي : انتهت إليه رئاسة المذهب المالكي في العراق ، ويعود إليه الفضل في نشره في تلك الأمصار برع في الفقه والحديث والشعر والأدب . (ت ٣٠٩هـ)[٣٢٦].

٦ - أحمد بن خالد بن يزيد أبو عمر ابن الجَبَّاب المالكي : كان حافظاً ناقداً ، انتهت إليه رئاسة الحديث في الأندلس ، وصنف مسند مالك في ستة أجزاء . (ت ٣٣٢هـ)[٣٢٧].

٧ - أبو الحسن القابسي ، علي بن محمد بن خلف المَعافري القيرواني المالكي : كان واسع الرواية ، عالماً بالحديث وعلله ورجاله ، فقيهاً أصولياً متكلماً مؤلفاً مجيداً. (ت ٣٢٤هـ). له (الملخص لمسند موطأ مالك ابن أنس)[٣٢٨].

٨ - محمد بن الربيع بن سليمان بن داود أبو عبد الله الجيزي المصري : له (مسند موطأ ابن وهب) . (ت ٣٢٤هـ)[٣٢٩].

٩ - أبو بكر بن زياد النيسابوري : عبد الله بن محمد بن زياد بن واصل بن ميمون النيسابوري : برع في الفقه والحديث ، وكان إمام الشافعيين في عصره بالعراق ومن أحفظ الناس للفقه واختلاف الصحابة. (ت ٣٢٤هـ)[٣٣٠].

١٠- أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام التميمي الأفريقي المالكي : كان حافظاً لمذهب مالك عالماً ، غلب عليه علم الحديث والرجال . (ت ٣٣٣هـ)[٣٣١].

١١- قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح القرطبي : إمامٌ حافظٌ محدثُ الأندلس . (ت ٣٤٠هـ)[٣٣٢].

١٢- محمد بن عبد الله بن عَيشون أبو عبد الله الطُّلَيْطلي المالكي : كان عالماً متقدماً فقيهاً حافظاً لمذهب

مالك . (ت ٣٤١هـ) . وسبق ذكره فيمن شرحوا الموطأ برقم (٩) .

١٣- أحمد بن إبراهيم بن جامح السكري المصري ، كان عالماً وصاحب حديث. (ت ٣٥١هـ)(٣٣٣) .

١٤- أبو أحمد بن عدي : عبد الله بن عدي بن عبد الله بن محمد بن مبارك الجرجاني صاحب كتاب الكامل في الضعفاء ، كان حافظاً ناقداً للرجال بصيراً بأحوالهم . (ت ٣٦٥هـ)(٣٣٤) .

١٥- أبو سليمان بن زَبْر محمد بن عبد الله بن أحمد بن ربيعة بن زَبْر الرَّبْعي : كان محدث دمشق ، وكان ثقة مأموناً نبيلاً. (ت ٣٧٩هـ)(٣٣٥) .

١٦- أبو عبد الله بن مُفرّج محمد بن أحمد بن محمد ابن يحيى بن مُفرِّج القرطبي : تفرد بعلم الحديث ، وكان من أعلم أهل الحديث به وأوثقهم فيه . (ت ٣٨٠هـ) . تقدم ذكره فيمن فسروا غريب الموطأ برقم (٣) .

١٧- أبو حفص بن شاهين : عمر بن أحمد بن عثمان بن أحمد بن محمد البغدادي : كان عالماً حافظاً صدوقاً صنف كثيراً ، له (مسند الموطأ) والتفسير في نيف وعشرين مجلداً كله بأسانيد. (ت ٣٨٥هـ) (٣٣٦) .

١٨- أبو الحسن الدارقطني ، علي بن عمر بن أحمد بن مهدي البغدادي من محلة دارقطن ببغداد : كان من بحور العلم ومن أئمة الدنيا انتهى إليه الحفظ ومعرفة علل الحديث ورجاله. (ت ٣٨٥هـ)(٣٣٧) .

١٩- أبو القاسم الجوهر ، عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي : كان فقيهاً ورعاً خيّراً من جِلة الفقهاء ، وكان قد لزم بيته لا يخرج منه ، له (مسند الموطأ) و(مسند ما ليس في الموطأ) . (ت ٣٨٥هـ)(٣٣٨) . وقيل : (٣٨١هـ) .

٢٠- خلف بن القاسم بن سهل أبو القاسم بن الدباغ الازدي القرطبي : كان حافظاً متقناً واسع الرواية. (ت ٣٩٣هـ)(٣٣٩) .

٢١- عبد الغني بن سعيد الأسدي ويقال : الأزدي الحافظ المعدِّل الصوري : قال السمعاني : ما رأت عيناي مثله. توفي سنة نيف وعشرة بعد الأربعمائة(٣٤٠) .

٢٢- أبو ذر الهَروي : عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عُفير المالكي ، أصله من هَراة، كان إماماً في الحديث ، حافظاً له ، واسع الرواية متحرياً في سماعه ، كثير المعرفة في الصحيح والسقيم وعلم الرجال. له (مسانيد الموطأ). (ت ٤٣٥هـ)(٣٤١).

٢٣- الإمام ابن عبد البر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي : انتهت إليه رئاسة العلم في الأندلس . (ت ٤٦٣هـ). وسبق ذكره فيمن شرحوا الموطأ برقم (٨٢) .

٢٤- عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر بن حَوط الله ، أبو محمد الحارثي : كان فقيهاً جليلاً أصولياً نحوياً كاتباً أديباً شاعراً متفنناً في العلوم ، ورعاً ديناً ثبتاً فاضلاً ، (ت ٦١٢هـ)(٣٤٢) .

٢٥- علي بن خلف السِّجلْماسي(٣٤٣) .

٢٦- فلان المطرز(٣٤٤) .

٢٧- أحمد بن بندار الفارسي(٣٤٥) .

٢٨- القاضي أبو سعيد بن الأعرابي أحمد بن محمد بن زياد البصري نزيل مكة : كان كبير الشأن بعيد الصيت ، عالي الإسناد . (ت ٣٤٠هـ)(٣٤٦) .

٢٩- أبو عبد الله السراج النيسابوري(٣٤٧) .

٣٠- عبد العزيز بن سلمة(٣٤٨) .

٣١- أبو القاسم الأندلسي الحافظ(٣٤٩) .

٣٢- أبو بكر محمد بن عيسى الحضرمي(٣٥٠) .

المطلب الرابع : العلماء الذين صنفوا فيما يتعلق بأسانيده :

١ – محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن أبي زرعة البرقي المصري: كان يعد من كبار علماء زمانه ، وله تصانيف متعددة منها : (تاريخ رجال الموطأ). (ت ٢٤٩هـ). وتقدم ذكره فيمن فسروا غريب الموطأ رقم (٢) .

٢ – يحيى بن مُزَين أبو زكريا الطُّلَيْطلي : له كتاب (المستقصية) في تسمية رجال الموطأ. (ت ٢٥٩هـ). تقدم فيمن شرحوا الموطأ . رقم (٧).

٣ – الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري صاحب الصحيح: له كتاب (مشايخ مالك). (ت ٢٦١هـ)[٣٥١].

٤ – محمد بن القاسم بن شعبان بن محمد بن ربيعة العمَّاري المصري ويعرف بابن القُرْطي نسبة إلى بيع القُرط : كان صاحب سنة واتباع ، وباع مديد في الفقه ، مع بصر بالأخبار وأيام الناس ، له كتاب أسماء (الرواة عن مالك). (ت ٣٥٥هـ)[٣٥٢].

٥ – أبو بكر بن السليم محمد بن إسحاق بن منذر بن إبراهيم بن محمد بن السليم القرطبي المالكي : كان حافظاً للفقه بصيراً بالاختلاف ، عالماً بالحديث ضابطاً لما رواه ، له كتاب : (الوصل لما ليس في الموطأ). (ت ٣٧٦هـ)[٣٥٣] .

٦ – أبو الحسين محمد بن المظفر بن موسى البراز البغدادي: كان متقدماً في معرفة الرجال، وصنف وبَعُد صيتُه وأكثر الحفاظ عنه مع الصدق والإتقان له كتاب : (ما وصله مالك مما ليس في الموطأ). (ت ٣٧٩هـ)[٣٥٤] .

٧– أبو عبد الله بن مُفرِّج أحمد بن محمد بن يحيى بن مُفرِّج القرطبي : تفرد بعلم الحديث ، وكان من أعلم أهل الأندلس به وأوثقهم فيه له كتاب في (رجال الموطأ). (ت ٣٨٠هـ). تقدم ذكره فيمن فسروا غريب الموطأ برقم (٣) وفيمن رتبوا الموطأ على ترتيب المسند برقم (١٦) .

٨– أبو عبد الله بن الحذَّاء محمد بن يحيى بن عبد الله : له كتاب : (التعريف بمن ذكر في موطأ مالك بن أنس من الرجال والنساء) (ت ٤١٦هـ)[٣٥٥] .

٩– أبو عمر الطَّلَمَنْكي أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي عيسى: له كتاب : (رجال الموطأ). (ت ٤٢٩هـ) . تقدم فيمن شرحوا الموطأ . رقم (٢٣) وفسروا غريبه رقم (٧).

١٠– أبو محمد بن حزم علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري القرطبي: له كتاب : (شيوخ مالك). (ت ٤٥٦هـ) تقدم فيمن شرحوا الموطأ . رقم (٢٦) .

١١– أبو بكر الخطيب البغدادي أحمد بن علي بن ثابت الشافعي : الإمام الحافظ الحجة انتهت إليه رئاسة الحديث والعلم بالمشرق ، له كتاب (أسماء الرواة عن الإمام مالك بن أنس) يقع في (٦) أجزاء ، (ت ٤٦٣هـ)[٣٥٦] .

١٢– عبد الله بن أحمد بن سعيد بن يَربوع بن سليمان أبو محمد الإشبيلي : كان حافظاً للحديث وعلله عارفاً بأسماء رجاله، ضابطاً لما كتبه، له كتاب : (تاج الحلية وسراج البغية) في رجال الموطأ. (ت ٥٢٢هـ)[٣٥٧].

١٣– علي بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن موسى الخزرجي أبو الحسن بن الحصار الفاسي المدني: له كتاب : (تقريب المدارك في وصل المقطوع من حديث مالك) . (ت ٥٩٦هـ)[٣٥٨] .

١٤– أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن محمد بن خلفون الأزدي الأندلسي : كان بصيراً بصناعة الحديث حافظاً للرجال. له كتاب : (أسماء شيوخ مالك). (ت ٦٣٦هـ)[٣٥٩] .

١٥– يحيى بن عبد الله بن علي أبو الحسين القرشي : له كتاب (أسماء الرواة عن مالك). (ت ٦٦٢هـ)[٣٦٠].

١٦- الإمام جلال الدين السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر الشافعي المصري : له كتاب : (إسعاف المبطأ برجال الموطأ) مطبوع في آخر كتاب تنوير الحوالك . (ت ٩١١هـ). تقدم ذكره فيمن شرحوا الموطأ برقم (٤٧) .

المطلب الخامس : العلماء الذين صنفوا فيما يتعلق بأسانيده ومتونه معاً :

هذا الباب ألفت فيه كتب كثيرة ، وقد سجلت بعضها غير أنه يحتمل أن يكون بعض ما سجلته يخدم أحاديث الإمام مالك خارج الموطأ ، ويحتمل أن يكون في خدمة الموطأ أيضاً ، وتلك الكتب ذات العنوان المطلق غير مقيد بكتاب الموطأ والله أعلم .

١ – علي بن الحسين بن الجُنيد أبو الحسن النخعي الرازي المعروف بالمالكي : كان حافظاً حجة جمع (حديث مالك) فاشتهر بالمالكي لذلك. (ت ٢٩١هـ)[٣٦١] .

٢ – أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار البصري صاحب المسند : يعد من الأئمة الحفاظ ، له كتاب (الأحاديث التي خولف فيها مالك). (ت ٢٩٢هـ)[٣٦٢] .

٣ – الإمام النسائي أحمد بن شعيب بن علي بن سنان ابن بحر الخراساني صاحب السنن : كان من بحور العلوم والفهم والإتقان والبصر بأحوال الرجال وحسن التأليف له كتاب (حديث مالك) . (ت ٣٠٣هـ). تقدم ذكره فيمن رتبوا الموطأ على ترتيب المسند برقم (٤) .

٤ – القاضي إسماعيل بن إسماعيل الأزدي البغدادي المالكي : انتهت إليه رئاسة المذهب المالكي في العراق ويعود الفضل إليه في نشره بالعراق له (شواهد الموطأ) . (ت ٣٠٩هـ). تقدم ذكره فيمن رتبوا الموطأ على ترتيب المسند برقم (٥) .

٥ – محمد بن أحمد بن إبراهيم بن سليمان بن محمد أبو أحمد الأصبهاني المعروف بالعسال ، كان أحد الأئمة في الحديث فهماً وإتقاناً وأمانة ، له كتاب (أحاديث مالك). (ت ٣٤٩هـ)[٣٦٣] .

٦ – الإمام ابن حبان محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي أبو حاتم البستي صاحب الصحيح : كان من أوعية العلم في اللغة والفقه والحديث والوعظ ، له مؤلفات كثيرة منها : (علل حديث مالك) في عشرة أجزاء. (ت ٣٥٤هـ)[٣٦٤] .

٧ – أبو بكر القبّاب عبد الله بن محمد بن فُوْرَك بن عطاء ، الأصبهاني : كان إماماً مقرئاً مسند أصبهان له : (حديث مالك). (ت ٣٧٠هـ)[٣٦٥] .

٨ – أبو أحمد محمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق النيسابوري الكرابيسي ، المعروف بالحاكم الكبير الحافظ الحجة له : (عوالي الإمام مالك) طبع في تونس . (ت ٣٧٨هـ)[٣٦٦] .

٩ – أبو الحسين محمد بن المظفر بن موسى البزاز البغدادي: له كتاب: (غرائب حديث مالك). (ت ٣٧٩هـ) . تقدم فيمن خدموا الموطأ خدمة تتعلق بأسانيده برقم (٦) .

١٠- أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني : له : (الأحاديث التي خولف فيها مالك) وكتاب (اختلاف الموطأ) (ت ٣٨٥هـ). تقدم ذكره فيمن رتبوا الموطأ على ترتيب المسند برقم (١٨) .

١١- خلف بن القاسم بن سهل الأندلسي أبو القاسم ابن الدباغ : له (حديث مالك). (ت ٣٩٣هـ)[٣٦٧] .

١٢- الإمام أبو بكر بن ثابت الخطيب البغدادي الشافعي : له كتاب : (أطراف الموطأ) وكتاب (أحاديث مالك). (ت ٤٦٣هـ) . تقدم فيمن خدموا الموطأ خدمة تتعلق بأسانيده برقم (١١).

١٣- أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب الباجي القرطبي المالكي : له كتاب (اختلاف الموطأ آت). (ت ٤٧٤هـ). تقدم ذكره فيمن شرحوا الموطأ برقم (٢٩).

١٤- أحمد بن باهر بن علي بن شبرين بن علي بن قيس الأنصاري : كان ممن عني بالحديث ورحل فيه، وأتقن الضبط : واتسع في الأخذ والسماع ، وغلب عليه علم الحديث ، له كتاب : (الإيماء إلى أطراف أحاديث الإمام مالك). (ت ٥٢٠هـ) وقيل: (٥٣٢هـ)[٣٦٨].

١٥- زاهر بن طاهر بن محمد بن محمد بن أحمد النيسابوري الشَحامي : كان محباً للرواية ، وكان متيقظاً جمع عوالي أحاديث مالك. (ت ٥٣٣هـ)[٣٦٩] .

١٦- محمد بن خلف بن موسى أبو عبد الله الأنصاري الألبيري : له كتاب : (الدرة في مشكل الموطأ). (ت ٥٣٧هـ)[٣٧٠] .

١٧- ابن عساكر أبو القاسم الدمشقي الشافعي : كان عالماً متقناً ذكياً بصيراً بالحديث والتاريخ وغيره ، لا يُدرَك شأوه ولا نظير له في زمانه ، له كتاب (كشف المغطا في فضل الموطأ) وهو جزء لطيف مطبوع وكتاب : (عوالي مالك) و (والذيل عليه) يقع في خمسين جزءاً و (غرائب مالك) في عشرة أجزاء . (ت ٥٧١هـ)[٣٧١] .

١٨- ابن بَشْكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بَشْكوال الأندلسي القرطبي : كان عالماً ناقداً متقناً محدثاً ، له تصانيف عدة منها (ذكر من روى الموطأ عن مالك) يقع في جزأين. (ت ٥٧٨هـ)[٣٧٢] .

١٩- ابن حَوط : عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر الأنصاري الحارثي كان فقيهاً جليلاً أصولياً نحوياً كاتباً أديباً شاعراً متفنناً في العلوم (جمع الموطأ من رواية ابن وهب وابن القاسم). (ت ٦١٢هـ) . تقدم فيمن رتبوا الموطأ على ترتيب المسند برقم (٢٤).

٢٠- صلاح الدين أبو سعيد خليل كَيْكَلْدي العلائي الشافعي، الحافظ الحجة الثبت، انتهت إليه رئاسة الحديث في عصره له كتاب : (بغية الملتمس في سباعيات حديث الإمام مالك بن أنس). (ت ٧٦١هـ)[٣٧٣].

٢١- عبد الرحمن بن يحيى القرشي : له كتاب (تجريد أحاديث الموطأ). (ت ٩٦٤هـ)[٣٧٤] .

٢٢- أبو الحسن بن أبي طالب العابر : له كتاب : (موطأ الموطأ)[٣٧٥] .

٢٣- أبو حامد البياني : له (تلخيص الموطأ)[٣٧٦] .

٢٤- المنتقى من الموطأ ، لمؤلف مجهول[٣٧٧] .

٢٥- جزء فيه عوالي أحاديث مالك ، رواية هشام بن عمار. (ت ٢٤٥هـ)[٣٧٨] .

٢٦- عوالي الإمام مالك ، رواية الشريف أبي القاسم علي ابن إبراهيم : جَمَعَهُ سليم بن أيوب بن سليم الرازي. ت سنة (٤٤٧هـ)[٣٧٩] .

٢٧- جزء فيه من حديث مالك ، كُتب في القرن السادس الهجري[٣٨٠].

المبحث الخامس : منزلة الموطأ بين كتب السنة :

- المطلب الأول : مقارنة بين الصحيحين والموطأ في الحجية من حيث الجملة.

- المطلب الثاني : سبب عدم عدّ الموطأ ضمن الكتب الستة في المشهور .

بين يدي المبحث :

إن مسألة منزلة الموطأ بين كتب السنة تحتاج إلى معالجة من جانبين :

الأول : هل يمكن أن يعتبر الموطأ مقدماً على صحيح البخاري ومسلم في الصحة ؟ وعندئذ فيكون قد تقدم زمناً ورتبةً ، أو أنه تقدم زمناً لكنه تأخر رتبة ؟

وهل هذا التقدم أو التأخر في الرتبة يعود إلى أصل اشتراط الصحة ؟ أم لاعتبارات أخرى لا علاقة لها بذلك ؟

الثاني : الكشف عن سبب عدم عدّ الموطأ ضمن الكتب الستة في المشهور مع أنه ليس أدنى من كتب السنة في الصحة ؟

وقد جعلت معالجة الجانب الأول تحت عنوان : مقارنة بين الصحيحين والموطأ في الحجية من حيث الجملة وهو المطلب الأول .

وجعلت معالجة الجانب الثاني تحت عنوان سبب عدم عدّ الموطأ ضمن الكتب الستة في المشهور وهو المطلب الثاني .

المطلب الأول : مقارنة بين الصحيحين والموطأ في الحجية من حيث الجملة :

فإن الزمن الذي كتب فيه الموطأ وهو منتصف القرن الثاني كان حافلا بكبار العلماء الذين احتضنتهم أكثر البلاد الإسلامية آنذاك ، وكان أولئك العلماء قد جمعوا السنة في كتب عرف بعضها باسم الموطأ وبعضها باسم الجامع[٣٨١] وبعضها باسم السنن ، فقد جمع في المدينة محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي (ت ١٦٠) وقيل (١٥١هـ) ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب (ت ١٥٨هـ) ، ومالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) ، وفي مكة عبد الملك بن جريج (ت ١٥٠هـ) ، وفي اليمن معمر ابن راشد (ت ١٥٤هـ) ، وفي الشام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت ١٥٨هـ) ، وفي الكوفة سفيان الثوري (ت ١٦١هـ)، وفي البصرة سعيد ن أبي عَروبة (ت ١٥٦هـ)، وحماد بن سلمة (ت ١٧٦هـ) ، وفي خراسان عبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـ) ، وغير هؤلاء من العلماء .

وقد تميز تصنيف هذه الطبقة من العلماء بالأمور الآتية:

١ - أنه جمع بين الحديث المرفوع والموقوف والمقطوع.

٢ - جمع بين الأثر وبين أقوال المصنِف الفقهية.

٣ - جمع بين الصحيح والحسن والضعيف ، ومن الضعيف مراسيل وبلاغات يحتج بها الفقيه ولا يحتج بها أهل الحديث.

٤ - أخذ الطابع الفقهي.

ولما حازت شخصية الإمام مالك بالقبول عند العلماء للغزارة العلمية والدقة والتحري في الرواية ، كان لهذا الأثر الكبير في قبول الموطأ عند الناس ، إذ أقبلوا عليه محتجين به مع ما فيه من مراسيل وبلاغات ، لأنه بلغ من تحري الإمام مالك في الرواية أنه كان لا يروي إلا عن ثقة، ولا يرسل إلا عن ثقة ، حتى قال الإمام سفيان بن عيينة : إذا قال مالك بلغني فهو إسناد قوي. وقال عبد الله بن وهب : مالك والليث بن سعد إسناد وإن لم يسندا[٣٨٢] .

ثم جاء بعد هذه الطبقة من العلماء طبقة أخرى أعطت لتدوين السنة منحى جديداً ، منهم الإمام أسد بن موسى الأموي (ت ٢١٢هـ)، ونعيم بن حماد الخزاعي (ت ٢٢٨هـ). والإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، وغيرهم فجمعوا السنة في كتب عرفت بالمسانيد وهي جمع أحاديث كل صحابي على حدة ، وقد تميز تصنيف هذه الطبقة بالأمور التالية :

١ - جمع الحديث المرفوع المسند دون غيره.

٢ - الجمع بين الصحيح والحسن والضعيف.

٣ - عدم ذكر الأقوال الفقهية.

ثم جاء بعد هذه الطبقة طبقة أخرى من العلماء أضفت على السنة ثوباً جديدا في تصنيفها، منهم الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) ، ومسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ) ثم تبعهما أبو محمد عبد الله بن علي بن الجارود (ت ٣٠٧هـ) ومحمد بن إسحاق بن خزيمة (ت ٣١١هـ) ، وسعيد بن عثمان بن السَّكَن (ت ٣٥٣هـ) ومحمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ) وغيرهم، فجمعوا السنة في كتب عرفت بالصحاح ، وقد تميّز تصنيف هذه الطبقة بالأمور الآتية :

١ - الاقتصار على المرفوع المسند من الآثار .

٢ - الاقتصار على الصحيح من الحديث دون النزول إلى ما دون ذلك غير أنه تختلف فيها درجات الصحة حسب اختلاف شروطها عند كل مصنف .

٣ - تبويب تلك الأحاديث على الأبواب الفقهية والفضائل والسير وغير ذلك ، وتضمين تلك الأبواب رأياً فقهياً تدل عليه أحاديث الباب المترجم ، علماً أنه قد يكون الرأي الفقهي يقلد فيه صاحب الكتاب شيخ مذهبه الفقهي أو ينفرد به عنه.

وكان أول من شرع في هذا النوع من التصنيف الإمام البخاري رحمه الله وكان صحيحه يتميز عن الطبقة التي حَذَت حَذْوه ، لان شروط الصحة عنده أشد من غيره لذلك تميز عن سائر كتب الصحة .

ثم إنه يشترك مع كتب الصحة في التبويب الفقهي والترجمة الفقهية غير أنه يستشهد للرأي الفقهي بحديث مرفوع معلق أو بحديث موقوف ، أو مقطوع ثم يورد الأحاديث المسندة التي يحتج بها تحت الباب المترجم ، وبذلك يتبين أن إيراده للمعلقات والموقوفات والمقاطيع إنما كان للاستشهاد لا للاعتماد ، علماً أن كثيراً منها يكون تفسيراً لكلمة من حديث من أحاديث الباب أو آية كريمة ساقها في الباب تتعلق بمعنى الباب المترجم نفسه .

ولما تميز صحيح البخاري بشدة الشروط وحسن الانتقاء والسداد في التصنيف أجمع العلماء على أنه أصح كتب الحديث بعد كتاب الله عز وجل ، ثم يتلوه صحيح مسلم، كما ذهبوا إلى أن البخاري يعتبر أول من جمع الصحيح المجرد .

أما موطأ الإمام مالك فإنه يعتبر أصح كتب الحديث بالنسبة لطبقته من الفقهاء ممن يحتج بالبلاغات والمراسيل، وعلى مستوى من قلده في مذهبه لا على المستوى الحديثي العام .

وهذا رأي المحققين من أهل الحديث ، قال أبو عمرو ابن الصلاح : أول من صنف الصحيح البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي مولاهم ، وتلاه أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى القشيري من أنفسهم ، ومسلم مع أنه أخذ عن البخاري واستفاد منه يشاركه في كثير من شيوخه ، وكتابهما أصح الكتب بعد كتاب الله العزيز ، وأما ما روينا عن الشافعي - رضي الله عنه - من أنه قال: ما أعلم في الأرض كتاباً في العلم أكثر صواباً من كتاب مالك - ومنهم من رواه بغير هذا اللفظ - فإنما قال ذلك قبل وجود كتابي البخاري ومسلم(٣٨٣) .

قلت : إن أبا عمرو بن الصلاح مع أنه قدّم صحيح البخاري ومسلم على الموطأ في الصحة غير أن قوله - أول من صنف الصحيح البخاري - مطلق يفسح المجال لمن يقول : بل إن الموطأ يعتبر أول من جمع الصحيح لأنه متقدم عليه في الزمن وأحاديثه انتقاها وتحرى فيها .

لذلك لما اختصر الإمام النووي كتاب ابن الصلاح قيد عبارته ليدفع دعوى المعترض فقال : أول مصنف في الصحيح (المجرد) صحيح البخاري(٣٨٤).

فقيّد ذلك بالمجرد ، لأن مالكاً في الواقع لم يجرد كتابه للحديث المرفوع المسند ككل ، بل أدخل فيه المراسيل والبلاغات والموقوفات والمقاطيع على سبيل الاعتماد والاحتجاج لا على سبيل الاستشهاد على عكس ما فعله البخاري ، لذلك يصدق تجريد الصحيح على البخاري لا على الموطأ عند جمهور المحدثين ، وممن ذهب إلى ترجيح صحيح البخاري ومسلم على الموطأ الحافظ الذهبي حيث صرّح بذلك في كتابه سير أعلام النبلاء(٣٨٥) ، والحافظ عماد الدين ابن كثير في كتابه اختصار علوم الحديث(٣٨٦) وكذا الحافظ العراقي، والحافظ ابن حجر العسقلاني(٣٨٧)، وهو الذي حكى هذا المذهب عن شيخه العراقي ، كما ذهب إلى ذلك الحافظ السخاوي في كتابه فتح المغيث(٣٨٨) .

بعد ذلك أزيد الأمر وضوحاً في تقديم المحدثين صحيح البخاري على الموطأ فأقول : إن الناظر في كتاب الموطأ ثم في المصنفات التي جاءت بعده من المسانيد ثم الصحاح يلمس التدرج المنهجي في تدوين السنة.

فالموطأ يختلف أسلوبه ومنهجه عن المسانيد وكتب الصحاح بالآتي:

١ - إن الموطأ جمع بين الحديث والفقه المذهبي ، فلا يخلو باب من أبوابه إلا وفيه رأي مالك يذكره بعد سرد أحاديث ذلك الباب ، بل إن في الموطأ بعض الأبواب خلت أصلاً من أي أثر مرفوع أو موقوف أو مقطوع وإنما تمحضت لفقه مالك فقط[٣٨٩] .

وهناك من الأبواب قد مزجت بين المرفوع والموقوف والمقطوع[٣٩٠] في الاحتجاج وهناك من الأبواب اقتصرت على ذكر الموقوف والمقطوع في الاحتجاج كذلك[٣٩١] .

٢ - بما أن الإمام مالكاً ومن قلده في مذهبه من الفقهاء يحتجون بالحديث المرسل والبلاغ لذلك ضمّن كتابه الكثير منها محتجاً بها لفقهه رحمه الله ، علماً أن المعروف من جمهور المحدثين رد المرسل والبلاغ.

فبالمقارنة لمنهج الموطأ مع المسانيد والصحاح نجد أنه يختلف عنها فيما تقدم فكتب المسانيد تمحضت للحديث المرفوع المسند فقط غير أنها جمعت الصحيح والحسن والضعيف.

أما صحيح البخاري فإنه تمحض للاحتجاج بالمرفوع المسند الصحيح خاصة ولم ينزل إلى المعلقات والموقوفات في الاحتجاج وإنما جعلها في تراجم الأبواب للاستشهاد بها فقط.

وبذلك يظهر الفارق المميِّز بين الموطأ وصحيح البخاري، وبهذا يصدق على البخاري أنه أول من جمع الصحيح المجرد.

ثم إن اقتصار البخاري في الاحتجاج على المرفوع المسند الصحيح قد وافق بذلك المحدثين والفقهاء على حد سواء.

لأن الأصل في الاحتجاج عند المحدثين والفقهاء معاً كون الحديث بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه وسلامته من الشذوذ والعلة القادحة ، فهذه الشروط لو توفرت لكانت أمثل شيء عند الفقيه الذي يحتج بالمرسل والبلاغ فضلاً عن المحدثين الذين جعلوا المراسيل والبلاغات في حيز الضعف ، ولو أن الموطأ اختص بجمع المرفوع المتصل لقدمه العلماء على صحيح البخاري إذ سبق البخاري في الزمن ، كما امتاز الإمام مالك بالدقة والتحري في الرواية والله اعلم.

وبما تقدم يتضح أن سبب تقديم صحيح البخاري على الموطأ إنما يعود إلى مدى توفر شروط الصحة المتفق عليها عند جمهور المحدثين والفقهاء جميعاً. والله اعلم.

المطلب الثاني : سبب عدم عدّ الموطأ ضمن الكتب الستة في المشهور :

لما اتفق العلماء على تقديم الصحيحين في الصحة أصبحا عندئذ المصدر الموثق للامة الإسلامية والمرجع الثابت في استنباط الأحكام منهما ، وفي الوقت نفسه لم تنحصر الأحاديث الصحيحة فيهما فحسب بل كانت هناك أحاديث صحيحة أخرى منتشرة في كتب الحديث.

ولما كانت الشريعة الإسلامية تعتمد بعد القرآن الكريم على السنة الصالحة للاحتجاج ، وكان الفقهاء يحتاجون في استنباط الأحكام إلى أحاديث أكثر مما حواه الصحيحان ، عندئذ عمد أهل الحديث إلى النظر في كتب السنة من سنن ومسانيد وموطآت ومصنفات وغيرها، فما وجدوا فيها أحاديث صالحة للاحتجاج زادت على الصحيحين جعلوه بعدهما في الترتيب ، ثم رتبوا تلك الكتب ترتيباً تدريجياً حسب تفاوت النسبة في عدد الأحاديث الزائدة على الصحيحين قلة وكثرة[٣٩٢].

وهذا هو السبب الذي أخر الموطأ عن السنن في ترتيب نسبة الزيادات لا في التفاوت في درجات الصحة ، علماً

أن غالب أحاديثه المرفوعة المسندة مخرجة في الصحيحين.

فزيادات سنن أبي داود والترمذي والنسائي تفوق زيادات الموطأ على الصحيحين بكثير، وإن كانت لا تخلو من ضعف غير أنها من حيث الأغلب صالحةٌ للاحتجاج بها(٣٩٣) .

أما سنن ابن ماجه فزياداته على الصحيحين أضعاف زيادات الموطأ غير أن أكثرها يشمله الضعف(٣٩٤) ، بينما زيادات الموطأ وإن كانت أقل من زيادات ابن ماجه إلا أنها صحيحة ؛ لهذا اختلفت وجهات نظر المحدثين في عد سادس الكتب الستة هل الموطأ باعتبار صحة زياداته وإن قلت؟ أم سنن ابن ماجة باعتبار كثرة زياداته وإن غلب عليها الضعف؟

فذهب ابن الأثير صاحب جامع الأصول ورَزين بن معاوية السَرَقَسْطي وأبو جعفر بن الزبير إلى تقديم الموطأ على سنن ابن ماجة.

بل حكى الحافظ المزي هذا الرأي عن كثير من المتقدمين فقال : إن الغالب فيما انفرد به ابن ماجة الضعف ، ولذا جرى كثير من القدماء على إضافة الموطأ أو غيره إلى الخمسة(٣٩٥).

وذهب الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي والحافظ عبد الغني المقدسي إلى تقديم سنن ابن ماجة ، وقد درج الناس بعد ذلك على ما ذهب إليه ابن طاهر، والحافظ عبد الغني رحمهما الله حتى الحافظ المزي في كتابه الأطراف(٣٩٦)، مع أنه هو الذي حكى رأي المتقدمين في تقديم الموطأ على سنن ابن ماجة لصحة زوائد الموطأ كما تقدم.

ولعل السبب في شهرة هذا الترتيب عند الناس هو أن ابن طاهر عمل أطراف الكتب الستة ، وجعل سادسها سنن ابن ماجة ، ثم درج على ذلك الحافظ عبد الغني المقدسي في كتابه الكمال في أسماء الرجال حيث ضمنه رجال الكتب الستة ، وجعل سادسها رجال سنن ابن ماجة كذلك وقد قبله العلماء وطلاب العلم واعتمدوه في الاستخراج كمصدر في الرجال له شأنه ، ولم يكن هذا الترتيب له ارتباط أصلاً بالمستوى العام لكتاب سنن ابن ماجة أو كتاب الموطأ ، وإنما الأمر يكاد أن يكون شكلياً ولا يمس بمستوى الموطأ ، لذلك درجوا على هذا الترتيب دون غضاضة والله أعلم.

ثم هناك بعض العلماء يرى تقديم سنن الدارمي على سنن ابن ماجة ، وقد حكى هذا القول الحافظ ابن حجر عن الحافظ العلائي ، وقد علل الحافظ العلائي هذا الرأي بقوله : لأنه قليل الرجال الضعفاء نادر الأحاديث المنكرة والشاذة وإن كانت فيه أحاديث مرسلة وموقوفة فهو مع ذلك أولى من كتاب ابن ماجة(٣٩٧) .

ثم إنه قد يقال بما أن هذا الترتيب التدرجي لكتب السنة كان بسبب الزيادات المرفوعة الصحيحة ، فلماذا تأخرت المسانيد عن السنن الأربعة؟

ونترك الجواب للحافظ ابن حجر حيث يقول : إن ظاهر حال من يصنف على الأبواب أنه ادعى على أن الحكم في المسألة التي بوب عليها ما بَوَّب به فيحتاج إلى مستدل لصحة دعواه ، والاستدلال إنما ينبغي أن يكون بما يصلح أن يحتج به ، وأما من يصنف على المسانيد فإن ظاهر قصده جمع حديث كل صحابي على حدة ، سواء كان يصلح للاحتجاج أم لا ، وهذا هو أصل الوضع بلا شك ، لكن جماعة من المصنفين في كل من الصنفين خالف أصل موضوعه فانحط أو ارتفع(٣٩٨) .

قلت : هذا جواب سديد في حق الكتب المصنفة على الأبواب وعلى المسانيد بوجه عام ، ولكن قد يقال : إذا كانت المسانيد - كما ذكر الحافظ ابن حجر - دأبها جمع أحاديث كل صحابي على حدة بصرف النظر عن الصحة أو الضعف فمسند الإمام أحمد مقدم على كثير من

المسانيد ، لأن الإمام أحمد انتخبه من سبعمائة وخمسين ألف حديث ، كما أن زياداته على الصحيحين ليست أشد ضعفاً من زيادات السنن الأربعة ولهذا فالأولى أن يتقدم مسند أحمد على السنن في ذلك؟

فالجواب : إن كتب السنن قد توفر فيها المقصود من الحديث عند الفقهاء ، وهو جمعها لأحاديث الأحكام ثم تبويبها تبويباً فقهياً حيث تجمع أحاديث المسألة الواحدة في باب واحد ، وبذلك تكون أسهل تناولاً وأخذاً عند الفقيه.

بينما كتب المسانيد لم يتوفر فيها ذلك ، إذ مقصودها جمع حديث الصحابي الواحد على حدة ، سواء كانت أحاديث أحكام أو فضائل وبذلك لا تستوي مع السنن في سهولة الأخذ منها عند الفقيه. والله أعلم.

الخاتمة :

أذكر هنا أهم ما توصلت إليه في هذا البحث من فوائد ، وهي :

١ – إن العدد المذكور في هذا البحث من الكتب التي تضافرت في خدمة هذا الكتاب إنما يمثل جملة بل طرفاً من عدد كبير من الكتب التي خدمت الموطأ .

وهناك كتب خدمت شخصية الإمام مالك وأحاديثه خارج الموطأ لا تقل عن العدد الكلي المتوقع في خدمة الموطأ قد وقفت على عدد وافر منها .

فالمترجمون للإمام مالك في كتب مفردة ، والمصنفون في شيوخه ، والمصنفون فيمن روى عنه من شيوخه فحسب، والمصنفون فيمن روى عنه من شيوخه وغيرهم خارج الموطأ والمصنفون في غرائبه خارج الموطأ ، والمصنفون في وصل ما رواه منقطعاً أو مرسلاً أو بلاغاً خارج الموطأ ، والمصنفون فيما وصله الإمام خارج الموطأ لما رواه في الموطأ منقطعاً أو مرسلاً أو بلاغاً . ونحو ذلك .

فلله در هذا الإمام الهمام الفذ ، ولله در سلفنا الصالح الذين اهتموا هذا الاهتمام النادر بالسنة وحملتها الذين بلغوا فيه المثالية المنهجية المتخصصة .

٢ – إن اهتمام العلماء على مدى (١٢) قرناً في كتاب مثل الموطأ دليل على :

- اهتمامهم بالسنة عموماً وبالصحيح منها خصوصاً.
- استمرارية القيم العلمية .
- الاهتمام بالفضيلة وأهلها .

٣ – إذا كان اهتمام علماء المسلمين بكتاب واحد من كتب السنة بلغ هذا المقدار فذلك مؤشر على مدى الأهمية لكلام نبينا عليه الصلاة والسلام في قلوبهم ، ومدى حفظ الله عز وجل للإسلام .

فمنذ أن نطق النبي (بالسنة وإلى يومنا الحاضر تهتم بها القلوب وتنشغل بها العقول ، وتخط بها الأقلام ، وتتحرك الألسن ، وصاحبها عليه أفضل الصلاة والتسليم أمي لم يتعلم الكتابة ولا القراءة قط .

أفلا يعقلون ؟

٤ – لا تقوم شهرة العالم بعلمه فحسب وإنما بالفضل والقدوة الحسنة ، وعمود ذلك الإخلاص ، وذروة سنامه موافقة القول العمل .

٥ – إن شهرة العالم بالعلم والفضل لها أثر كبير في شهرة كتبه لأنه يظهر فيها علمه وفضله .

٦ – إن سلفنا الصالح قد ترك لنا إرثاً يصلح منهجاً للأمة إلى قيام الساعة .

٧ – لم يتأخر الموطأ عن الصحيحين في الرتبة أصلاً وإنما في الترتيب فحسب لأمر لا يتعلق بالحجية أصلاً فالإمام البخاري ومسلم رحمهما الله يمما أحاديث الموطأ وتوجا كتابيهما بها وبسلاسل ذهبه .

هذا والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مصنّفات سيَر الوزراء وأخبارهم

في المشرق الإسلامي خلال العصر العبّاسي

محمد بن سليمان بن صالح الراجحي

كلية العلوم العربية والاجتماعية بالقصيم – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدّمة :

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيّد الأوّلين والآخرين ، نبيّنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَن اقتفى أثره واهتدى بهديه إلى يوم الدين ، وبعد :

فقد شهد العالم الإسلامي في العصر العبّاسي تطوّراً كبيراً في شتّى ميادين العلوم ، ونمواً مطّرداً في سائر الآداب والفنون ، وكان أمراً طَبَعيّاً أن يصحب هذا التطوّر والنموّ العلمي والأدبي توسّعٌ كبيرٌ في تدوين العلوم على اختلاف أنواعها ، واهتمامٌ جليٌّ بنشرها وتعريف الناس بها .

وقد برزت معالم هذا التطوّر والنموّ في العلوم والعناية بتدوينها ، في القرن الثالث الهجري ، ثمّ بلغ الاهتمام بها أَوْجه في القرن الرابع ، وهو القرن الذهبي للتدوين العلمي والأدبي عند المسلمين . وظلّت النهضة العلمية مزدهرةً في القرون التالية ، رغم ما اعترى البلاد الإسلامية من تفكّك ، وما شابها من ضعف وانقسام وصراعات . وأضحى الاهتمام بالعلوم والآداب مظهراً عظيماً من مظاهر الرقيّ ، ووجهاً ناصعاً يحكي قصّة السموّ الحضاري الذي كانت تعيشه بلاد الإسلام في العصور الخالية .

وكان للتاريخ نصيبه الكبير من ذلك التطوّر ، فقد دُوّنت على امتداد العصور آلاف المصنّفات التاريخية ، في مختلف البلدان الإسلامية . وكانت بلاد المشرق الإسلامي من أكثر المناطق نشاطاً في هذا الميدان ، فظهر فيها الجمّ الغفير من المؤرّخين ، وصار كلّ قرن يُنافس ما قبله أو يفوقه في أعدادهم وفي كثرة آثارهم التاريخية ، تلك الآثار العظيمة التي تُبرز الهمم العالية ، والنشاط الكبير عند أولئك المؤرّخين .

وقد تعدّدتْ اهتمامات المؤرّخين المسلمين واختلفتْ طرائقهم في التدوين التاريخي ، فدوّن بعضهم في السيرة النبويّة وتواريخ العصور والدول الإسلامية ، وعُنيتْ شريحةٌ منهم برصد الظواهر الحضارية ، واهتمّت فئةٌ أخرى بالتراجم والسِّيَر .. وقد شكّل الاهتمام بهذا الجانب الأخير ظاهرةً مهمّةً في ميدان التدوين التاريخي عند المسلمين ..

ومن خلال استعراض آثار المؤرّخين المسلمين في العصور الخالية ، يتّضح أنّ هناك تنوّعاً كبيراً في فنون التراجم والسِّيَر ، وتوسّعاً كبيراً في تدوينها والعناية بها ، ممّا يُبْرز تطوّر الفكْر التاريخي في البلاد الإسلامية ، فقد صنّف المؤرّخون كُتباً كثيرة ، خصّصوها لتراجم الأعلام والمشاهير ، من الصحابة والتابعين والخلفاء والولاة والقضاة والعلماء والأدباء والشعراء وغيرهم .

وكان للوزراء المسلمين في مختلَف العهود حظٌّ وافرٌ من اهتمامات المؤرّخين وعنايتهم ، ولا سيّما في بلاد المشرق الإسلامي ، فلم يكتف المؤرّخون بما دُوّن من

معلومات عن أولئك الوزراء في مصادر التاريخ العامّة ، بل إنّهم أفردوا مصنّفات مستقلّة جمعوا فيها أخبارهم وسطّروا فيها سِيَرهم وتراجمهم ، وقد بلغت هذه المصنّفات في العصر العبّاسي بضعةً وعشرين كتاباً ، تضمّنَ بعضُها سِيَر جمْع من الوزراء ، واقتصرت فئةٌ منها على أخبار عدد محدّد منهم ، بينما اختصّ نمطٌ ثالثٌ منها بسيرة وزير واحدٍ فقط من أعلام الوزراء ومشاهيرهم .

وقد طَفِقَ هذا النّمط من المصنّفات يظهر بين آثار العلماء في العصر العبّاسي ابتداءً من فترة النصف الأوّل من القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي - على وجه التّقريب ، ثمّ انتشر بين المؤرّخين في القرن الرابع على نحو كبير ، وظلّ يحظى باهتمامهم على امتداد العصور .

وهذا البحث يختصّ بدراسة «مصنّفات سِيَر الوزراء وأخبارهم في المشرق الإسلامي خلال العصر العبّاسي» ، وقد قسمته إلى أربعة محاور رئيسة ، خصّصتُ أوّلها للحديث عن المصنّفات الباقية ، التي نجتْ كلّها أو أقسام منها من الضياع .. ثمّ عرّفتُ بالمصنّفات المفقودة ، وذلك حسب ما ورد عنها من معلومات متناثرة وشذرات متفرّقة في مختلف المصادر التاريخية .. ومن ثمّ تحدّثْتُ عن اقتباسات المؤرّخين من مصنّفات سِيَر الوزراء وأخبارهم .. وأخيراً تناولتُ الأهمّية التاريخية لتلك المصنّفات ، وإبراز ما تحويه من مادّة علمية ، يمكن أن تُسهم في إضاءة جوانب عديدة ليس في تاريخ بلاد المشرق فحسب ، بل وفي التاريخ الإسلامي بصفة عامّة .

وفي الخاتمة استعرضتُ أهمّ النتائج التي خرجتُ بها خلال دراستي لهذا الموضوع .

المصنّفات الباقية في سِيَر الوزراء وأخبارهم:

«الوزراء والكُتّاب» ، للجهشياري :

لعلّ أشهر كتابٍ صُنّف في سِيَر الوزراء وأخبارهم في المشرق الإسلامي ، هو كتاب «الوزراء والكُتّاب» ، لـ " أبي عبد الله محمد بن عبدوس الكوفي الجهشياري " ، وهو مؤرّخٌ وأديبٌ فاضلٌ ، من رجالات الدولة العبّاسيّة في أيّام الخليفة " المقتدر بالله " (٢٩٥ - ٣٢٠هـ/ ٩٠٨ - ٩٣٢م)، نشأ في الكوفة ، ثمّ انتقل إلى بغداد ، وعمل حاجباً لـ "علي بن عيسى بن داود بن الجرّاح "[١] ، وزير الخليفة "المقتدر"[٢] ، وعاش في زمن كان يسوده الاضطرابات والصراعات في البلاط العبّاسي ، فكان لتلك الاضطرابات انعكاساتها القاسية عليه ، حيث ضُيّق عليه في بعض السنوات ، وصودرتْ أملاكه[٣] . وتوفّي في مدينة بغداد سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٣م[٤] .

ويشتمل كتابه «الوزراء والكُتّاب» على أخبار الوزراء حتّى عهد الخليفة العبّاسي "المكتفي بالله" (٢٨٩ - ٢٩٥هـ/ ٩٠٢ - ٩٠٨م) ، وأيّام وزيره "العبّاس بن الحسن الجرجرائي"[٥] ، المتوفّى سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م[٦] ، ولكنّ قسماً من هذا الكتاب مفقود ، والقسم الباقي منه يشمل الفترة الممتدّة إلى سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٧م فقط ، أي حتّى أوائل عهد الخليفة "المأمون"[٧] ، وأيّام وزيره " الفضل بن سهل"[٨] .

ويورد " الجهشياري " في مستهلّ كتابه معلوماتٍ عن بعض النظم الإدارية التي كانت معروفةً عند الفرس في العهود القديمة ، ثمّ يتحدّث عن كُتّاب النبي صلى الله عليه وسلّم ، وكُتّاب الخلفاء الراشدين وبعض أخبارهم ، ومن ثمّ يتناول كُتّاب خلفاء بني أميّة وطَرَفاً من أيّامهم ، وهذه المعلومات تُشكّل ما يربو قليلاً على ثُلث الكتاب[٩] .

وتتضمّن الصفحات التالية منه ، والتي تناهز ثُلثي الكتاب أخبار وزراء بني العبّاس وكُتّابهم ، وذلك حسب عهود الخلفاء ، ابتداءً من عهد الخليفة "أبي العبّاس السفّاح" ، ومروراً بعهود "المنصور" ، و "المهدي" ، و"الهادي" ، و "الرشيد" ، و "الأمين" ، وحتّى مستهلّ عهد الخليفة "المأمون"[١٠] . وفي خضمّ الحديث عن الوزراء

يستطرد "الجهشياري" فيتناول شيئاً من أخبار الخلفاء وتواريخهم وأيّامهم .. ويحتلّ الحديث عن "البرامكة" وأيّام الخليفة "الرشيد" ، أوسع أقسام الكتاب ، حيث يُشكّل نسبة الثلث منه تقريباً[١١] .

ومع أنّ قسماً لا يُستهان به من كتاب «الوزراء والكُتّاب» قد ضاع منذ زمن بعيد ، إلاّ أنّه يمكن التعرّف إلى طرفٍ من المعلومات التي تضمّنها ، وذلك من خلال الشذرات المتناثرة والروايات المتفرّقة الواردة عنه في ثنايا بعض المصادر التاريخية .. وممّا لا ريب فيه أنّ تلك المعلومات تكتسب أهميّةً كبيرةً ، لأنّها تُعدّ إضافةً قيّمة لما يتضمّنه القسم الباقي من الكتاب من مادّة تاريخية ، ولأنّ بعضها يشتمل على ذِكْر أعلام وحوادث تاريخية عاصرها "الجهشياري " نفسه ، أو رواها عن معاصرين لها .

ومن خلال تلك الشذرات والمعلومات الواردة في بعض المصادر يتّضح أنّ القسم المفقود من كتاب " الجهشياري " يحتوي على أخبار العديد من الوزراء العبّاسيّين الذين عاشوا في القرن الثالث الهجري ، مثل : "الفضل بن مروان"[١٢] ، وزير الخليفة "المعتصم بالله" ، و"عُبيد الله بن يحيى بن خاقان"[١٣] ، وزير الخليفتين "المتوكّل على الله" و"المعتمد على الله" ، و "أبي القاسم عُبيد الله بن سليمان ابن وهب "[١٤] ، وزير الخليفتين " المعتمد على الله" و"المعتضد بالله" ، و "أبي أيّوب سليمان بن وهب "[١٥] ، الذي تولّى الوزارة في أيّام الخليفتين " المهتدي بالله" ، و"المعتمد على الله"[١٦] .

وقد حظيَ كتاب «الوزراء والكُتّاب» للجهشياري ، بشهرة واسعة في الأوساط العلمية ، في مختلف العصور ، فذكره المؤرّخون والأدباء في مؤلّفاتهم ، ونهلوا ممّا فيه ، وسمّاه بعضهم بأسماء مختلفة ، مثل «أخبار الوزراء»[١٧] ، و «كتاب الوزراء»[١٨] ، و «تاريخ الوزراء»[١٩] ، ونحوها ، ونظراً لما تميّز به من أهميّة علمية وقيمة تاريخية ، فقد ذيّل عليه "أبو الحسن هلال بن المحسّن الصابئ" ، المتوفّى سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م ، في كتابه «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» ، حيث أشار في مقدّمته إلى أنّ "الجهشياري" جمع أخبار الوزراء حتّى أيّام الوزير "العبّاس بن الحسن" ، وأنّه ابتدأ مصنّفه بذكر الوزير "أبي الحسن علي بن محمد ابن الفرات"[٢٠] ، لأنّه تولّى الوزارة بعد "العبّاس" مباشرة[٢١] .

«أخلاق الوزيرَين» ، لأبي حيّان التوحيدي :

ومن المصنّفات التي دُوّنت في سِيَر بعض الوزراء وأخبارهم في المشرق الإسلامي ، كتاب «أخلاق الوزيرين» ، لـ "أبي حيّان علي بن محمد بن العبّاس التوحيدي" ، وهو أديبٌ مؤرِّخٌ من علماء القرن الرابع الهجري ، ذكر بعض المؤرّخين أنّه شيرازيّ الأصل ، وقيل نيسابوريّ ، وأنّه قدم "بغداد" ، وأقام بها فترةً من الزمن ، ثمّ مضى إلى "الريّ" ، وصحب الوزير "الصاحب بن عبّاد" فيها . وكان متبحّراً في كثير من العلوم ، كالفقه والنحو واللغة والأدب ، وله باعٌ طويلٌ في الفلسفة ، كما كان متميّزاً بالذكاء والفطنة والفصاحة ، واسع الدراية والرواية ، إلاّ أنّه كان مع ذلك سليط اللسان ، قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان ، ميّالاً إلى ذمّ الناس واستنقاصهم والحطّ من قدرهم ، يتشكّى صرْف زمانه ، ويبكي في مصنّفاته على حرمانه[٢٢] . ويُقال إنّه أحرق مؤلّفاته في آخر عمره «لقلّة جدواها ، وضنّاً بها على مَن لا يعرف قدرها»[٢٣] . وكانت وفاته في حدود سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م[٢٤] .

وقد دوّن " أبو حيّان " في كتابه «أخلاق الوزيرين» مثالب اثنين من مشاهير وزراء عصره ، هما : " أبو الفضل محمد بن الحسين " ، المعروف بـ «ابن العميد»[٢٥] ، و "الصاحب بن عبّاد " ، ولذا يُطلق على كتابه أيضاً اسم «مثالب الوزيرَين»[٢٦] !

ومع أنّ هذا الكتاب نُشر باسْم «أخلاق الوزيرين» ،

إلاّ أنّ مـا تضـمّنه من نقـد لاذع للوزيرين المذكورين في معظم صفحاته ، يجعل عنوانه الآخر أكثر دقّةً وانسجاماً مع مضمونه ، فقد أسرف "أبو حيّان" في سبّهما ، وبالغ في الحطّ من قدرهما ، ولم يترك عيباً أو نقيصةً إلاّ ألصقها بهما .

قدّم " أبو حيّان " لكتابه بمقدّمة طويلة ذات طابع فلسفي وأسلوب بديع ، وليس هذا بغريب ، فهو – كما يصفـه بعض المؤرّخين – «فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة»[٢٧] ، وضمّنها حديثاً مفصّلاً برّر فيه ما انتهجه في كتابه من منهج حادّ في نقده للوزيرين والكشف عن مثالبهما[٢٨] .

ثمّ شرع في الحديث عن الوزيرين مؤكّداً أنّه لم يذكر فيهما ما لا شاهد له فيه ولا برهان عنده ، وإنّما يقول عنهما ما عُرفا به بين أهل عصرهما ، وما اشتهرا به من الصفات والأخلاق ، وأنّ غايته أن يقول ما أحاط به خبراً وحفظه سماعاً[٢٩] .

وقد أبان "أبو حيّان" عن سبب موقفه من الوزيرين، ودوافع غضبه منهما وسخطه عليهما .. فأمّا الوزير "الصاحب بن عبّاد " فذكر أنّه قصد بلاطه ، وفارق من أجله وطنه وأحبابه ، راجياً إحسانه وتقديره بما يراه أهلاً له ، وتضرّع إليه وتملّقه ، وظلّ يخدمه ويتقرّب إليه شهوراً عدّة، وقد دفعه إلى ذلك ما كان يعيشه من إملاق وقلّة ذات اليد ، فقد كان حينها في حال ضيّقة وفقر وشدّة ، ولكنّ "الصاحب بن عبّاد" خيّب آماله ، ولم يحفل بقدومه ، ولم يُعطه شيئاً ممّا كان يصبو إليه ، وعاد "أبو حيّان" من عنده – كما يقول – بخفّي حُنين ، فصبّ جام غضبه عليه ، وأطلق العنان لنفسه في تتبّع عيوبه، واستقصاء مثالبه[٣٠]، فوَصَفَه بالغرور والبخل والحسد ، وشدّة السفه، والتناقض العجيب ، وضعف العقل ، وقلّة الدين[٣١] .

ومع أنّ "أبا حيّان" بالغ في ذمّ الوزير "ابن عبّاد" وأسرف في الحطّ من قدره ، إلاّ أنّه – مع ذلك – لم يُنكر ما كان يتّصف به من بلاغة وفصاحة في القول ، وقد ساق مقتطفات كثيرة من كلامه ، في مجالسه وملتقياته مع العلماء والأدباء والشعراء ، ولكنّه كان يحرص على أن يستنتج من فحوى كلامه ما يُدلّل به – كما يقول – على «ضعف حوله وركاكة عقله وانحلال عقده»[٣٢] ! .

ولكي يُقنع " أبو حيّان " مَن يقرأ كتابَه بصحّة ما يسوقه من رواياتٍ في مثالب الوزير " ابن عبّاد " فقد راح يستشهد بأقوال بعض معاصريه ممّن عرفوه عن كثب والتقوه وجالسوه ، ولم تكن أقوالهم تأتي عفويّةً في معظم الأحيان ، بل كانت مبنيّةً في الغالب على طلب واستفسار من "أبي حيّان" نفسه ، فقد كان يتعمّد سؤالهم عمّا يرونه في "ابن عبّاد "[٣٣] . وتدلّ أقوال أولئك المعاصرين وآراؤهم في الوزير "ابن عبّاد" على أنّهم كانوا يُشاطرون "أبا حيّان" نظرته القاسية والبعيدة عن الإنصاف له . ولعلّ "أبا حيّان" كان يُدرك ذلك ؛ ولذا حرص على أن يستنطق أشخاصاً بعينهم دون غيرهم ، ليجد في جوابهم ما يوافق هوىً في نفسه ، ويسمع من آرائهم ما يشفي غليله .

وأمّا الوزير "أبو الفضل بن العميد" فقد حنق عليه "أبو حيّان" لمواقف عدّة شهدها في بلاطه ، منها أنّه لم يحفل بشاعر لَزِمَ فِناءه وتردّد إلى مجلسه وبالغ في مديحه والثناء عليه ، بل ردّه خائباً ، ومنها أنّه ردّ سائلاً بائساً غريباً حضر مجلسه في رمضان ، والتمس أن يُطعمه ويُؤويه[٣٤] .

وكما وصفَ " أبو حيّان " الوزيرَ "الصاحبَ بن عبّاد" بصفاتٍ مشينة ، فقد وصف الوزير " ابنَ العميد " أيضاً بصفاتٍ لا تقلّ سوءاً ، فنعته بالسَّفَه والجهل والجبن وسوء السيرة وقلّة الرحمة وشدّة القسوة والحسد والكِبْر وسوء الأدب والبخل ، وكان يستشهد بأقوال ومواقف عديدة تبرهن على اتّصافه بهذه الصفات .

والحقّ أنّ "أبا حيّان التوحيدي" قد بالغ في التحامل على الوزيرين كليهما ، وتجاوز الحدّ في استنقاص شأنهما، فلم تكن أخلاقهما وسيرتهما بتلك الصفة العجيبة التي وصفهما بها ، ولم يتّفق معظم المؤرّخين مع " أبي حيّان " فيما ذهب إليه من القدح فيهما والنّيل منهما ، بل إنّهم أنصفوهما فذكروا ما لهما من فضائل ، وما اشتهرا به من مناقب(٣٥) ..

ومن أبرز المؤرّخين الذين انبروا للدّفاع عن الوزيرَين "ابن العميد" و "ابن عبّاد" ، العلاّمة "ابن خلّكان" الذي انتقد "أبا حيّان" في تحامله عليهما ومبالغته في الحطّ من قدرهما ، فقال : «وكان أبو حيّان علي بن محمد التوحيدي البغدادي قد وضع كتاباً سمّاه مثالب الوزيرين، ضمّنه معايب أبي الفضل بن العميد والصاحب بن عبّاد ، وتحامل عليهما وعدّد نقائصهما ، وسلب ما اشتهر عنهما من الفضائل والإفضال ، وبالغ في التعصّب عليهما ، وما أنصفهما»(٣٦) .

ولم يقتصر "أبو حيّان" في كتابه على الحديث عن الوزيرين المذكورَين فقط ، بل إنّه تحدّث أيضاً عن وزير ثالث من وزراء عصره ، وهو "أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين بن العميد"، المعروف بلقب "ذي الكفايتين" ، وهو ابن الوزير "أبي الفضل بن العميد"، والذي تولّى الوزارة لبعض ملوك "بني بويه" في الفترة مابين عامَي (٣٦٠ - ٣٦٦هـ/ ٩٧١ - ٩٧٧م)(٣٧) .

وقد جاء حديثه عن هذا الوزير مختلفاً إلى حدٍّ ما ، فوصفه في البداية بالذكاء وكثرة المحاسن وحُسْن الشِّعر ، وساق بعضاً من أشعاره وأقواله ، وذكر أنّه دخل " بغداد " فعقد فيها مجالس متعدّدة للفقهاء والأدباء والمتكلّمين والمتفلسفين ، وفرّق بين الناس أموالاً كثيرة (٣٨) . ولكنّه ما لبث أن طَفِقَ في ذكْر مثالبه هو الآخر(٣٩) ، وإن لم يكن بالحدّة نفسها التي ذكر فيها مثالب أبيه " أبي الفضل بن العميد"، و "الصاحب بن عبّاد" .

«تحفة الوزراء» ، للثعالبي :

ومن المصنَّفات الباقية المتعلّقة بسِيَر الوزراء وأخبارهم في العصر العبّاسي ، كتاب «تحفة الوزراء» ، لـ "أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري"(٤٠) ، صاحب كتاب «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر» ، وهو أديبٌ علاّمةٌ مؤرّخ ، عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري والثلث الأوّل من القرن الخامس ، واشتهر بلقب «الثعالبي» لأنّه كان فرّاءً يخيط جلود الثعالب(٤١) . وكان ذا منزلة عالية عند أهل الأدب قديماً وحديثاً، فقد امتدحه معاصره "أبو الحسن الباخرزي" وساق طَرَفاً من أشعاره(٤٢) ، كما أثنى عليه "أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني" في القسم الأخير من كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» ، والذي ترجم فيه لبعض أدباء المشرق ، وأورد بعضاً من أقواله وبديع كلامه(٤٣) . وقد توفي في سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م(٤٤) .

وكتابه «تحفة الوزراء» كتابٌ مختصرٌ ، يختلف عن كثير من المصنّفات الأخرى ، وهو ليس مختصّاً بسِيَر الوزراء وأخبارهم بشكل مباشر ، ولكنّه - مع ذلك - يشتمل على بعض المعلومات التاريخية المتعلّقة بعشرات الوزراء الذين اشتهروا في القرون الثلاثة الأولى من العصر العبّاسي .

وقد تحدّث "الثعالبي" في كتابه عن أصل الوزارة واشتقاقها وفضائلها ومنافعها وآدابها وحقوقها ولوازمها وأقسامها ورسومها ، ثمّ ذكر العديد من الوزراء الأكفاء ، وفي خضمّ حديثه عن الوزارة ونُظُمها وشؤونها أشار أيضاً إلى بعض مشاهير الوزراء العبّاسيّين وأعلامهم ، مثل أبناء أسرة "البرامكة" ، و "الفضل بن سهل" و"الحسن ابن سهل"(٤٥) و "علي بن عيسى بن داود بن الجرّاح " ،

وساق أيضاً معلومات عن بعض وزراء الدولة البويهية(٤٦) ، كما عقد فصلاً في كتابه أورد فيه نُبَذاً من لطائف الوزراء ومحاسن ألفاظهم وبديع أقوالهم(٤٧) .

ومع هذا تظلّ المعلومات الواردة في كتاب «تحفة الوزراء» مقتضبة ، لا تُقارَن بما ورد في المصادر الأخرى الخاصّة بسيَر الوزراء وأخبارهم ؛ ولذا لا نجد لهذا الكتاب أصداء تُذكر عند المؤرّخين .

«تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» ، للصابئ :

ومن المصنّفات التي نجت بعض أجزائها من الضياع، كتاب «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» ، لـ " أبي الحسن هلال بن المحسّن بن إبراهيم بن هلال الصابئ " ، وهو أديبٌ مؤرّخٌ له معرفةٌ باللغة ، عاش في " بغداد " في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري والنصف الأوّل من القرن الخامس ، وكان في أوّل أمره على دين الصابئة، ثمّ اعتنق الإسلام ، وحَسُن إسلامه ، وكان ثقةً صدوقاً . توفّي ليلة السابع عشر من رمضان سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م(٤٨) .

وكتابه «تحفة الأمراء» هو ذيلٌ على كتاب «الوزراء والكُتّاب» ، للجهشياري ، كما سبق ذكْره .. ويتضمّن القسم المعروف منه أخباراً مفصّلةً ومعلومات واسعة عن ثلاثة من وزراء الدولة العبّاسيّة في أيّام الخليفة "المقتدر بالله" ، وهم : "أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات" ، الذي تولّى الوزارة " ثلاث مرّات ، و "أبو علي محمد بن عُبيد الله بن خاقان"(٤٩) ، و "علي بن عيسى بن داود بن الجرّاح " .

وكان " أبو الحسن بن الفرات " أكثر هؤلاء الوزراء حظّاً ، فقد أفرد " الصابئ " صفحات طوالاً للحديث عنه وعن أيّام وزارته ، شكّلت جُلّ مادّة كتابه ، وابتدأها بنبذة عن مولده وأسرته ، وعن بعض الجوانب المتعلّقة بأوضاع الوزارة في الدولة العبّاسيّة قُبيل توليته ، ثمّ تحدّث عن وزارته الأولى ، والتي تبدأ في ربيع الثاني سنة ٢٩٦هـ ، وتنتهي في ذي الحجّة سنة ٢٩٩هـ ، وأتبع ذلك بذكْر وزارته الثانية ، والتي كانت بين ذي الحجّة سنة ٣٠٤هـ ، وجمادى الأولى سنة ٣٠٦هـ ، ثمّ ذكر وزارته الثالثة والتي تقع بين شهرَي ربيع الثاني من عام ٣١١هـ ، وربيع الأوّل من عام ٣١٢هـ . ومن ثمّ أطنب في الحديث عن كثير من القضايا والحوادث التي جرت إبّان وزاراته الثلاث ، وعن علاقاته بالخليفة " المقتدر بالله " ورجال البلاط العبّاسي في تلك العهود(٥٠) .

وفي صفحات يسيرة لا تتعدّى بضع عشرة صفحة تحدّث " الصابئ " عن الوزير " محمد بن عبيد الله بن خاقان " ، الذي ولي الوزارة في خلافة " المقتدر بالله " في الفترة بين شهرَي ذي الحجّة من سنة ٢٩٩هـ ، ومحرّم من عام ٣٠١هـ ، ولعلّه لم يُسهب في الحديث عن أيّام وزارته كما أسهب في الحديث عن الوزير "ابن الفرات" لأنّ هذا الأخير وليَ الوزارة ثلاث مرّات ، بينما لم يتولّاها " ابن خاقان " إلاّ مرّةً واحدةً فقط(٥١) .

وخصّص " الصابئ " قسماً آخر من كتابه لذكْر وزارة " أبي الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجرّاح " ، الذي ولاّه الخليفة "المقتدر بالله" وزارته مرّتين ، كانت أولاهما بين مستهلّ سنة ٣٠١هـ وأواخر سنة ٣٠٤هـ ، وكانت الأخرى بين أواخر عام ٣١٤هـ وأوائل عام ٣١٦هـ ، وجاء حديثه عن الوزير "ابن الجرّاح" مفصّلاً نسبيّاً ، وإن كان أقلّ بكثير من حديثه عن الوزير الأوّل "أبي الحسن بن الفرات"(٥٢) .

ويتخلّل الحديث عن هؤلاء الوزراء الثلاثة معلومات متناثرة وشذرات متفرّقة عن الكثير من رجال ذلك العصر وأعلامه ، من خلفاء ووزراء وقوّاد وعلماء وأدباء وغيرهم .

ويُستشفّ ممّا نقلته بعض المصادر التاريخية من القسم المفقود من كتاب «تحفة الأمراء ..» أنّه يشتمل –

فضلاً عن سيَر الوزراء الثلاثة السابقين – على أخبار العديد من الوزراء الذين عاشوا في العصر العبّاسي ، ولا سيّما في القرن الرابع الهجري ، مثل "أبي القاسم الكلواذاني "[٥٣] ، و"الحسن بن محمد المهلّبي"[٥٤] ، و "أبي الفضل بن العميد" ، و "الصاحب بن عبّاد"[٥٥] وغيرهم .

ويبدو أنّ كتاب «تحفة الأمراء» للصابئ قد حظيَ بإعجاب المؤرّخين ، حتّى إنّ بعضهم ذيّل عليه في العصور التالية ، ففي الربع الأوّل من القرن السادس الهجري ، أي بعد مرور ما يُناهز السبعين عاماً على تصنيفه ، ذيّل عليه المؤرّخ " أبو الحسن محمد بن عبد الملك الهمذاني " ، المتوفّى سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م ، في كتابه «أخبار الوزراء» ، وهو من الكتب المفقودة[٥٦] .

المصنّفات المفقودة في سيَر الوزراء وأخبارهم:

إذا كانت المصنّفات الباقية التي دوّنها المؤرّخون في سيَر الوزراء وأخبارهم في منطقة المشرق الإسلامي ، خلال العصر العبّاسي ، لا تزيد عن أربعة كتب ، فإنّ المصنّفات المفقودة تبلغ أضعاف هذا العدد ، ففي ثنايا كتب التراث – على اختلاف فنونها – نقف على أسماء الكثير من المصنّفات التي تناولت سيَر الوزراء واشتملت على أخبارهم ، ولكنّ هذه المصنّفات عصفت بها الأيّام ، ولا يُعرف عنها إلاّ ما ذكره بعض المؤرّخين الذين اطّلعوا عليها في العصور الخالية ، وخَبروها عن كثب ، وأشاروا إليها أو أفادوا منها في مؤلّفاتهم .

ويُمكن تقسيم هذه المصنّفات – على ضوء ما ورد عنها من معلومات في مختلف المصادر – إلى أنماط ثلاثة :

(أ) المصنّفات العامّة ، التي تتناول سيَر جمع من الوزراء وأخبارهم .

(ب) المصنّفات الخاصّة بأخبار الوزراء «البرامكة» .

(جـ) السيَر المفردة ، التي تقتصر على وزير واحد فحسْب من مشاهير الوزراء .

(أ) المصنّفات العامّة :

«الوزراء» ، لابن الجرّاح :

يُعدّ كتاب «الوزراء» لـ "أبي عبد الله محمد بن داود ابن الجرّاح" ، من أقدم الكتب التي ألّفها المؤرّخون في سيَر الوزراء وأخبارهم .. فقد صُنّف في فترة النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وهي الفترة التي عاش فيها "ابن الجرّاح" معظم حياته ، حيث كان مولده في سنة ٢٤٣هـ ، ووفاته في سنة ٢٩٦هـ[٥٧] .

و "ابن الجرّاح" أديبٌ مؤرّخٌ ، من علماء بغداد ، ترجم له "الخطيب البغدادي" ، فذكر أنّه كان عالماً فاضلاً عارفاً بأيّام الناس وأخبار الخلفاء والوزراء ، وله في ذلك مصنّفاتٌ معروفة ، وكان – كما يقول – أوحد أهل عصره في العلم بالأخبار[٥٨] . وذكر له "ابن إسحاق النديم" و"ابن شاكر الكُتبي" – فضلاً عن كتابه «الوزراء» – عدداً من المؤلّفات ، ولا سيّما في أخبار الشعراء ، منها كتاب «الورقة» ، وكتاب «الشعر والشعراء»[٥٩] .

ومع أنّ كتاب «الوزراء» ، لابن الجرّاح ، يُعدّ من الكتب المفقودة[٦٠] ، إلاّ أنّه كان معروفاً بين الكثير من المؤرّخين في مختلَف العصور ، وقد أشار إليه العديد منهم في مصنّفاتهم ، ومنهم "الجهشياري" في كتابه «الوزراء والكُتّاب»[٦١] ، و "المسعودي" في كتابه «التنبيه والإشراف» ، وسمّاه «أخبار الوزراء»[٦٢] ، و"التنوخي" في مصنّفه «الفرَج بعد الشدّة»[٦٣] ، و"ابن إسحاق النديم" في كتابه «الفهرست»[٦٤] ، و "ابن خلّكان" في كتابه «وفيات الأعيان»[٦٥] ، و"ابن أيبك الصفدي" في مصنّفه «الوافي بالوفيات»[٦٦] ، و"ابن شاكر الكُتبي" في كتابه «فوات الوفيات»[٧٦] .

ويُستشفّ ممّا أوردتْه بعض المصادر التاريخية من معلومات عن كتاب "ابن الجرّاح" ، أنّه يتضمّن أخبار العديد من الوزراء العبّاسيّين الذين عاشوا في عهود مختلفة ، فهو

يحتوي على روايات تتحدّث عن بعض الوزراء الذين ولاّهم الخليفة العبّاسي "موسى الهادي" في أيّام خلافته القصيرة، والواقعة بين عامَي (١٦٩ – ١٧٠هـ/ ٧٨٥ – ٧٨٦م)[٦٨]، وعن "البرامكة" وعلاقتهم بالخليفة "هارون الرشيد"[٦٩]، كما يشتمل على معلومات عن الوزير العبّاسي "سليمان بن وهب بن سعيد"[٧٠]، الذي تولّى الوزارة في أيّام الخليفتين "المهتدي بالله"، و"المعتمد على الله".

«الزيادة في أخبار الوزراء»، لأبي العبّاس الثقفي:

ومن أوائل المصنّفات التي دُوّنت في سيَر الوزراء وأخبارهم في منطقة المشرق الإسلامي، كتاب «الزيادة في أخبار الوزراء»، لـ "أبي العبّاس أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عمّار الثقفي"، وهو مؤرّخٌ وأديبٌ كوفي الأصل، عاش في "بغداد"، وتوفي في شهر ربيع الأوّل سنة ٣١٤هـ/ ٩٢٦م[٧١].

ومع أنّ "أبا العبّاس الثقفي" كان رجلاً مغموراً، إلاّ أنّ كتابه «الزيادة في أخبار الوزراء»، كان معروفاً في الأوساط العلمية في مختلف العصور، فقد أشار إليه عددٌ من أعلام المؤرّخين في مؤلّفاتهم، ومنهم: "أبو الحسن المسعودي"، في كتابه «التنبيه والإشراف»[٧٢]، و"ابن إسحاق النديم" في كتابه «الفهرست»[٧٣]، وذكره باسْم «الزيادات في أخبار الوزراء»، و"ياقوت الحموي" في كتابه «معجم الأدباء»[٧٤]، و"ابن أيبك الصفدي" في كتابه «الوافي بالوفيات»[٧٥]، و"ابن حجر العسقلاني" في كتابه «لسان الميزان»[٧٦].

وتُشير بعض الروايات إلى أنّ هذا الكتاب هو ذيلٌ على كتاب «الوزراء»، لمحمد بن داود بن الجرّاح[٧٧]، المتوفّى في سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م، ولذا عُرف باسْم «الزيادة في أخبار الوزراء». وإنْ كان "المسعودي"[٧٨] يلْمح إلى أنّ هذا الكتاب لم يكن فقط ذيلاً على كتاب «الوزراء»، لابن الجرّاح، بل كان شرحاً له أيضاً.

وحيث إنّ الفارق الزمني بين تاريخ وفاة "محمد بن داود بن الجرّاح" (٢٩٦هـ)، وتاريخ وفاة "أبي العبّاس الثقفي" (٣١٤هـ) محدود، بحيث لا يتجاوز ثمانية عشر عاماً، فإنّه يمكن القول بأنّ كتاب «الزيادة في أخبار الوزراء» لا يتضمّن سوى أخبار عدد يسير من الوزراء، ولعلّ معظمهم – إن لم يكن جميعهم – ممّن كانوا في أيّام الخليفة "المقتدر بالله" (٢٩٥ – ٣٢٠هـ).

«أخبار الوزراء»، للواسطي:

ومن الآثار المفقودة في سيَر الوزراء وأخبارهم، كتاب «أخبار الوزراء»، لـ "إبراهيم بن موسى الواسطي"، وهو مؤرّخٌ مغمورٌ، ذكره "المسعودي" في كتابه «مروج الذهب»[٧٩]، كما ترجم له "ياقوت الحموي" في «معجم الأدباء»[٨٠] ترجمةً مقتضبةً، اعتمد فيها على ما ذكره "المسعودي". وعدا ذلك لا نقف له على ذِكْر أو ترجمة في المصادر التاريخية وكتب التراجم المعروفة، ولذا يصعب معرفة الفترة التي عاش فيها، أو تاريخ وفاته على وجه التحديد، غير أنّه من المرجّح أن يكون عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري والنصف الأوّل من القرن الرابع، سيّما وأنّ "المسعودي" – المتوفّى سنة ٣٤٥هـ، أو ٣٤٦هـ – ذكره في مصنَّفه «مروج الذهب»، كما أشرنا آنفاً.

وقد وَهَمَ "حاجي خليفة" بقوله إنّ "الواسطي" توفّي سنة ٦٩٢هـ[٨١]، وتابعه في ذلك "البغدادي"[٨٢]، إذْ لو كانت وفاته في تلك السنة المتأخّرة – نسبيّاً – لما ذكره "المسعودي"، الذي عاش في النصف الأوّل من القرن الرابع الهجري، ولا "ياقوت الحموي"، المتوفّى سنة ٦٢٦هـ.

وقد أشار إلى كتابه «أخبار الوزراء» – فضلاً عن "المسعودي"، و"ياقوت" – بعض المؤرّخين الآخرين، ومنهم "ابن أيبك الصفدي" في كتابه «الوافي

بالوفيات»[٨٣]، و" السخاوي " في كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ»[٨٤] ، ومن المتأخّرين " حاجي خليفة " في كتابه «كشف الظنون»[٨٥] ، و" البغدادي " في كتابه «هديّة العارفين»[٨٦] .

ولا تُسعفنا المصادر التاريخية بمعلوماتٍ تهدي إلى معرفة الزمن الذي صنّف فيها " الواسطي " كتابه ، وحيث إنّ " المسعودي " – الذي عاش أكثر حياته في فترة النصف الأوّل من القرن الرابع الهجري – قد ذكره في كتابه «مروج الذهب» ، فمن المرجّح أن يكون قد صنّف في تلك الفترة ، أو في السنوات الأخيرة من القرن الثالث الهجري .

ويصعب التعرّف إلى مضامين كتاب "الواسطي" في أخبار الوزراء ، سيّما وأنّ المؤرّخين لم يقتبسوا شيئاً من المعلومات والروايات الواردة فيه ، بل إنّ المؤرّخين الذين أشاروا إليه كـ "المسعودي" و "ياقوت" و "الصفدي" و"السخاوي" لم يفيدوا منه شيئاً . غير أنّ عنوان الكتاب يوحي – بجلاء – بأنّه يشتمل على أخبار جمْع من الوزراء .. ولعلّ ما ذكره "المسعودي" من أنّ "الواسطي" عارَضَ في كتابه كتابَ "محمد بن داود بن الجرّاح" في سيَر «الوزراء»[٨٧] ، والذي ذكرناه آنفاً ، يؤكّد ذلك ، فهو يعني أنّه سار على نهجه وحاول محاكاته في محتواه ، وكتاب "ابن الجرّاح" يشتمل – كما ذكرنا – على سيَر العديد من الوزراء وأخبارهم .

«الوزراء» ، لنِفْطَويه :

وفي فترة الربع الأوّل من القرن الرابع الهجري صنّف العلاّمة "أبو عبد الله إبراهيم بن محمد العتكي الأزدي" – المعروف بلقب «نِفْطَوَيْه» – كتاباً في سيَر الوزراء وأخبارهم ، أطلق عليه اسم «الوزراء»[٨٨] .. و«نِفْطَوَيْه» أديبٌ لغويٌ عالمٌ بالحديث والفقه والتاريخ ، وُلد في مدينة "واسط" ، وعاش في "بغداد"[٨٩] ، وحدّث بها عن عدد من العلماء ، وروى عنه جماعة منهم[٩٠] ، وكانت له مكانةٌ عند العلماء والأدباء والمؤرّخين ، فقد وصفه "ياقوت الحموي" بـ «طهارة الأخلاق ، وحُسْن المجالسة ، والصدق فيما يرويه» ، وذكر أنّه كان «ثقةً صدوقاً .... حسن المجالسة للخلفاء والوزراء ، متقن الحفظ للسيرة ، وأيّام الناس ، وتواريخ الزمان ، ووفاة العلماء ، وكانت له مروءةٌ وفتوّةٌ وظُرْف»[٩١] . وأثنى عليه الحافظ " الذهبي " فقال : «وكان ذا سنّة ودين وفتوّة ومروءة ، وحُسْن خلق ، وكَيْس ، وله نظْمٌ ونثر»[٩٢] . وكانت وفاته في شهر صفر سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م[٩٣] .

ومع ما كان يحظى به العلاّمة " نفطويه " من شهرة في الأوساط العلمية ، إلاّ أنّ المتقدّمين من المؤرّخين والأدباء الذين عاصروه أو عاشوا بعده بفترة يسيرة ، لم يُشيروا إلى كتابه «الوزراء» . ولعلّ أوّل مَن ذكره "ياقوت الحموي" في مصنّفه «معجم الأدباء»[٩٤] ، ثمّ " ابن أيبك الصفدي " في كتابه «الوافي بالوفيات»[٩٥] .

ومن الغريب أنّ "ياقوت الحموي" لمّا عدّد مؤلّفات "نفطويه" – ومن بينها كتابه «الوزراء» – أشار إلى أنّ مصدره في ذلك هو "ابن إسحاق النديم" في كتابه «الفهرست» ، غير أنّه بالرجوع إلى هذا الكتاب الأخير يتّضح أنّه لا يذكر بين آثار " نفطويه " أيّ كتابٍ في أخبار الوزراء أو تراجمهم[٩٦] .

وعلى الرّغم من أنّ المؤرّخين الذين ترجموا لنفطويه قد أطنبوا في مديحه والثناء عليه ، إلاّ أنّهم لم يذكروا أيّ معلومة عن محتوى كتابه «الوزراء» ، ولم يقتبسوا منه شيئاً في مؤلّفاتهم ، ولذا يصعب التعرّف إلى طبيعة هذا الكتاب أو معرفة شيء ممّا كان يحويه من روايات تاريخية، ويُستشفّ من عنوانه أنّه كتابٌ يتّسم بالشمولية ، وأنّه يحتوي على أخبار العديد من الوزراء ، شأنه في ذلك شأن عدد من المصنّفات الأخرى .

«أخبار الوزراء» ، لابن الماشطة :

وممّا صنّفه مؤرّخو المشرق من كتب في سيَر الوزراء وأخبارهم خلال العصر العبّاسي ، كتاب «أخبار الوزراء» ، لـ " أبي الحسن علي بن الحسن بن محمد البغدادي " ، المعروف بـ «ابن الماشطة» . وهو أديبٌ ومؤرّخٌ مغمورٌ ، عاش في القرن الثالث الهجري ، وأوائل الرابع .. وقد ترجم له "ابن إسحاق النديم" في كتابه «الفهرست» ، وذكر أنّ له صناعةً وتقدّماً في الحساب وصناعة الخراج ، وأشار إلى بعض مصنّفاته ، ومنها كتاب «جواب المُعْنِت» ، وكتاب «الخراج»[٩٧] ، كما ترجم له " ياقوت " في «معجم الأدباء» ، وأشار إلى أنّه كان خبيراً بأمور الدواوين والخراج ، وأنّه ولّي ديوان بيت المال في الدولة العبّاسيّة ، وذكر عن "المرزباني" أنه رآه بعد سنة ٣١٠هـ ، وقد جاوز التسعين من عمره ، وساق بعضاً من أشعاره . وروى " ياقوت " أيضاً أنّه عاش حتّى بلغ مائة سنة[٩٨] ، ويعني هذا أنّ وفاته كانت في الثلث الأوّل من القرن الرابع الهجري ، على وجه التقريب .

وقد أشار إلى كتابه «أخبار الوزراء» ، عددٌ من المؤرّخين ، ومنهم "المسعودي" في كتابَيه «التنبيه والإشراف»[٩٩] ، و «مروج الذهب»[١٠٠] ، وذكره باسْم «الوزراء وأخبارهم» ، وأشار إلى أنّه يتضمّن أخبار الوزراء حتّى أواخر أيّام الخليفة العبّاسي "الراضي بالله"[١٠١] ، والذي تولّى الخلافة بين عامَي (٣٢٢ – ٣٢٩هـ/ ٩٣٤ – ٩٤٠م) . كما أشار إليه أيضاً "ابن أيبك الصفدي" في كتابه «الوافي بالوفيات»[١٠٢] ، و"السخاوي" في كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ»[١٠٣] .

ويُستنتج ممّا ذكره "المسعودي" من أنّ مصنّف "ابن الماشطة " يؤرّخ للوزراء حتّى أواخر عهد "الراضي بالله"، أنّه يتضمّن تراجم العديد من الوزراء العبّاسيّين وأخبارهم، ولا يقتصر على عدد محدود منهم ، غير أنّه من الصعب معرفة الامتداد الزمني الذي يُغطّيه هذا الكتاب ، وكم من الوزراء أرّخ لهم .

«الوزراء» ، لأبي الحسن المطوّق :

ومن الكتب المفقودة التي دوّنت في سيَر الوزراء وأخبارهم في المشرق الإسلامي إبّان العصر العبّاسي ، كتاب «الوزراء» ، لـ "أبي الحسن علي بن الفتح البغدادي"[١٠٤] ، المعروف بـ «المطوّق»[١٠٥] ، وهو مؤرّخٌ مغمورٌ ، عاش في فترة النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، والربع الأوّل من القرن الرابع ، وترجم له "ابن إسحاق النديم" في كتابه «الفهرست»[١٠٦] ترجمةً مقتضبةً، كما ذكره " التنوخي " في كتابه «الفرج بعد الشدّة» ، مفيداً أنّه عاش إلى ما بعد سنة ٣٢٠هـ[١٠٧] ، وذكره العلاّمة " شمس الدين السخاوي " أيضاً ، وسمّاه «ابن المطوّق»[١٠٨] .

وقد أشار المؤرّخ " المسعودي " إلى كتابه «الوزراء» في مصنَّفيه «التنبيه والإشراف»[١٠٩] ، و «مروج الذهب»[١١٠] ، وذكر أنّ " المطوّق " دوّن فيه أخبار الوزراء حتّى سنة ٣٢٠هـ[١١١] ، أي إلى آخر سنة من عهد الخليفة " المقتدر بالله " . كما ذكره "ابن إسحاق النديم" ، وأفاد أنّه يشتمل على أخبارهم حتّى أيّام الوزير " أبي القاسم الكلواذاني "[١١٢] ، أي إلى سنة ٣١٩هـ ، وهي السنة التي ولّي فيها " الكلواذاني " الوزارة لفترة شهرين فقط ، ثمّ عُزل عنها[١١٣] .

ويذكر "ابن إسحاق النديم" أنّ كتاب «الوزراء» للمطوّق إنّما هو صلةٌ للكتاب الذي صنّفه " محمد بن داود ابن الجرّاح " المتوفّى في سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م ، في أخبار الوزراء[١١٤] ، ويعني هذا أنّه يُماثل كتاب «الزيادة في أخبار الوزراء» ، والذي ذيّل به " أبو العبّاس الثقفي " مصنَّف " ابن الجرّاح " .

وحيث إنّ " أبا الحسن المطوّق " عاش سنيّ حياته

الأخيرة في عهد الخليفة " المقتدر بالله " ، فقد سلّط الضوء في كتابه على وزراء هذا الخليفة بوجهٍ خاصٍ ، وقد أبان عن ذلك " المسعودي " في كتابه «مروج الذهب» حينما ذكر أنّ كتاب «الوزراء» للمطوّق يشتمل على أخبار عددٍ من وزراء "المقتدر"[١١٥] ، وتابعه " السخاوي "[١١٦] في ذلك . والمعروف – تاريخياً – أنّه عُيّن في أيّام هذا الخليفة التي امتدّت نحو ربع قرن من الزمن ، اثنا عشر وزيراً[١١٧] .

على أنّ ذلك لا يعني أنّ هذا الكتاب كان مقتصراً على وزراء الخليفة "المقتدر بالله" فقط ، بل إنّه يتناول أخبار العديد من الوزراء الآخرين أيضاً ، فقد ذكر الأديب العلاّمة "أبو علي المحسّن بن علي التنوخي" في مصنَّفه «الفرَج بعد الشدّة» .. والذي أشار فيه إلى كتاب «الوزراء» لأبي الحسن المطوّق في أكثر من موضع ، وسمّاه «مناقب الوزراء ومحاسن أخبارهم» – ذكر أنّه يشتمل على أخبار الوزراء في الفترة الواقعة بين وفاة الوزير " عُبيد الله بن يحيى بن خاقان " (سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م) ، وآخر أيّام الخليفة " القاهر بالله " (٣٢٢هـ/ ٩٣٣م) أو بعدها[١١٨] ، ممّا يعني أنّه يُغطّي فترةً تربو على نصف قرن من الزمن ،

«الوزراء» ، للصولي :

وفي الثلث الأوّل من القرن الرابع الهجري ، صنّف العلاّمة " أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس ابن محمد بن صول الصولي " كتاباً في سِيَر الوزراء وأخبارهم ، سمّاه «الوزراء» .. و "الصولي" مؤرّخٌ وأديبٌ مشهورٌ ، ولد ببغداد ونشأ بها ، ونادم بعض الخلفاء العبّاسيّين ، مثل "المكتفي بالله" (٢٨٩ – ٢٩٥هـ/ ٩٠٢ – ٩٠٨م) ، و "المقتدر بالله" (٢٩٥ – ٣٢٠هـ/ ٩٠٨ – ٩٣٢م) ، و "الراضي بالله" (٣٢٢ – ٣٢٩هـ/ ٩٣٤ – ٩٤٠م) ، وتبوّأ مكانةً عاليةً عندهم[١١٩] . كما حظيَ بثناء العديد من الأدباء والمؤرّخين على امتداد العصور[١٢٠] ، وكانت وفاته في البصرة سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م[١٢١] .

وقد نال كتابه «الوزراء» شهرةً واسعةً بين أهل العلم في مختلف العصور ، وأشار إليه عددٌ كبيرٌ من المؤرّخين والأدباء المعاصرين للصولي والذين جاءوا من بعده ، ومنهم : "أبو الحسن المسعودي" في مصنَّفه «التنبيه والإشراف»[١٢٢] ، و "أبو علي التنوخي" في كتابه «الفرَج بعد الشدّة»[١٢٣] ، و "ابن إسحاق النديم" في كتابه «الفهرست»[١٢٤] ، و "أبو منصور الثعالبي" في كتابه «أحسن ما سمعت»[١٢٥] ، و "ابن عساكر" في كتابه «تاريخ مدينة دمشق»[١٢٦] ، و "أبو الحسن علي بن ظافر الأزدي" في كتابه «بدائع البدائه»[١٢٧] ، و "ياقوت" في مصنَّفه «معجم الأدباء»[١٢٨] ، و "ابن الأبّار القضاعي الأندلسي" في كتابه «الحُلّة السِّيَراء»[١٢٩] ، و "ابن خلّكان" في كتابه «وفيات الأعيان»[١٣٠] ، و "ابن أيبك الصفدي" في كتابه «الوافي بالوفيات»[١٣١] ، و "السخاوي" في كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ»[١٣٢] .

وقد انتقد " أبو الحسن الصابئ " في مقدّمة كتابه «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» كتاب «الوزراء» للصولي ، فذكر أنّه «ملأه بالحشو الزائد ، وكسَاه بشعره البارد»[١٣٣] . وفي كتاب "الصولي" – كما يقول بعض المؤرّخين – غرائب لا توجد في آثار غيره من المؤرّخين ، ومعلومات انفرد بذكرها ؛ لأنّه كان شاهد عيان لها[١٣٤] .

ويتّضح – من خلال الشذرات والروايات المتفرّقة الواردة في العديد من المصادر التاريخية عن كتاب «الوزراء» لأبي بكر الصولي – أنّه يتّسم بالشمولية ، ويتضمّن أخبار الكثير من الوزراء العبّاسيّين ، ولا يقتصر على المشاهير منهم فقط ، بل يتناول أخبار الوزراء المغمورين أيضاً .

وتذكر المصادر التاريخية أسماء العديد من الوزراء الذين تحدّث "الصولي" عنهم في كتابه ، مثل : "خالد بن برمك" – الذي ولي الوزارة في عهدَي الخليفتين " أبي

العبّاس السفّاح" و "أبي جعفر المنصور" – و "معاوية ابن عُبيد الله بن يسار الأشعري"[١٣٥] – وزير الخليفة "المهدي" – و"الفضل بن الربيع "[١٣٦] و "يحيى بن خالد البرمكي "[١٣٧] – وزيرَي الخليفة "الرشيد" – و "الفضل بن سهل " و"أبي جعفر أحمد بن يوسف بن صَبيح"[١٣٨] – وزيرَي الخليفة "المأمون" – و"محمد بن عبد الملك الزيّات"[١٣٩] – وزير الخليفتين "المعتصم بالله" و "الواثق بالله" – و "محمد بن الفضل الجَرْجَرائي "[١٤٠] – وزير الخليفتين " المتوكّل " و "المستعين" – و "عُبيد الله بن سليمان بن وهب" – وزير الخليفتين "المعتمد على الله" و"المعتضد بالله" ، كما يحتوي كتاب "الصولي" – فضلاً عن أخبار الوزراء – على أخبار العديد من الأدباء والشعراء ، مثل : "عمرو بن مسعدة الصولي"[١٤١] ، و"عبد الله بن المعتز "[١٤٢] ، و"الحسن بن وهب بن سعيد "[١٤٣] ، و "أبي الحسن علي بن يحيى المنجّم "[١٤٤] ، و"أبي الحسن البلاذري"[١٤٥] – صاحب كتاب «فتوح البلدان» – و" أبي الحسن علي بن محمد بن نصر بن بسّام العبرتائي "[١٤٦] ، المتوفّى سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٤م[١٤٧] .

«مباسطة الوزراء» ، لابن خلاّد الرامهرمزي :

ومن المصنّفات التي تناولت أخبار بعض الوزراء في العصر العبّاسي، كتاب «مباسطة الوزراء» ، لـ " أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاّد الرامَهُرْمُزي" ، نسبةً إلى مدينة " رامَهُرْمُز " ، الواقعة في إقليم "خوزستان" في بلاد المشرق الإسلامي[١٤٨] . وهو مؤرِّخٌ وأديبٌ شاعرٌ ، سمع الحديث ورواه ، وتولّى القضاء في " خوزستان " . وألّف كتباً عديدة في الحديث والأدب والتاريخ ، منها كتاب «أمثال النبي صلى الله عليه وسلّم» ، وكتاب «العلل في مختار الأخبار» ، وكتاب «النوادر والشوارد» ، وكتاب «أدب الناطق» ، وغيرها . وتوفّي في حدود سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م[١٤٩] .

وقد أشار إلى كتابه «مباسطة الوزراء» عددٌ يسيرٌ من المؤرّخين ، ومنهم : "ياقوت" في «معجم الأدباء»[١٥٠] ، و"الصفدي" في كتابه «الوافي بالوفيات»[١٥١] ، و"البغدادي" في كتابه «هدية العارفين»[١٥٢] . وذلك في أثناء ترجمتهم لابن خلاّد الرامهرمزي .

ولم يورد هؤلاء المؤرّخون أيّ معلومات عن محتويات هذا الكتاب ، كما لا نقف على أيّ ذِكْر أو إشارة له عند غيرهم من المؤرّخين ، ولذا يصعب معرفة العهود التي أرّخ "ابن خلاّد" للوزراء فيها ، أو الوزراء الذين ذكرهم في كتابه ، أو ساق شيئاً من أخبارهم .

«الوزراء» ، للصاحب بن عبّاد :

وممّا دوّنه المؤرّخون في المشرق الإسلامي في ميدان سيَر الوزراء وأخبارهم ، كتاب «الوزراء» ، لـ " أبي القاسم إسماعيل بن عبّاد بن العباس بن عبّاد بن أحمد بن إدريس الطالقاني " ، المعروف بـ «الصاحب ابن عبّاد» . وهو وزيرٌ مؤرِّخٌ أديب ، كان يصحب " أبا الفضل بن العميد " ، فلُقّب بـ «الصاحب» ، وظلّ علَماً عليه ، وقيل إنّه صحب "مؤيّد الدولة بن ركن الدولة البويهي "[١٥٣] منذ صباه ، فسمّاه «الصاحب» ، فعُرف بهذا اللقب واشتهر به[١٥٤] . وهو أحد الوزيرَين اللذَين تناول " أبو حيّان التوحيدي " مثالبهما في كتابه «أخلاق الوزيرَين» ، كما سبق ذكْره .

وقد تولّى الوزارة لـ "مؤيّد الدولة البويهي" ، ثمّ لأخيه "فخْر الدولة"[١٥٥] ، وكان إلى جانب انشغاله بالوزارة محبّاً للعلم والأدب ، له مؤلّفاتٌ عدّة في مختلَف العلوم ، منها كتاب «المحيط باللغة» ، وكتاب «عنوان المعارف في التاريخ» ، وكتاب «العروض الكافي» ، وكتاب «جوهرة الجمهرة» ، وكتاب «أخبار أبي العيناء» ، وله أيضاً ديوان شعر[١٥٦] . وكانت وفاته في مدينة "الريّ" ليلة الرابع والعشرين من صفر سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م[١٥٧] .

ومع أنّ "الصاحب بن عبّاد" كان يتمتّع بمكانة عالية

بين رجال عصره ، إلاّ أنّ كتابه «الوزراء» لم ينل من الشهرة والذيوع مثلما نالته بعض المصنَّفات الأخرى ، ولعلّ أوّل مَن أشار إليه من المؤرّخين "ابن إسحاق النديم" في كتابه «الفهرست»[١٥٨]، كما ذكره "ياقوت الحموي"[١٥٩]، و"ابن خلّكان"[١٦٠] ، و "الذهبي"[١٦١] ، و"ابن أيبك الصفدي"[١٦٢] .

ويبدو أنّ "ياقوت" قد اطّلع على مصنَّف الوزير "ابن عبّاد" ، فقد وصفه بأنّه كتابٌ لطيف[١٦٣] ، ورآه "ابن خلّكان" أيضاً ، وأفاد منه في كتابه «وفيات الأعيان» ، وسمّاه «أخبار الوزراء»[١٦٤] ، مع أنّه ذكره في ترجمة "الصاحب بن عبّاد " باسْم كتاب «الوزراء»[١٦٥] . ومن المؤكّد أنّ هذا الكتاب كان في القرن الثامن الهجري لا يزال موجوداً ومتداولاً بين بعض المؤرّخين ، فقد اطّلع عليه في تلك الفترة العلاّمة " ابن أيبك الصفدي " – المتوفّى سنة ٧٦٤هـ – وأفاد منه في كتابه «الوافي بالوفيات»[١٦٦] .

وقد ذيّل على كتاب «الوزراء» ، لابن عبّاد – بعد مرور ما يُناهز ثلاثة قرون من الزمن على تصنيفه – المؤرّخ "تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب البغدادي " ، المعروف بـ«ابن الساعي» ، والمتوفّى سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م ، في كتابه الموسوم بـ«أخبار الوزراء» ، ويقع هذا الذيل – وفقاً لقول "حاجي خليفة " – في مجلّد واحد[١٦٧] .

«الوزراء» ، لابن ماكولا :

وفي القرن الخامس الهجري ألّف الإمام "أبو نصر علي بن هبة الله بن علي بن جعفر بن علي بن محمد بن دُلَف بن القاسم بن عيسى العجلي البغدادي" ، المعروف بـ«ابن ماكولا» ، كتاباً في سير الوزراء وأخبارهم ، أطلق عليه اسم «الوزراء» ، و "ابن ماكولا" محدّثٌ أديبٌ ومؤرّخٌ عالم[١٦٨]. امتدحه بعض المؤرّخين وأطنبوا في الثناء عليه ، فذكر "ياقوت الحموي" و "ابن شاكر الكتبي" أنّه كان لبيباً عارفاً عالماً حافظاً متقناً ، نحوياً مجوّداً شاعراً مبرّزاً ، جزيل الشعر ، فصيح الكلام صحيح النقل ، ولم يكن في البغداديين في زمانه مثله . رحل في طلب العلم ولقاء العلماء إلى العديد من الأقاليم والبلدان ، فزار الشام ومصر والجزيرة والثغور والجبال وخراسان وما وراء النهر، وطاف في الدنيا وجوّل في الآفاق[١٦٩] . وكانت وفاته في سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م[١٧٠] .

وقد أشار "ابن ماكولا" إلى كتابه «الوزراء» في عدّة مواضع من مصنَّفه «الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب»[١٧١] ، وأشار إليه عددٌ من المؤرّخين أيضاً، ومنهم : الإمام "أبو سعد السمعاني" في كتابه «الأنساب»[١٧٢] ، و "ياقوت الحموي" في كتابه «معجم الأدباء»[١٧٣] ، و"ابن شاكر الكُتبي" في مصنَّفه «فوات الوفيات»[١٧٤] ، و"ابن ناصر الدين" في كتابه «توضيح المشتبه – في ضبْط أسماء الرواة وأنسابهم ..»[١٧٥] .

ويُشير " ابن ماكولا " في كتابه «الإكمال» إلى أنّه ساق في كتابه «الوزراء» تراجم العديد من وزراء العصر العبّاسي وأخبارهم ، ومنهم : "أبو أيّوب المورياني"[١٧٦] ، وزير الخليفة "أبي جعفر المنصور" ، و "محمد بن عبد الملك الزيّات" ، وزير "المعتصم" و "الواثق" ، و "أبو العبّاس أحمد ابن عُبيد الله الخَصيبي"[١٧٧] ، وزير الخليفتين "المقتدر" و"القاهر" ، و"أبو القاسم المطهَّر بن عبد الله"[١٧٨] ، وزير "عضد الدولة البويهي" ، و "أبو الريّان بن محمد"[١٧٩] ، وهو أيضاً من وزراء" عضد الدولة "[١٨٠] .

ويُفهم من تنوّع هذه التراجم أنّ " ابن ماكولا " لم يقتصر في مصنَّفه على الوزراء العبّاسيّين فقط ، بل إنّه ترجم لبعض وزراء الدولة البويهيّة أيضاً . ولم يتناول تراجم المشاهير منهم فحسب ، وإنّما اهتمّ أيضاً بالترجمة للمغمورين أيضاً . كما يبدو أنّ كتابه يتّسم بامتداده الزمني الواسع ؛ لأنّه يشتمل على أخبار وزراء عاشوا في عهود متباعدة ، وفي قرون عدّة .

«أخبار الوزراء» ، لأبي الحسن الهمذاني :

ومن المؤلَّفات التاريخية المفقودة في سيَر الوزراء وأخبارهم ، كتاب «أخبار الوزراء» ، لـ "أبي الحسن محمد ابن عبد الملك بن إبراهيم الهمذاني" وهو علاّمةٌ مؤرِّخٌ ، عاش في فترة النصف الثاني من القرن الخامس الهجري والربع الأوَّل من القرن السادس ، وكان – كما يقول بعض المؤرِّخين – «فاضلاً حسن المعرفة بالتواريخ وأخبار الدول والملوك والحوادث»[181] . وله مصنَّفاتٌ عدَّةٌ منها : الذيل على تاريخ الإمام "الطبري" ، والذيل على «ذيل تجارب الأمم» لأبي شجاع الروذراوري ، وكتاب «عنوان السِّيَر» ، وكتاب «طبقات الفقهاء» وغيرها . توفِّي في شهر شوَّال سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م[182] .

وقد أشار إلى كتابه «أخبار الوزراء» بعض المؤرِّخين في مصنَّفاتهم ، وبخاصَّة أولئك الذين ساقوا ترجمته ، ومنهم : "ابن أيبك الصفدي" في كتابه «الوافي بالوفيات»(٣٨١) ، و "السبكي" في «طبقات الشافعية الكبرى»[184] ، و"ابن الملقِّن" في كتابه «العقد المُذهب في طبقات حملَة المذهب»[185] .

وتُشير بعض الروايات إلى أنّ هذا الكتاب هو ذيلٌ على كتاب «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» ، لأبي الحسن الصابئ[186] ، ويعني هذا أنَّه يؤرِّخ للوزراء الذين عاشوا – غالباً – في القرن الخامس الهجري ؛ لأنّ كتاب "الصابئ" يؤرِّخ في القسم المعروف منه لبعض وزراء الخليفة "المقتدر بالله" ، المتوفَّى سنة ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م ، ويؤرِّخ في القسم المفقود لعدد من الوزراء الآخرين الذين عاشوا في العقود التالية من القرن الرابع الهجري – كما فصَّلنا في صفحات سابقة .

«أخبار الوزراء» ، لياقوت الحموي :

ومن الكتب المفقودة التي صنَّفها مؤرِّخو المشرق الإسلامي في سيَر الوزراء وأخبارهم خلال العصر العبّاسي ، كتاب «أخبار الوزراء» ، للعلاّمة الشهير "شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي" ، صاحب «معجم البلدان» ، و «معجم الأدباء» ، وهو إمامٌ مؤرِّخٌ جغرافيٌّ أديب ، أُسر من بلاد الروم في إحدى الغزوات ، فاشتراه تاجرٌ من أهل بغداد يُدعى "عسكر الحموي" فنُسب إليه ، وعلّمه وشغله بالأسفار للتجارة ، ثمّ أعتقه . وكان " ياقوت " محبّاً للعلم ، قرأ كثيراً من الكتب واستفاد منها ، ورحل إلى العديد من البلدان ، وأقام في خراسان مدّةً من الزمن ، ثمّ رحل منها إلى "خوارزم" ، وفي أثناء مقامه فيها خرج المغول وهاجموا بلدان المشرق ، فخاف "ياقوت" على نفسه وولّى هارباً إلى "الموصل" ، حيث أقام فيها فترةً ثمّ غادرها إلى "سنجار" فـ "حلَب"[187] . وكانت وفاته في العشرين من رمضان سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م[188] .

أمّا مصنَّفه «أخبار الوزراء» فهو كتابٌ مغمورٌ ، لم ينل أيّ حظٍّ من الشهرة ، ولم يكن معروفاً عند المؤرِّخين ، رغم ما كان يتمتّع به "ياقوت" من منزلة علمية عالية ، وقد أشار إليه "ياقوت" نفسه في كتابه «معجم البلدان» في موضعين ، أوّلهما في أثناء حديثه عن بلدةٍ تُسمّى «بَلْعَم» ، حيث ذكر أنّه يُنسب إليها الوزير "أبو الفضل محمد بن عُبيد الله البَلْعَمي"[189] ، وهو من وزراء الدولة السّامانية في بلاد ما وراء النهر وخراسان ، ثمّ أشار إلى أنّه من الأدباء الفضلاء ، وأنّه ترجم له في كتابه «أخبار الوزراء»[190] . كما ذكره عند تعريفه بمدينة تُدعى «جَيْهَان» في إقليم خُراسان ، حيث أشار إلى أنّه يُنسب إليها الوزير "أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني"[191] ، وهو أيضاً من وزراء الدولة السامانية ، وذكَرَ أنّه ترجم له في كتابه المذكور «أخبار الوزراء»[192] .

ويُستشفّ من هذه المعلومات اليسيرة أنّ كتاب "ياقوت" في أخبار الوزراء ، يتّسمُ بالشمولية ، إذْ إنّ

اشتماله على تراجم وزراء مغمورين مثل وزراء الدولة السامانية ، يدلّ على أنّه لم يقتصر على ذكْر أخبار الوزراء المشاهير فحسْب ، بل كان يستقصي أخبار وزراء بعض الدويلات الأخرى التي استقلّت عن الدولة العبّاسية .

ويبدو أنّ هذا الكتاب قد ضاع منذ زمن بعيد ، بل ربّما منذ أيّام "ياقوت" نفسه ، ولم يكن متداولاً أو معروفاً بين أهل العلم سواءً من الذين عاصروه أو ممّن عاشوا بعده ، وآية ذلك أنّا لا نجد له ذكراً عند المؤرّخين الذين ترجموا لـ "ياقوت" ، وعدّدوا آثاره ، من أمثال "القفطي" ، و"ابن خلّكان" ، و "الذهبي" وغيرهم .

«الوزراء» ، لابن القادسي :

وفي أواخر العصر العبّاسي صنّف "أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن علي الكُتبي البغدادي" ، المعروف بـ «ابن القادسي» ، كتاباً في سيَر الوزراء وأخبارهم ، أطلق عليه اسم «الوزراء» ، و"ابن القادسي" مؤرّخ مغمور ، ذكره "ابن خلّكان" أكثر من مرّة في كتابه «وفيات الأعيان»[193] ، كما ترجم له "ابن أيبك الصفدي" في كتابه «الوافي بالوفيات» ترجمة مختصرة ، ذكر فيها أنّه كان رجلاً فاضلاً ، له اعتناءٌ بالتواريخ والحوادث . وقد توفّي في مدينة "بغداد" سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م[194] .

ولم يحْظَ كتابه «الوزراء» بانتشار كبير بين المؤرّخين، بل لم يحفل به من بينهم سوى العلاّمة "ابن خلّكان" ، الذي ذكره في مصنّفه «وفيات الأعيان» ، في مواضع عديدة ، وسمّاه تارةً «الوزراء»[195] ، وحيناً «أخبار الوزراء»[196] ، ومرّةً «تاريخ الوزراء»[197] ، وأشار إلى أنّ "ابن القادسي" أورد فيه أخبار بعض الوزراء الذين عاشوا في العصر العبّاسي ، كالوزير الشهير "جعفر بن يحيى البرمكي"[198]، والوزير البويهي " فخر المُلك أبي غالب محمد بن علي بن خلف"[199] ، والوزير العبّاسي "عون الدين يحيى بن هبيرة"[200] .

ومن الواضح أنّ مصنّف "ابن القادسي" في أخبار الوزراء قد شمل فترات تاريخية طويلة ، وترجم لوزراء عاشوا في عهود متباعدة ، ففي الوقت الذي نجده يتضمّن أخبار الوزير "جعفر البرمكي" ، الذي عاش في القرن الثاني الهجري ، نراه أيضاً يحوي أخبار الوزير "يحيى بن هُبيرة" الذي عاش في القرن السادس الهجري ، كما لم يقتصر على وزراء الدولة العبّاسيّة فقط ، بل تَضمّنَ أيضاً أخبار بعض وزراء الدولة البويهيّة .

«أخبار الوزراء» ، لابن الساعي :

ومن المؤلّفات المفقودة التي اختصّت بسيَر الوزراء وأخبارهم في المشرق ، كتاب «أخبار الوزراء» ، لـ "تاج الدين أبي طالب علي بن أنجب بن عثمان بن عبد الله البغدادي" ، المعروف بـ «ابن الساعي» ، وهو مؤرّخٌ أديبٌ علاّمة ، عاش معظم حياته في أواخر عصر الدولة العبّاسية، حيث كان مولده في سنة ٥٩٣هـ ، ووفاته في سنة ٦٧٤هـ[201]. أي أنّه عاش ثلاثة وستّين عاماً من سنيّ حياته في العصر العبّاسي . قال " الأسنوي " : «كان فقيهاً قارئاً محدّثاً مؤرّخاً شاعراً لطيفاً كريماً ، له مصنّفات كثيرة في التفسير والفقه والتاريخ»[202] ، ومن آثاره كتاب «الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السيَر» ، وكتاب «أخبار الخلفاء» ، وكتاب «تاريخ الشعراء»، وكتاب «طبقات الفقهاء» ، وكتاب «مناقب الخلفاء العبّاسيّين» ، وغيرها[203] .

وقد أشار إلى كتابه «أخبار الوزراء» بعض المؤرّخين، ومنهم : "ابن أيبك الصفدي" في كتابه «الوافي بالوفيات»[204]، و"السخاوي" في مصنّفه «الإعلان بالتوبيخ ..»[205] ، كما ذكره "حاجي خليفة" في كتابه «كشف الظنون» ، وسمّاه «تاريخ الوزراء»[206] . وتُشير بعض الروايات إلى أنّ مصنّف "ابن الساعي" في أخبار الوزراء هو ذيلٌ على كتاب «الوزراء» للصاحب بن عبّاد ، المتوفّى سنة ٣٨٥هـ[207] .

ويُسمّى كتاب "ابن الساعي" أيضاً باسْم آخر يبدو أكثر تحديداً ، وهو «أخبار الوزراء في دول الأئمّة الخلفاء»[٢٠٨] ، ويُستشفّ من هذا العنوان أنّه يختصّ بوزراء الدولة العبّاسيّة ، وممّا يُعزّز ذلك أنّ "ابن الساعي" عاش حياته في ظلّ العبّاسيّين ، ووضع كتاباً في مناقبهم، ولعلّ هذا الكتاب هو آخر ما صُنّف في ميدان سيَر الوزراء وأخبارهم في العصر العبّاسي .

(ب) المصنّفات الخاصّة بأخبار الوزراء البرامكة :

«أخبار البرامكة» ، لابن الأزرق الكرماني :

يتناول هذا الكتاب – كما يبدو جليّاً من عنوانه – أخبار شريحة محدّدة من الوزراء ، تتمثّل في أسرة "البرامكة" ، التي ذاع صيتها في العصر العبّاسي الأوّل ، وتولّى عدد من أفرادها الوزارة في أيّام بعض الخلفاء الأوّلين من بني العبّاس ، ومنهم : "خالد بن برمك" الذي ولي الوزارة في عهدَي الخليفتين " أبي العبّاس السفّاح " و"أبي جعفر المنصور" ، و "يحيى بن خالد البرمكي" وابناه "الفضل "[٢٠٩] و "جعفر" ، والذين تولّوا الوزارة وعَظُمَ شأنهم في أيّام الخليفة " هارون الرشيد " .

ومؤلّفه "أبو حفص عمرو بن الأزرق الكرماني" ، وهو مؤرّخ مغمور ، ذكره الحافظ "ابن عساكر" في مصنّفه الكبير «تاريخ مدينة دمشق» ، وذلك في أثناء ترجمته للخليفة العبّاسي "المأمون" ، وأشار إلى أنّ "المأمون" عرض عليه الوزارة فاعتذر[٢١٠] . ويُفهم من ذلك أنّه كان رجلاً مُقدّماً ، ذا مكانة عالية بين رجال عصره ، رغم أنّه لم ينل شهرة واسعة ، وأنّه كان يعيش في حاضرة الخلافة العبّاسيّة في ذلك العهد ، كما ذكره العلاّمة "ابن العديم" في كتابه «بُغية الطلب في تاريخ حلب» في أكثر من موضع، وخاصّة عند حديثه عن بعض أفراد أسرة "البرامكة"[٢١١] .

ولم يذكر أيٌّ من المؤرّخَين – "ابن عساكر" و "ابن العديم" – ما يقود إلى تحديد الزمن الذي عاش فيه "ابن الأزرق الكرماني" أو تاريخ وفاته ، وأغلب الظنّ أنّه عاش في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، والنصف الأوّل من القرن الثالث ، لأنّه كان معاصراً للخليفة "المأمون" ، المتوفّى سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣م ، ولأنّه يروي عن العلاّمة والأديب الشهير " عمرو بن بحر الجاحظ "[٢١٢] ، المتوفّى سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م .

وقد أشار إلى كتابه «أخبار البرامكة» وأفاد منه ، العلاّمة "أبو بكر الصولي" في مصنَّفه المفقود كتاب «الوزراء» ، ونقف على ما يقود إلى معرفة ذلك في كتاب «تاريخ مدينة دمشق» ، للإمام الحافظ "ابن عساكر" ، فقد ساق في ترجمته لـ "خالد بن برمك" ما ذكره "الصولي" في كتابه «الوزراء» من أنّه اطّلع على كتاب "ابن الأزرق الكرماني" وأشار إلى أنّه يشتمل على أخبار "البرامكة" ويُبرز فضائلهم[٢١٣] .

ومع أنّ كتاب «أخبار البرامكة» لابن الأزرق الكرماني ، ظلّ مغموراً إلى حدٍّ بعيد ، ولم يكن له حظٌّ من الانتشار بين جمهرة المؤرّخين ، في العهود التالية ، إلاّ أنّ ثمّة دليلاً بيّناً على أنّه كان موجوداً حتّى أواسط القرن السابع الهجري ولم تعصف به الأيّام ، فقد اطّلع عليه في تلك الفترة المؤرّخ "ابن العديم" – المتوفّى سنة ٦٦٠هـ – وذكره في كتابه «بُغية الطلب في تاريخ حلب» ، وأفاد منه في عدّة مواضع[٢١٤] .

«أخبار البرامكة» ، للمرزباني :

وهو ثاني كتاب صُنّف في المشرق في أخبار "البرامكة" . ومؤلّفه هو "العلاّمة أبو عُبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني" ، خراساني الأصل ، بغدادي المولد والوفاة[٢١٥] ، كان يُسمّى «جاحظ زمانه»[٢١٦] ، راوية مؤرّخٌ أديبٌ ، واسع المعرفة ، كثير السماع ، له مصنّفاتٌ عديدةٌ ولاسيّما في أخبار الشعراء[٢١٧] . وصفه

" الخطيب البغدادي " بقوله : «كان صاحب أخبار ورواية للآداب ، وصنّف كُتباً كثيرةً في أخبار الشعراء المتقدّمين والمحْدَثين على طبقاتهم ، وكُتباً في الغزل والنوادر»[٢١٨] . توفّي في مستهلّ شهر شوال سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م[٢١٩] .

وقد ذكر كتاب «أخبار البرامكة» عددٌ من المؤرّخين، ومنهم : "ابن إسحاق النديم" في كتابه «الفهرست»[٢٢٠] ، و"ياقوت الحموي" في كتابه «معجم الأدباء» [٢٢١] ، و" أبو الحسن القفطي " في كتابه «إنباه الرواة على أنباه النحاة»[٢٢٢] ، و " ابن أيبك الصفدي " في كتابه «الوافي بالوفيات»[٢٢٣] .

ويُشير "ابن إسحاق النديم" و "ياقوت الحموي" إلى أنّ هذا الكتاب يُحيط بتاريخ أسرة البرامكة من ابتداء أمرها إلى انتهائه ، ويتّسم بالشرح والتفصيل ، ويقع في «نحو خمسمائة ورقة»[٢٢٤] . ولعلّ كتاباً بهذا الحجم يُعدّ أوسع مصدر صنّف في تاريخ "البرامكة" .

«أخبار البرامكة» ، لابن الجوزي :

وهو ثالث كتاب صنّف في أخبار البرامكة في العصر العبّاسي ، ومصنّفه هو الإمام الحافظ المشهور " أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي البغدادي" ، المعروف بـ «ابن الجوزي» ، عالمٌ جليلٌ ، ومفسّرٌ مؤرّخٌ واعظٌ ، متبحّرٌ في عدد من العلوم ، كان – كما يقول الإمام "الذهبي" – رأساً في التذكير ، يقول النظم الرائق ، والنثر الفائق ، حاملَ لواء الوعظ ، بحراً في التفسير ، علاّمةً في السِّيَر والتاريخ ، موصوفاً بحسْن الحديث ، فقيهاً ، عليماً بالإجماع والاختلاف ، جيّد المشاركة في الطب ، ذا تفنُّن وفهم وذكاء وحفظ واستحضار ..[٢٢٥] . وكانت وفاته سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م .

ومع ما كان يتمتّع به الإمام "ابن الجوزي" من شهرة في الأوساط العلمية قديماً وحديثاً ، ومع أنّ الكثير من مؤلّفاته حظيَ بانتشار واسع ، إلاّ أنّ كتابه «أخبار البرامكة» لم يكن له حظٌ من الشهرة والذيوع ، بل إنّ كثيراً من المؤرّخين الذين ترجموا لابن الجوزي ، لم يذكروا هذا الكتاب بين آثاره ، ولم يُشر إليه من أعلام المؤرّخين المتقدّمين – نسبيّاً – سوى "ابن أيبك الصفدي" في كتابه «الوافي بالوفيات»[٢٢٦] ، ومن المتأخّرين "حاجي خليفة " في «كشف الظنون»[٢٢٧] ، و"البغدادي" في «هديّة العارفين»[٢٢٨] . وليس من المعلوم ما إذا كان "ابن الجوزي" قد اطّلع على المصنَّفين اللذَين سبقاه في أخبار البرامكة ، وعوّل عليهما في كتابه ، أم أنّه اعتمد على مصادر التاريخ العامّة فقط .

(جـ) السِّيَر المفردة :

«مناقب علي بن الفرات» ، للصولي :

على الرّغم من عناية المؤرّخين في المشرق الإسلامي بسِيَر الوزراء ، وتصنيفهم للعديد من الكتب التي تناولت أخبارهم وتتبّعت آثارهم ، إلاّ أنّ اهتمامهم بتدوين سِيَر مفردة تقتصر على أخبار وزير واحد من أعلام الوزراء ومشاهيرهم ، كان محدوداً ، حيث لا نقف إلاّ على عدد يسير جداً من المصنّفات التي اختصّت بهذا الجانب .

ويجيء في طليعة هذه المصنّفات القليلة ، كتاب «مناقب علي بن الفرات» ، الذي ألّفه العلاّمة "أبو بكر الصولي"[٢٢٩] ، وضمّنه سيرة الوزير العبّاسي "أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات" ، الذي تولّى الوزارة في عهد الخليفة "المقتدر بالله" .

ومن الغريب أنّا لا نجد لهذا الكتاب صدىً أو ذِكْراً عند المؤرّخين الذين عاشوا بعد عصر "الصولي" ، ولم يذكره من المتقدّمين سوى "ابن إسحاق النديم" في كتابه «الفهرست»[٢٣٠] ، بل إنّ "أبا الحسن الصابئ" الذي أفسح للحديث عن الوزير "ابن الفرات" صفحات طويلة في كتابه

«تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» لم يعتمده مصدراً من مصادره ، رغم أنّ "الصولي" كان معاصراً للوزير "ابن الفرات" ، عليماً بأخباره .

ويبدو جليّاً من عنوان كتاب "الصولي" أنّه يُبرز الجانب الوضّاء في حياة الوزير "ابن الفرات" ، فهو يُسلّط الضوء بدرجة رئيسة على «مناقبه» ، ولكنّ هذا لا يعني بالضرورة أنّه لا يتناول الجوانب الأخرى من حياته ، لأنّ كثيراً من المؤلّفات التي دوّنها المؤرّخون في «مناقب» الأعلام ، إنّما هي بمثابة سيَر شاملة لهم .

«سيرة الوزير ابن هبيرة» ، لابن المارستانيّة :

ومن الآثار التاريخية المفقودة التي اقتصرت على سيرة وزير واحد في المشرق الإسلامي إبّان العصر العبّاسي ، كتاب «سيرة الوزير ابن هُبيرة» ، لـ "أبي بكر عُبيد الله بن علي بن نصر البغدادي" ، المعروف بـ «ابن المارستانيّة» ، وهو فقيهٌ مؤرّخٌ أديبٌ ، من أهل القرن السادس الهجري ، كان – كما يقول الإمام " أبو شامة " – «أحد الفضلاء المعروفين بجمع الحديث والطب والنجوم وعلوم الأوائل وأيّام الناس»[٢٣١] ، وكان أبوه وأمّه يخدمان في «المارستان»[٢٣٢] ؛ ولذا عُرف بـ «ابن المارستانيّة»[٢٣٣]. توفي سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م[٢٣٤] .

ويختصّ كتابه – كما يبدو واضحاً من عنوانه – بترجمة الوزير العبّاسي الشهير " عون الدين يحيى بن هبيرة " ، الذي تولّى الوزارة في عهد الخليفة العبّاسي "المقتفي لأمر الله " (٥٣٠ – ٥٥٥هـ/ ١١٣٦ – ١١٦٠م) ، ثمّ في عهد الخليفة " المستنجد بالله" (٥٥٥ – ٥٦٦هـ/ ١١٦٠ – ١١٧٠م)[٢٣٥] .

وقد ذكره العلّامة " أبو شامة " في كتابه «تراجم رجال القرنين السادس والسابع» ، والمعروف بـ «الذيل على الروضتين» ، باسْم «سيرة ابن هُبيرة»[٢٣٦] ، كما ذكره "ابن خلّكان" في كتابه «وفيات الأعيان» ، ولكنّه لم يذكر اسم مصنّفه " ابن المارستانيّة " ، بل كان يُشير إليه بـ «مؤلّف سيرة الوزير ابن هبيرة»[٢٣٧] .

ويمكن التعرّف إلى معالم كتاب «سيرة الوزير ابن هبيرة» من خلال المعلومات الوافية والروايات المفصّلة التي ساقها العلّامة "ابن رجب الحنبلي البغدادي" في كتابه «الذيل على طبقات الحنابلة» ، وذلك في ترجمته المُسهبة للوزير "ابن هُبيرة" ، والتي تناهز الأربعين صفحة[٢٣٨] ، إذْ إنّ أكثر المعلومات التي ذكرها في ترجمته إنّما استقاها من تلك السيرة .

وعلى ضوء ما ساقه "ابن رجب" في مصنَّفه ، يمكن القول إنّ كتاب «سيرة الوزير ابن هبيرة» يُسلّط الضوء بدرجة رئيسة على مناقب الوزير وفضائله ، وقد تضمّن معلومات عن نشأته ، وطلبه للعلم ، وتولّيه الوزارة في عهدَي الخليفتين "المقتفي لأمر الله" و"المستنجد بالله" ، وما تمتّع به من صفات جعلته أهلاً للوزارة ، وعن علاقته بالخليفة ، وتقدير الخليفة له ، وزهده وتقشّفه وورعه ، وطول باعه في العلوم ، وعن مرضه ووفاته ، وعن جوانب أخرى عديدة في حياته وسيرته[٢٣٩] .

اقتباسات المؤرّخين من مصنّفات سيَر الوزراء وأخبارهم:

تبوّأت مصنّفات سيَر الوزراء وأخبارهم في المشرق الإسلامي مكانة مهمّة عند أعلام المؤرّخين ، ونالت نصيباً وافراً من تقديرهم ، فأشادوا بها في مختلف العصور ، وأفادوا منها في مؤلّفاتهم – وخاصّة في كتب التراجم العامّة – واقتبسوا منها الكثير من الروايات ، ولا سيّما في أثناء تراجمهم لبعض الوزراء أو إيرادهم طرفاً من أخبارهم.

وتكتسب مقتبسات المؤرّخين من تلك المصنّفات أهمّية كبيرة ، حيث تُشكّل في مجموعها مادّة علمية قيّمة أثْرت

كثيراً من مصادر التاريخ ، وتزداد أهمّية هذه المقتبسات حينما نعلم أنّ العديد من المصنّفات التي اقتُبستْ منها هو في عداد المفقود .

ومن أوائل المؤرّخين الذين أفادوا من تلك المصنّفات في مؤلّفاتهم ، العلاّمة "محمد بن عبدوس الجهشياري" في كتابه «الوزراء والكُتّاب» ، فقد نقل بعض الرّوايات من كتاب «الوزراء» لمحمد بن داود بن الجرّاح ، وذلك في حديثه عن "البرامكة" وعن بعض مواقفهم مع الخليفة " هارون الرشيد"[٢٤٠] .

واستفاد المؤرّخ والأديب "أبو بكر الصولي" في مصنّفه المفقود الموسوم بكتاب «الوزراء» ، من كتاب «أخبار البرامكة» لابن الأزرق الكرماني ، وقد أشار إلى ذلك الحافظ "ابن عساكر" في كتابه «تاريخ مدينة دمشق» ، حيث ذكر في ترجمته لـ "خالد بن برمك" أنّ "الصولي" أورد في كتابه «الوزراء» بعض الروايات التي اقتبسها من كتاب "ابن الأزرق الكرماني" ، وتتحدّث هذه الروايات عن علاقة "خالد بن برمك" بجدّ الخلفاء العبّاسيّين محمد بن علي بن عبد الله بن عبّاس"[٢٤١] وابنه "إبراهيم بن محمد"[٢٤٢] ، المعروف بـ «إبراهيم الإمام»[٢٤٣] .

كما اقتبس المؤرّخ المشهور "أبو الحسن المسعودي" ، في كتابه «التنبيه والإشراف» ، طرفاً من المعلومات من كتاب «الوزراء» لابن الجرّاح ، ولا سيّما في حديثه عن بعض الوزراء الذين ولاّهم الخليفة العبّاسي "موسى الهادي" (١٦٩ - ١٧٠هـ/ ٧٨٥ - ٧٨٦م)[٢٤٤] . واستقى "المسعودي" من كتاب «الوزراء والكُتّاب» للجهشياري ، معلومات أخرى عن بعض وزراء هذا الخليفة أيضاً[٢٤٥] .

ومن المؤرّخين الذين نهلوا من تلك المصنّفات أيضاً ، العلاّمة "أبو علي المحسّن بن علي التنوخي" ، المتوفّى سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م ، فقد أورد في كتابه «الفرج بعد الشدّة» بعض المعلومات التي اقتبسها من كتاب «الوزراء» لابن الجرّاح ، وذلك خلال حديثه عن الوزير العبّاسي "سليمان ابن وهب بن سعيد"[٢٤٦] . كما نقل من كتاب «الوزراء والكُتّاب» للجهشياري ، روايات كثيرة[٢٤٧] تختصّ بأخبار العديد من الأعلام الذين عاشوا في القرنين الأوّلين من عصر الدولة العبّاسيّة .

وأفاد "التنوخي" أيضاً من كتاب «الوزراء» لأبي الحسن المطوّق ، حيث اقتبس منه عدداً من الروايات المتعلّقة ببعض الوزراء العبّاسيّين ، مثل "أبي القاسم عُبيد الله بن سليمان بن وهب"[٢٤٨] ، وزير الخليفتين "المعتمد على الله "والمعتضد بالله" ، وابنه "القاسم بن عُبيد الله"[٢٤٩] ، وزير الخليفتين "المعتضد بالله" و"المكتفي بالله"[٢٥٠] .

كما استفاد "التنوخي" من كتاب «الوزراء» لأبي بكر الصولي ، وذلك في حديثه عن بعض الوزراء والأعلام العبّاسيّين ، مثل "الفضل بن الربيع" و "يحيى بن خالد البرمكي" و "الفضل بن سهل" و "عمرو بن مسعدة الصولي"[٢٥١] . وأفاد منه أيضاً في حديثه عن بعض أخبار الأديب والشاعر العبّاسي " عبد الله بن المعتزّ " ، الذي بُويع بالخلافة يوماً وليلة[٢٥٢] .

واقتبس المؤرّخ والأديب " أبو منصور الثعالبي " في كتابه «تحفة الوزراء» ، بعض المعلومات من كتاب «الوزراء والكُتّاب» للجهشياري ، وذلك في حديثه عن "الفضل بن سهل" وزير الخليفة "المأمون"[٢٥٣] . كما استقى "الثعالبي" في كتابه «أحسن ما سمعت» بعض الروايات من كتاب «الوزراء» لأبي بكر الصولي ، وذلك حينما تطرّق لذكر "أبي جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صَبيح" ، وزير الخليفة "المأمون" ، المتوفّى سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م[٢٥٤] .

وفي القرن السادس الهجري نجد الإمام الحافظ

"ابن عساكر" يعوّل في موسوعته التاريخية الكبيرة «تاريخ مدينة دمشق» ، على بعض المصنَّفات الخاصّة بسيَر الوزراء وأخبارهم ، فيقتبس منها طرفاً من المعلومات ، ومن هذه المصنّفات كتاب «الوزراء والكُتّاب» للجهشياري ، الذي نقل منه روايات عديدة في ثنايا بعض التراجم التي ساقها ، مثل ترجمة "أحمد بن يوسف بن صَبيح" ، وزير "المأمون" ، و "الفضل بن مروان" ، وزير الخليفة "المعتصم بالله" ، و "نجاح بن سلَمة بن نجاح بن عتّاب"[٢٥٥] ، أحد العاملين في بلاط الخليفة "المتوكّل على الله "[٢٥٦] .

ونقل الحافظ "ابن عساكر" أيضاً من كتاب «الوزراء» لأبي بكر الصولي روايات أخرى ، وذلك في أثناء ترجماته لعدد من الأعلام والوزراء ، مثل "خالد بن برمك" ، جدّ "البرامكة" ، و "معاوية بن عُبيد الله بن يسار الأشعري" ، وزير الخليفة "المهدي" ، و "زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب" ، آخر ملوك "الأغالبة" ، و "محمد بن الفضل الجَرْجَرائي" ، وزير الخليفتين "المتوكّل" و"المستعين"[٢٥٧] .

وكان لمصنّفات سيَر الوزراء وأخبارهم في المشرق الإسلامي أصداء واسعة عند عددٍ من مؤرّخي القرن السابع الهجري .. ويجيء في طليعة هؤلاء المؤرّخين "أبو الحسن علي بن ظافر الأزدي" ، المتوفّى سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م ، والذي استقى من تلك المصنّفات العديد من الرّوايات في كتابه «بدائع البدائه» ، حيث نقل من كتاب «الوزراء والكُتّاب» للجهشياري ، بعض الروايات المشتملة على أخبار عدد من الشخصيّات التي عاشت في العصر العبّاسي الأوّل ، وخاصّة في أيّام الخليفة "المأمون"[٢٥٨]..

كما اقتبس معلومات أخرى من كتاب «الوزراء» لأبي بكر الصولي ، ولاسيّما في حديثه عن بعض الوزراء العبّاسيّين ، وما كان يدور في مجالسهم من أشعار ، مثل "محمد بن عبد الملك الزيّات" ، وزير الخليفتين "المعتصم بالله" و "الواثق بالله" ، و "عُبيد الله بن سليمان بن وهب" ، وزير الخليفتين "المعتمد على الله" و"المعتضد بالله" ، واقتبس منه طرَفاً من أخبار بعض الأدباء وأشعارهم ، مثل "الحسن بن وهب بن سعيد" ، و"أبي الحسن علي بن يحيى المنجّم" ، نديم الخليفة "المتوكّل على الله"[٢٥٩] .

واستفاد "ابن ظافر الأزدي" أيضاً من كتاب «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» ، لأبي الحسن هلال بن المحسّن الصابئ ، وذلك في أثناء حديثه عن بعض مشاهير الوزراء الذين عاشوا في القرن الرابع الهجري ، وخاصّة فيما يتعلّق بالجانب الأدبي من حياتهم ، كالوزير "الحسن بن محمد المهلّبي" ، والوزير "الصاحب بن عبّاد"[٢٦٠] .

وكان العلاّمة "ياقوت الحموي" ، المتوفّى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م ، من أبرز أعلام القرن السابع الهجري الذين أدركوا أهمّية المصنَّفات الخاصّة بسيَر الوزراء وأخبارهم ، وما تحويه من مادّة علميّة قيّمة ، ولذا لم يكن غريباً أن يقتبس منها الكثير من الرّوايات ، ولا سيّما في كتابه «معجم الأدباء» ، فقد أفاد من كتاب «الوزراء والكُتّاب» ، للجهشياري ، في أثناء ترجمته لعدد من الأدباء والمؤرّخين ، ومنهم : "أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور"[٢٦١] ، و "أبو الحسن البلاذري" ، و "أبو حسّان الحسن بن عثمان الزيادي"[٢٦٢] ، و "علاّن الشعوبي"[٢٦٣]، وغيرهم[٢٦٤] . واستفاد منه أيضاً في مصنَّفه «معجم البلدان» ، وذلك في أثناء تعريفه بقرية من قرى العراق تُدعى «ماذَرَايا»[٢٦٥] .

كما عوّل "ياقوت" على كتاب «الوزراء» لأبي بكر الصولي ، فنقل منه بعض المعلومات في ترجمته لـ "أبي

الحسن البلاذري" ، وعلاقته بالوزير العبّاسي "عبيد الله بن يحيى بن خاقان"، واستفاد منه أيضاً في ترجمته للأديب الشاعر "أبي الحسن علي بن محمد بن نصر بن بسّام العبرْتائي" ، المتوفّى سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٤م(٢٦٦) .

واقتبس " ياقوت " في كتابه «معجم الأدباء» من كتاب «أخلاق الوزيرين» لأبي حيّان التوحيدي ، وذلك في أثناء ترجمته لأبي حيّان ، وساق مقتطفات من أقواله ، ونقل منه أيضاً بعض المعلومات في ترجمته للوزير "الصاحب بن عبّاد" ، وفي ترجمته لـ "أبي إسحاق إبراهيم بن علي الفارسي النحوي"(٢٦٧) ، كما أفاد منه في ترجمته لبعض العلماء والأدباء الآخرين الذين عاصرهم "أبو حيّان" وأشار إليهم في كتابه ، ومنهم " أبو العبّاس أحمد بن محمد بن ثوابة"(٢٦٨) ، و "أبو الفرج الأصبهاني"(٢٦٩) ، صاحب كتاب «الأغاني» ، والعلاّمة "أحمد بن محمد بن يعقوب" ، المعروف بلقب «مِسْكَوَيْه»(٢٧٠) ، صاحب كتاب «تجارب الأمم»(٢٧١) .

ونقل "ياقوت" روايات عديدة من كتاب «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» ، للصابئ ، وذلك في أثناء ترجمه لبعض أرباب الأدب ، مثل "أبي العبّاس أحمد بن محمد بن ثوابة"، و "أبي القاسم جعفر بن قُدامة بن زياد "(٢٧٢) ، و "أبي بكر عُبيد الله الخيّاط الأصبهاني "(٢٧٣) ، و "أبي الفرج الأصبهاني" ، و "أبي الحسن علي بن سليمان بن الفضل" ، المعروف بـ «الأخفش الصغير»(٢٧٤) ، والقاضي "المحسّن ابن علي التنوخي"(٢٧٥) .

ومن مؤرّخي القرن السابع الهجري الذين اقتبسوا من بعض مصنَّفات سيَر الوزراء وأخبارهم ، الحافظ "ابن النجّار البغدادي" ، المتوفّى سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م ، فقد أفاد في مصنَّفه «ذيل تاريخ بغداد» ، من كتاب «الوزراء والكُتّاب» للجهشياري ، حيث نقل منه بعض الروايات في ترجمته لـ "أبي القاسم عُبيد الله بن سليمان بن وهب" ، وزير الخليفتين "المعتمد على الله" و "المعتضد بالله" ، وفي ترجمة " عُبيد الله بن يحيى بن خاقان" ، وزير الخليفتين "المتوكّل على الله" و "المعتمد على الله" . كما أفاد "ابن النجّار" أيضاً من كتاب «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» ، للصابئ ، وذلك في ترجمته لأبي القاسم الكلواذاني ، وزير الخليفة "المقتدر بالله"(٢٧٦) .

وفي القرن السابع الهجري أيضاً نجد المؤرّخ "ابن العديم الحلبي" ، المتوفّى سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م ، يُعوّل في مصنَّفه «بُغية الطلب في تاريخ حلب» على عدد من الكتب التي دُوّنت في سيَر الوزراء وأخبارهم ، فقد أفاد من كتاب «أخبار البرامكة» لابن الأزرق الكرماني ، في عدّة مواضع، فنقل منه بعض المعلومات عن "بَرْمَك" ، جدّ "يحيى البرمكي" ، وذلك في أثناء ترجمته للشاعر "إسحاق البلخي"(٢٧٧) . واقتبس منه في ترجمة "خالد بن برمك" والد "يحيى البرمكي" ، وفي مواضع أخرى تتعلّق بالبرامكة ، وبمديح بعض الشعراء لهم(٢٧٨) .

كما اقتبس روايات عديدة من كتاب «الوزراء والكُتّاب» للجهشياري ، وذلك في ترجمته لـ "الربيع بن يونس بن أبي فروة "(٢٧٩) ، وزير الخليفة "أبي جعفر المنصور" ، وفي ترجمة "أبي جعفر أحمد بن يوسف بن صَبيح" ، وزير الخليفة "المأمون" ، وفي ترجمة شاعر يُدعى "رَوح بن معمر المَلَطي"(٢٨٠) ، عاش في العصر العبّاسي الأوّل(٢٨١) .

ونقل "ابن العديم" أيضاً من كتاب «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» ، للصابئ ، بعض المعلومات عن الوزير "أبي الفضل بن العميد" ، وتقديره للشاعر المشهور "أبي الطيّب المتنبي"(٢٨٢) .

ولعلّ الإمام "شمس الدين بن خلّكان" كان أكثر المؤرّخين إفادة من مصنَّفات سيَر الوزراء وأخبارهم ، فقد ساق في كتابه «وفيات الأعيان» روايات كثيرة اقتبسها من

تلك المصنَّفات ، حيث نقل من كتاب «الوزراء والكُتّاب» للجهشياري ، بعض الروايات في أثناء ترجمته لعدد من الأعلام ، ومنهم الأديب والكاتب المشهور "عبد الحميد بن يحيى الكاتب"(٢٨٣) ، الذي عاش في أواخر العصر الأموي، و "يعقوب بن داود"(٢٨٤) وزير الخليفة "المهدي" ، والوزير العبّاسي الشهير "يحيى بن خالد البرمكي" ، ونجله الوزير "الفضل بن يحيى" ، والشاعر "عبد السلام بن رغبان الكلبي"(٢٨٥) ، المعروف بلقب «ديك الجنّ»(٢٨٦) .

وأفاد "ابن خلّكان" أيضاً من كتاب «الوزراء» ، للصاحب بن عبّاد ، وذلك في أثناء ترجمته للوزير العبّاسي "علي بن محمد بن الفرات" .. كما اقتبس بعض المعلومات من كتاب «أخلاق الوزيرين» لأبي حيّان التوحيدي ، وذلك في ثنايا ترجمته للوزير "أبي الفضل بن العميد" ، واستفاد أيضاً من كتاب «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» للصابئ، فنقل منه أبياتاً من الشعر في ترجمته للوزير "ابن العميد" ، كما اقتبس منه بعض الروايات في ترجمته للوزير "علي بن الفرات"(٢٨٧) .

كما نقل من كتاب «الوزراء» لابن القادسي بعض الروايات ، وذلك في ترجمته للوزير "جعفر البرمكي" ، واشتملت هذه الروايات على بعض المعلومات الدالّة على ما كان يتّصف به "جعفر" من صفات حميدة كالجود والكرم . وأفاد منه أيضاً في ترجمة الوزير البويهي "فخر المُلك أبي غالب محمد بن علي بن خلف" ، والوزير العبّاسي "عون الدين يحيى بن هبيرة"(٢٨٨) .

وعوّل "ابن خلّكان" أيضاً على كتاب «سيرة الوزير ابن هبيرة» لـ "أبي بكر عُبيد الله بن علي بن نصر البغدادي" ، المعروف بـ «ابن المارستانيّة» ، وذلك في أثناء ترجمته للوزير "ابن هُبيرة" ، فنقل منه بعض الروايات التي تتحدّث عن تولّيه الوزارة ، وارتفاع منزلته في ديوان الخلافة العبّاسيّة ، ونجاحه في معالجة بعض الأزمات التي تعرّضت لها الدولة العبّاسيّة في أيّام الخليفة "المقتفي لأمر الله" (٥٣٠ – ٥٥٥هـ/ ١١٣٦ – ١١٦٠م)(٢٨٩) .

واستمرّ المؤرّخون ينهلون من مصنّفات سيَر الوزراء وأخبارهم في العصور التالية ، ويقتبسون ممّا حوتْه من مادّة تاريخية قيّمة .. ففي النصف الأوّل من القرن الثامن الهجري ، نرى الحافظ "شمس الدين الذهبي" يسوق في كتابه «سيَر أعلام النبلاء» ، بعض المعلومات التي اقتبسها من كتاب «الوزراء والكُتّاب» للجهشياري ، وذلك في ترجمته للوزير العبّاسي "أبي أيّوب سليمان بن وهب" ، الذي تولّى الوزارة في أيّام الخليفتين "المهتدي بالله" ، و"المعتمد على الله"(٢٩٠).

كما نجد العلاّمة "ابن أيبك الصفدي" ، المتوفّى سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م ، يعوّل في كتابه «الوافي بالوفيات» ، على كتاب «الوزراء» ، للصاحب بن عبّاد ، وذلك في ترجمته لـ " أبان بن صَدَقة "(٢٩١) ، أحد رجال الدولة العبّاسيّة في عصرها الأوّل(٢٩٢) .

وفي النصف الثاني من القرن الثامن الهجري نرى الحافظ المؤرّخ "ابن رجب الحنبلي البغدادي" ، المتوفّى سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م ، يعتمد في كتابه «الذيل على طبقات الحنابلة» اعتماداً كبيراً على كتاب «سيرة الوزير ابن هُبيرة» لابن المارستانية ، فيستقي منه معلومات واسعة في ترجمته المُسهبة للوزير "يحيى بن هُبيرة"(٢٩٣) . وقد شكّلت تلك المعلومات جُلّ المادّة التاريخية التي أوردها في ترجمة الوزير المذكور(٢٩٤) .

ويبدو أنّ بعض المصنّفات التي دُوّنت في سيَر الوزراء وأخبارهم في المشرق الإسلامي قد حَظِيَ بانتشار واسع في بعض الفترات ، حتّى صارت له أصداؤه عند بعض المؤرّخين الذين عاشوا في مناطق بعيدة عن بلاد

المشرق مثل المغرب والأندلس ، ومن هذه المصنَّفات كتاب «الوزراء» لأبي بكر الصولي ، فقد أفاد منه المؤرّخ " ابن الأبّار القضاعي الأندلسي" في مصنَّفه «الحلّة السِّيَراء» ، وذلك في ترجمته لآخر ملوك "الأغالبة" "زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب"(٢٩٥) .

الأهمّية التاريخية لمصنّفات سيَر الوزراء وأخبارهم :

تحظى مصنّفات سيَر الوزراء وأخبارهم في المشرق الإسلامي خلال العصر العبّاسي ، بأهمّية تاريخيّة بالغة ، وقيمة علميّة عالية ، فهي تحتوي على تراجم شريحة مهمّة من أعلام المسلمين ، تتمثّل في عشرات الوزراء الذين كان لهم أثرهم في ميادين الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية والعلمية والثقافية ، في العصر العبّاسي ، وتُبْرز ما كان في أيّام وزاراتهم من حوادث ومواقف .

والحقّ أنّ ذلك العدد الكبير من المصنّفات التاريخية التي دوّنت في سيَر الوزراء وأخبارهم في بلاد المشرق الإسلامي خلال العصر العبّاسي ، والتي تبلغ بضعة وعشرين كتاباً ، إنّما يُبرز الاهتمام الجلي الذي حظيت به هذه الشريحة المهمّة من أعلام المسلمين – أعني الوزراء – عند كثير من المؤرّخين في ذلك العصر .

ولا شكّ أنّ تلك المصنّفات تكتسب أهمّية كبيرة عندما نُدرك أنّ العديد من مصنّفيها لم يكونوا من سائر المؤرّخين فحسب ، بل كانوا من الرموز العلمية والفكرية البارزة في التاريخ العلمي والأدبي للمسلمين ، من أمثال "نفطويه" ، و"أبي بكر الصولي" ، و "أبي منصور الثعالبي" ، و "ابن ماكولا" ، و "ابن الجوزي" ، و "ياقوت الحموي" .

وممّا يؤكّد أهمّية تلك المصنّفات ، أنّها كانت – كما ذكرنا في الصفحات السابقة – مصدراً من المصادر الرئيسة التي نهل منها الكثير من المؤرّخين في العصور الخالية ، ولا سيّما أولئك الذين صنّفوا موسوعات كبيرة في التراجم ، مثل : "ابن عساكر" و "ياقوت الحموي" و "ابن العديم" و "ابن خلّكان" وغيرهم . فقد نقلوا منها معلومات كثيرة ، واقتبسوا من بطونها روايات قيّمة ، وظلّت تلك الروايات محفوظة في مصنّفاتهم ، في الوقت الذي ضاعت فيه معظم المؤلّفات الخاصّة بسيَر الوزراء .

ومن المعلوم أنّ مصادر التاريخ العامّة – على اختلاف أنماطها – تشتمل على روايات واسعة ومعلومات مفصّلة ، تتعلّق بسيَر الوزراء وأخبارهم ، وكذا الحال بالنسبة لكتب التراجم العامّة ، والتي تحوي تراجم العشرات من الوزراء الذين اشتهروا في سائر العصور ، وإذا ما أُضيفت هذه الروايات الواسعة والتراجم العديدة إلى ما تحويه المصنّفات التي أفردها المؤرّخون في سيَر الوزراء وأخبارهم ، فإنّها تُشكّل مادّةً تاريخيّةً هائلةً ، وموسوعةً شاملةً في تاريخ الوزارة والوزراء في الإسلام .

وتُعتبر مصنّفات سيَر الوزراء مصدراً مهمّاً من مصادر التاريخ العبّاسي ؛ وذلك لما تحويه من مادّة علمية قيّمة ، لا تختص بالوزراء العبّاسيّين فحسْب ، بل وبالخلفاء أيضاً ، وما تخلّل عهودهم من حوادث ومواقف كثيرة ، قد لا نقف عليها في كثير من كتب التاريخ ، وما تُقدّمه أيضاً من معلومات مهمّة عن النظم الإدارية السائدة في بعض العهود، وعن رسوم الخلافة والوزارة ، والدواوين ونحوها . وهي أيضاً تتضمّن مادّة تاريخية مهمّة تشمل جوانب سياسية وحضارية تتعلّق بتاريخ بعض الدويلات التي استقلّت عن الدولة العبّاسية ، وخاصّة في منطقة المشرق الإسلامي .

وتُعدّ مصنّفات سيَر الوزراء وأخبارهم في المشرق الإسلامي مرآةً للعصور التي عاش فيها أولئك الوزراء ، فمن خلالها يتّضح حال العصر الذي كان يعيش فيه هذا الوزير أو ذاك ، ومن خلالها أيضاً تتبيّن أحوال الخلافة العبّاسيّة وأوضاعها في مختلف العهود ، سيّما وأنّ معظم

الوزراء عاش في بلاط الخلفاء ، فالحديث عن بعض الوزراء في العصر العبّاسي الأوّل في أيّام الخلفاء العظام أمثال "أبي جعفر المنصور" و "هارون الرشيد" و "المأمون" ، يُبْرز ما كانت تتميّز به الخلافة العبّاسية في ذلك العصر من قوّة ونفوذ ، وما كان لها من هيبة وشموخ ، ومن ذلك ما نراه – جليّاً – في كتاب «الوزراء والكُتّاب» للجهشياري. والحديث عن بعض الوزراء في العهود اللاحقة من العصر العبّاسي، مثل بعض وزراء الخليفة "المقتدر بالله" يكشف عمّا كانت تعيشه الخلافة من ضعف في تلك الفترة ، ومن ذلك ما نجده في كتاب «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» لأبي الحسن الصابئ .

وتتضمّن هذه المصنّفات أيضاً معلومات دقيقة وروايات مهمّة تتعلّق بالتاريخ الاقتصادي ، ولا سيّما في بعض العهود من العصر العبّاسي ، وتُبرز ما كانت تمرّ به الخلافة العبّاسيّة في بعض الفترات من استقرار ورخاء في الجوانب الاقتصادية ، وما كان يعصف بها أحياناً من أزمات في هذا المضمار ، وكيف كان موقف الوزراء منها .

كما تُبرز تلك المصنّفات ما كان لبعض الوزراء في العصر العبّاسي من أثر في معالجة كثير من المشكلات التي كانت تتعرّض لها الخلافة في بعض الفترات ، وذلك لما اتّصفوا به من الحنكة وبُعْد النظر ورجاحة العقل ، وما كان لفئة أخرى منهم من دور في خلْق بعض الأزمات ، بسبب ما كانوا يفتقرون إليه من الحكمة وسداد الرأي .

وتَبعاً لذلك نجد بعض تلك المصنّفات تتضمّن روايات تُبيّن مواقف عامّة الناس من بعض الوزراء في العصر العبّاسي ونظرتهم إليهم ، وكيف حَظِيَ عددٌ منهم بمكانة سامية في قلوب الناس ونالوا مدائح الشعراء ، فصاروا يُشيدون بمناقبهم ويُبرزون مآثرهم ويتغنّون بذكْر فضائلهم.. بينما اتّسمت نظرتهم إلى فئة أخرى من وزراء ذلك العصر بعدم التقدير .

وتضمّ بعض المصنّفات الخاصّة بسيَر الوزراء وأخبارهم معلومات مفصّلة تُبرز كثيراً من المواقف الدقيقة والمحاورات والمجادلات التي كانت تجري بين الخلفاء ووزرائهم من ناحية، وبين الوزراء وبعض مَن كانوا يختلفون إلى مجالسهم ويلتقون بهم من ناحية أخرى ، وهذه المعلومات تُشكّل مادّة تاريخية خصبة لا تتوافر في كثير من المصادر الأخرى .

كما تحوي هذه المصنّفات أيضاً روايات مفصّلة عن المنافسات التي كانت تجري بين بعض الوزراء وكبار رجالات البلاط العبّاسي، ممّن كانوا يطمحون إلى الوصول إلى منصب الوزارة في تلك العهود، أو كان بينهم وبين بعض الوزراء عداوات أو خلافات، وما قادت إليه تلك المنافسات من نكبات لبعض الوزراء العبّاسيّين في فترات مختلفة .

وتتضمّن بعض مصنّفات سيَر الوزراء وأخبارهم معلومات قيّمة تُبيّن مدى ثقافة بعض الوزراء وسعة علمهم، كما تشتمل هذه المصنّفات أيضاً على نصوص كثيرة من أحاديثهم ، وتُبرز ما كان يتمتّع به بعضهم من فصاحة في القول وبلاغة في المنطق ، كما تتضمّن طَرَفاً من نوادرهم وعجائب أخبارهم . ومن ذلك ما نقف عليه في كتاب «تحفة الوزراء» للثعالبي ، والذي يحتوي على نُبَذ من لطائف أقوال بعض الوزراء في العصر العبّاسي ، ومحاسن ألفاظهم ، وبديع كلامهم(٢٩٦) .

ونظراً إلى أنّ عدداً من الوزراء كان من أهل العلم ، مثل "أبي الحسن علي بن الفرات" ، و "أبي الفضل بن العميد" ، و "الصاحب بن عبّاد" ، و "عون الدين بن هُبيرة"، وغيرهم ، وكانت مجالسهم بمثابة منتديات علمية وثقافية ، فإنّ سيَرهم وأخبارهم تُبْرز جوانب مهمّة تتعلّق بالحياة العلمية في العصر العبّاسي .

وتضمّ مصنّفات بعض المؤرّخين في سيَر الوزراء

معلومات كثيرة عن الحياة الأدبية في العصر العبّاسي ، وتتردّد في ثناياها أسماء العديد من الشعراء ، المشاهير منهم والمغمورين ، ممّن كانوا يختلفون إلى مجالس الوزراء ويلتقون بهم ، من أمثال "أبي العتاهية" و "أبي دلامة" و"بشّار بن بُرد" و "مسلم بن الوليد" ، وغيرهم ، وما كانت تجود به قرائحهم من أشعار كثيرة ، في المديح والهجاء وغيرهما من أغراض الشعر وفنونه .

وتكتسب بعض مصنّفات سيَر الوزراء أهمّيةً خاصّةً، لما تنفرد به من مادّة علميّة وتاريخية قيّمة ، قلّ أن يوجد لها نظيرٌ في مصادر التاريخ الأخرى .. فنجد – مثلاً – في كتاب «الوزراء والكُتّاب» ، للجهشياري – فضلاً عن أخبار الوزراء – أسماء كُتّاب النبي ﷺ ، والخلفاء الراشدين والأمويّين والعبّاسيّين ، حتّى عهد الخليفة المأمون ، كما يحتوي هذا الكتاب على معلوماتٍ مهمّة تتعلّق بعهود الخلفاء وأخبارهم ، ممّا يعني أنّه مصدرٌ تاريخيٌّ مهمٌّ لفترة تاريخية تربو على قرنين من الزمن .

ويُعدّ كتاب «الوزراء والكُتّاب» أحد المصادر الرئيسة التي أرّخت لأسرة البرامكة ، التي ذاع صيتها وارتفعت منزلتها في أيّام الخليفة "هارون الرشيد" ، وهو بالتالي يتضمّن معلوماتٍ مفصّلة عن نكبة تلك الأسرة على يد "الرشيد" ، وأسبابها وظروفها ، تلك النكبة التي ظلّت لُغزاً مُحيّراً للمؤرّخين على مدى الأيّام .

كما يتضمّن روايات مهمّة وحقائق تاريخية لا توجد في كتب التاريخ الأخرى ، تتعلّق بالوزارة والوزراء ، وحياة القصور ومظاهر الترف واللهو في أيّام بعض الخلفاء ، ولا سيّما في العصر العبّاسي .. وهو أيضاً يحتوي على معلوماتٍ عن بعض مظاهر الحضارة الفارسيّة التي استفادها المسلمون من الفرس ، مثل : نُظم الإدارة ، والخراج ، والدواوين ، ونحوها(٢٩٧) .

ويتّسم كتاب «أخلاق الوزيرَين» لأبي حيّان التوحيدي بأهمّية تاريخية كبيرة بصفة خاصّة ؛ وذلك لكون " أبي حيّان " شاهد عيان لكثير ممّا سطّره في مصنّفه من حوادث ومواقف ، فهو يتحدّث عن أمور جرت في أيّامه ، شاهدها ورآها بأمّ عينه .

وحيث إنّ الوزيرَين "ابن العميد" و "ابن عبّاد" – واللذين تحدّث عنهما "التوحيدي" في كتابه – كانا من وزراء الدولة البويهيّة ، فإنّ كتاب «أخلاق الوزيرين» يُعدّ مصدراً مهمّاً من مصادر التاريخ البويهي ، سيّما وأنّه يشتمل على معلومات وروايات كثيرة تُسلّط الضوء على جوانب مهمّة تتعلّق بالحياة السياسية والإدارية والعلمية في أيّام البويهيّين .

كما يتضمّن معلومات مفصّلة تتعلّق ببعض المناظرات العلمية ومجالس الجدَل التي كان تُعقد في بعض بلدان المشرق الإسلامي في زمن "أبي حيّان التوحيدي" (القرن الرابع الهجري) ، وكان يحضرها العديد من العلماء والأدباء في ذلك العصر(٢٩٨) ، ممّا يُسهم في إلقاء الضوء على جانبٍ مهمّ من جوانب الحياة العلمية في تلك العهود .

ويشتمل كتاب «أخلاق الوزيرين» أيضاً ، على أسماء كثير من العلماء والأدباء والشعراء ، كما يضمّ أسماء العديد من الساسة والوزراء والولاة وأخبارهم ، ولاسيّما أولئك الذين عاصرهم " أبو حيّان " ممّن عاش في القرن الرابع الهجري ، وهو ما يُسهم في إلقاء أضواء مهمّة على جوانب عديدة تتّصل بالحياة السياسية والإدارية والعلمية في المشرق الإسلامي في تلك الفترة التاريخية .

كما يشتمل أيضاً على معلومات وإشارات كثيرة ومهمّة عن بعض المذاهب والملل التي كانت منتشرةً في المشرق في تلك العهود ، وعن أسماء العديد ممّن كانوا ينتحلون تلك المذاهب ، وهو ما يُسهم أيضاً في إلقاء أضواء على الحياة الدينية والمذهبيّة في بلاد المشرق

الإسلامي في زمن كان يموج بمذاهب ونحل مختلفة .

وعلى الرغم ممّا يتّسم به كتاب «أخلاق الوزيرين» من مبالغةٍ في الحطّ من قدر الوزيرَين المذكورَين "ابن العميد" و"ابن عبّاد" ، إلاّ أنّه يكشف في الوقت ذاته عن العديد من الجوانب السلبية في سيرتيهما وفي تاريخ وزارتيهما ، على نحو لا يمكن الوقوف على مثيل له في مصادر التاريخ الأخرى ، والتي غالباً ما تجنح إلى تسليط الضوء على الجوانب الإيجابية في حياتهما .

ويُعدّ كتاب «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» للصابئ، مصدراً تاريخيّاً مُهمّاً لفترة تُعتبر من أكثر الفترات اضطراباً في تاريخ الخلافة العبّاسيّة ، وهي عصر الخليفة "المقتدر بالله" . ومع أنّ "الصابئ" لم يكن معاصراً للوزراء الذين تحدّث عنهم ، ولا للحوادث التي سطّرها في مصنّفه ، بل إنّه دوّن كتابه بعد ما يربو على قرن من الزمن من أيّام "المقتدر" ، إلاّ أنّه ذكر فيه معلوماتٍ مفصّلة ودقيقة عمّا كان يدور في البلاط العبّاسي في تلك الفترة ، قلّ أن يوجد لها نظيرٌ في المصادر الأخرى .

لقد خصّص "الصابئ" القسم الأكبر من كتابه «تحفة الأمراء ..» للحديث عن الوزير "أبي الحسن علي بن محمد ابن الفرات" ، وعن أيّام وزارته – كما ذكرنا من قبل – وجاء حديثه عن هذا الوزير مفصّلاً ودقيقاً ، حتّى أضحى كتابه بمثابة سيرة شاملة لحياته وسجلاً حافلاً بأخباره ، كما ساق معلومات تاريخية قيّمة عن أسرته «بني الفرات» ، وعن بداية ظهورهم وعلوّ أمرهم في البلاط العبّاسي(٢٩٩) . ولذا يُعدّ كتاب «تحفة الأمراء» مصدراً رئيساً لتاريخ تلك الأسرة التي اشتهرتْ في العصر العبّاسي الثاني .

الخاتمة :

وبعد ؛ فقد كشفت هذه الدراسة عن نتائج عديدة ، أهمّها ما يلي :

– تبيّنَ لنا من خلال هذه الدراسة أنّ سيَر الوزراء وأخبارهم قد حظيتْ باهتمام جمْع من مشاهير المؤرّخين في العصر العبّاسي، مثل : "الجهشياري" و "أبي بكر الصولي" و "المرزباني" و "الصاحب بن عبّاد" و "أبي حيّان التوحيدي" و "أبي منصور الثعالبي" و "أبي الحسن الصابئ" و "ابن ماكولا" و "ابن الجوزي" و "ياقوت الحموي" و "ابن الساعي" .. كما نالت أيضاً اهتمام ثُلّة من المؤرّخين المغمورين ، مثل : " أبي حفص بن الأزرق الكرماني" و"إبراهيم بن موسى الواسطي" و "ابن الماشطة" و "أبي الحسن المطوّق" و "ابن المارستانية" ، وغيرهم .

– أوضحت هذه الدراسة أنّ معظم مصنّفات سيَر الوزراء وأخبارهم في المشرق الإسلامي ، هو في عِداد المفقود ، فبينما نقف فقط على أربعة مصنّفات نجت من الضياع ، نجد أنّ هناك ما يُقارب العشرين مصنّفاً قد ضاعت ، ولا نعرف من مضامينها إلاّ ما ذكره بعض المؤرّخين الذين اطّلعوا عليها في العصور الخالية ، وأفادوا منها في مؤلّفاتهم .

– اشتملتْ معظم مصنّفات سيَر الوزراء وأخبارهم في المشرق الإسلامي خلال العصر العبّاسي على سيَر جمْع من الوزراء ، بينما اقتصرتْ فئةٌ يسيرةٌ منها على أخبار عددٍ محدّدٍ منهم ، كالوزراء البرامكة ، وتناولتْ شريحةٌ أخرى أقلّ سيرة وزير واحد من مشاهير الوزراء العبّاسيّين وأعلامهم .

– كشفتْ هذه الدراسة عن أنّ بعض مصنّفات سيَر الوزراء وأخبارهم التي دوّنها المؤرّخون في المشرق الإسلامي خلال العصر العبّاسي ، هي ذيولٌ للبعض الآخر منها ، فقد ذيّل "أبو العبّاس الثقفي" في مصنّفه «الزيادة في أخبار الوزراء» على كتاب «الوزراء» لـ " محمد بن داود ابن الجرّاح " ، كما أشارت بعض الروايات إلى أنّ كتاب «الوزراء» لـ "أبي الحسن المطوّق" هو أيضاً صلةٌ لكتاب «الوزراء» لـ "ابن الجرّاح" .

وذيّل "أبو الحسن هلال بن المحسّن الصابئ" في كتابه «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» على كتاب «الوزراء والكُتّاب» للجهشياري ، كما ذيّل على كتاب «تحفة الأمراء» للصابئ ، "أبو الحسن الهمذاني" في كتابه «أخبار الوزراء» ، وذيّل أيضاً "أبو طالب علي بن أنجب البغدادي"، المعروف بـ «ابن الساعي» في كتابه «أخبار الوزراء» على كتاب «الوزراء» ، لـ "الصاحب بن عبّاد" .

– اشتمل القرن الرابع الهجري بوجهٍ خاصٍ على أكبر عدد من المؤرّخين الذين عُنوا بتدوين سِيَر الوزراء في المشرق الإسلامي ، حيث بلغ عددهم أحد عشر مؤرّخاً . ولم يكن ذلك غريباً ، فقد كان القرن الرابع هو القرن الذهبي لتدوين التاريخ الإسلامي ، بل ولتدوين سائر العلوم والمعارف ، ليس في بلاد المشرق فقط ، بل في مختلف البلدان الإسلامية .

– حظيَ وزراء الخليفة العبّاسي "المقتدر بالله" (٢٩٥ – ٣٢٠هـ/ ٩٠٨ – ٩٣٢م) باهتمام كبير من قِبَل المؤرّخين الذين صنّفوا في سِيَر الوزراء وأخبارهم في المشرق الإسلامي ، ويُعزى ذلك في الغالب إلى أنّ عدداً من أولئك المؤرّخين كان معاصراً لعهد الخليفة "المقتدر" ، وإلى كثرة عدد الوزراء الذين وَلّوا في عهده – حيث بلغوا اثنا عشر وزيراً – وتولّي بعضهم الوزارة أكثر من مرّة . هذا فضلاً عمّا شهده ذلك العهد من اضطرابات وقلاقل في البلاط العبّاسي ، كان لبعض الوزراء أثرٌ فيها .

– حظيَتْ أسرة "البرامكة" – التي تولّى عددٌ من أبنائها الوزارة في العصر العبّاسي الأوّل – باهتمام ثُلّة من المؤرّخين في المشرق الإسلامي ، فأفردوا في أخبارها ثلاثة مصنّفات ، وهي كتاب «أخبار البرامكة» ، لابن الأزرق الكرماني ، وكتاب «أخبار البرامكة» ، للمرزباني ، وكتاب «أخبار البرامكة» ، لابن الجوزي ، كما نال الوزراء البرامكة اهتماماً كبيراً من بعض المؤرّخين الذين دوّنوا أخبار الوزراء عامّة ، ومنهم "الجهشياري" ، الذي خصّص للحديث عنهم صفحات طويلة في كتابه «الوزراء والكُتّاب» .

– لم تنل السِّيَر المفردة للوزراء اهتماماً كبيراً من جانب المؤرّخين في المشرق الإسلامي خلال العصر العبّاسي ، حيث لا نقف إلاّ على كتابين فقط تناول كلٌّ منهما سيرة وزير واحد فحسب من أعلام الوزراء ، وهما : كتاب «مناقب علي بن الفرات» ، لـ "أبي بكر الصولي" ، وكتاب «سيرة الوزير ابن هُبيرة» ، لـ "ابن المارستانية" .

– تباينتْ مصنّفات سِيَر الوزراء وأخبارهم من حيث الإطناب والاقتضاب، فنجد بعضها يُسهب في الحديث عن الوزراء وعمّا يرتبط بهم من حوادث وأخبار ، مثل كتاب «الوزراء والكُتّاب» ، للجهشياري ، وكتاب «تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء»، للصابئ ، بينما يتّسم بعضها بالاختصار في الحديث عنهم ، مثل كتاب «تحفة الوزراء» ، للثعالبي .

– تبيّن لنا في هذه الدراسة أنّ مصنّفات سِيَر الوزراء في المشرق الإسلامي ، لم تقتصر على سِيَر وزراء الدولة العبّاسيّة وأخبارهم فحسْب ، بل اشتملتْ أيضاً على أخبار وتراجم لوزراء بعض الدويلات الأخرى في المشرق ، كالدولة السامانية ، والدولة البويهيّة ، وغيرها .

– تضمّنتْ عشرات المصادر التاريخية – ولا سيّما كتب التراجم – معلومات مهمّة وروايات واسعة ، مقتبسة من عدد من المصنّفات المفقودة في سِيَر الوزراء وأخبارهم، ومن تلك المصادر : كتاب «تاريخ مدينة دمشق» ، لابن عساكر ، وكتاب «معجم الأدباء» ، لياقوت الحموي ، وكتاب «بُغية الطلب في تاريخ حلب» ، لابن العديم الحلبي ، وكتاب «وفيات الأعيان» ، لابن خلّكان ، وكتاب «الذيل على طبقات الحنابلة» ، لابن رجب الحنبلي ، وغيرها .

أطفالنـــا والمكتبـــات

عبدالعزيز بن محمد المسفر

قسم علوم المكتبات والمعلومات - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

مقدمة :

الاهتمام بالأطفال والشباب ، وما يُقدم لهم من رعاية وخدمات بناءة ، وأنشطة هادفة ، يختلف من دولة لأخرى باختلاف تقدمها ، ونموها ، وارتفاع نسبة التعليم والوعي فيها . ولا شك أن الدول التي تولي بناء الأطفال والشباب أهمية قصوى هي دول أدركت ببعد نظرها ، وثاقب بصيرتها ، وعن وعي قوي ، وقناعة راسخة ، أهمية دورهم في مستقبل الأمة، وبناء الوطن ، ورفع شأنه ، وإعلاء مكانه بين الشعوب ؛ موقنة أن رجال الحاضر هم أطفال الماضي ، وأن أطفال اليوم هم شباب الغد ، ورجال المستقبل ، وهم الأمل والرجاء - بعد الله - بمستقبل زاهر ، تنعم فيه الأمة بالأمن والخير والرخاء .

نعم ، إنهم يلعبون دوراً قوياً ، بل ومؤثراً إما في تقدم الأمة ورقيها وسعادتها ، أو في انحطاطها وشقائها . من هنا جاءت المسؤولية كبيرة في حجمها ، عظيمة في تأثيرها ونتائجها ؛ فكما أنهم هدف لأولياء الأمور في البيوت ومؤسسات التعليم والمجتمع ؛ يسعون لتوعيتهم ، وتثقيفهم ، وإعدادهم الإعداد السليم والصحيح لما فيه مصلحتهم ومستقبلهم ، بل ومستقبل أمتهم وأوطانهم ؛ فإنهم ، أيضاً ، هدف للأعداء من الشياطين وأعوان الشياطين ، الذين يسعون هم الآخرون لدور معاكس تماماً ؛ هو إنهاكهم ، وتحطيمهم وإذلالهم ، وإضعافهم روحياً ، وخلقياً ، ومادياً ، وصحياً .

إن مهمة إعداد أطفال اليوم وشبابه ، وتربيتهم ، ليست سهلة ، ولا هينة ، ولكنها في الوقت نفسه واجب ديني ، ومطلب وطني ؛ وهي ليست مسؤولية الوالدين فحسب ، بل هي مسؤولية المجتمع كله ؛ فالبيت مسؤول ، ومؤسسات التربية والتعليم مسؤولة ، والسلطة مسؤولة ؛ كل حسب موقعه وواجباته .

لقد حثَّ ديننا الإسلامي الحنيف على الاهتمام بالنشء الجديد، وحمَّلنا مسؤولية عظيمة تجاهه منذ ولادته؛ فكل راع مسؤول عن رعيته ؛ وما الوصايا التربوية التي وردت في القرآن الكريم على لسان لقمان وهو ينصح ويعظ ابنه إلاّ النموذج المثالي الذي ينبغي تطبيقه، والحذو حذوه .

إن الاهتمام بالأطفال والشباب الذي يبدو في العالم العربي اليوم رغم ضعفه ، بل وتفاوته بين دولة وأخرى ليس وليد الصدفة ، أو نتيجة الحضارة الحديثة ؛ بل كان موجوداً منذ فجر الإسلام ؛ إذ حمّل ديننا الحنيف أولياء الأمور مسؤولية إرشاد أطفالهم ، وتأديبهم ، وتوجيههم التوجيه السليم ؛ في كل ما من شأنه صلاح دينهم ودنياهم. إذن فللطفل المسلم حقوق حفظها له دينه ، وعلى رأسها التربية السليمة ، والتعليم النافع ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً...﴾ (1) والوقاية هنا تعني حماية الطفل بتأديبه ، وتربيته تربية إسلامية ، وتعليمه محاسن الأخلاق ، وتحذيره من قرناء السوء . قال صلى الله عليه وسلم : "أكرموا أولادكم، وأحسنوا تربيتهم "(2). وقد أدرك المسلمون الأوائل رحمهم الله قيمة السنوات الأولى من حياة الطفل ، وأهميتها في بناء شخصيته. يقول ابن قيم الجوزية : "من أهمل تعليم ولده ما ينفعه ، وتركه سدى ، فقد أساء إليه غاية الإساءة"(3).

إن تربية الأطفال وتعليمهم إنما هو حق من حقوقهم التي شرعها الإسلام ؛ بدءاً من مرحلة الرضاعة ومرحلة الطفولة المبكرة ، التي تعتبر الأساس والقاعدة التي يُشاد عليها البنيان ؛ إذ هي أهم عهود الغرس الطيب الذي يُرشح لأفضل حصاد[٤] . من هنا نجد أن الالتزام بتربية الأطفال هو واجب ديني قبل أن يكون واجباً وطنياً . وإذا كانت الأسرة الصغيرة (الوالدان) مسؤولة عن أطفالها ؛ باعتبارها المؤسسة التربوية الأولى ؛ فإن الأسرة الكبيرة (المجتمع) عليها مسؤولية هي الأخرى ؛ كما أن الدولة تتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية ، عملاً بقول النبي ﷺ: "ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته"[٥]؛ ذلك أن الدولة هي التي توجه التربية والتعليم في مؤسسات التعليم الحكومية، بل وتختار لها المعلمين والمعلمات ؛ كما أن بيدها وتحت تصرفها إمكانات الوطن المادية ، وتحت إشرافها أيضاً وتوجيهها وسائل الإعلام بكافة أشكالها وأنواعها المسموعة والمرئية والمقروءة. إن تكاتف جهود الأسرة ، مع جهود المجتمع والدولة يصون – بعون الله وتوفيقه – الأطفال والشباب ، ويحميهم من الزلل والانحراف ، ويهيئ لهم نشأة صالحة وسليمة ، تحقق لهم جملة من القيم الأخلاقية ، والصفات السلوكية الحميدة . ولنا في سلوك السلف في مجال التربية أسوة ينبغي الاقتداء بها ؛ فقد روي أن عتبة بن أبي سفيان قال لعبدالصمد ، مؤدب أولاده : " ... وعلمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه"[٦].

ويقول ابن خلدون : "اعلم أن تلقين العلوم إنما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً ، وقليلاً قليلاً ..."[٧]. ويُقال إن هارون الرشيد أرسل ابنه الأمين إلى المؤدب ؛ فقال مندوب الخليفة للمؤدب : " إن أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه... أقرئه القرآن ، وعرّفه الأخبار ، وروّه الأشعار ، وعلّمه السنن ، وبصّره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلاّ في أوقاته... ولا تمرّن بك ساعة إلاّ وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تُمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ..." [٨]. وقال عبدالملك بن مروان ينصح مؤدب أولاده : "علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، واحملهم على الأخلاق الجميلة ، وروّهم الشعراء ... وجالس بهم أشراف الرجال وأهل العلم، وجنّبهم السفلة فإنهم أسوأ الناس أدباً... ووقرهم في العلانية ، وأنّبهم في السر ..."[٩] .

إن الدول العربية تعلم علم اليقين أن تأديب أطفال المجتمعات العربية ، وتربيتهم التربية السليمة ، ليست وقفاً على زمن دون آخر ؛ بل هي قائمة ومستمرة إلى أن تقوم الساعة . وإذا كان أطفالنا في الماضي بحاجة إلى التربية الإسلامية الواعية ؛ فإنهم في وقتنا الحاضر أشد حاجة إلى هذه التربية . يقول محمد سالم: "إن طلب العلم ليس وقفاً على جنس دون آخر ، بل هو قدر مشاع ، ومصلحة لكل من يتنسم نسمات الحياة ، والمجتمع الذي ينشأ أفراده على وعي ومعرفة ، وهدى وبصيرة هو المجتمع الحق ، الذي ينهض به أفراده وينهض هو بأفراده "[١٠]. من هنا نجد المسؤولية عظيمة ، وحملها ثقيل ، ولكن لا بد من تحملها ومن الجميع ، كل حسب طاقاته وقدراته وإمكاناته؛ فأطفالنا أمانة في أعناقنا أمام الله ، بل ومحاسبون على أي تقصير في حقوقهم . إن طفل اليوم يواجه تحديات جسيمة ، ومخاطر كبيرة ؛ فالحياة صارت أكثر صعوبة ، والتقنيات الجديدة أخذت تغزو الإنسان في عقر داره ؛ فالأطباق تنقل إلى البيوت الكثير من البرامج الهابطة ، وهي بالطبع متاحة للأطفال ؛ كما أن الاتصالات الحديثة عبر الهاتف ، وشبكات الإنترنت ، وغيرها تُشكّل هي الأخرى تهديداً لمستقبل أطفالنا وشبابنا ما لم يكن هناك وعي وإدراك ، وتربية سليمة ، وتوجيه سديد ، يُحصّنهم – بإذن الله – من الوقوع في المخاطر

والمحذورات . إن الطفل إنسان ، والإنسان روح وجسد ، وأحاسيس ومشاعر ؛ وهو قابل للتأثر ؛ وإذا كان الكبار قادرين - كما يُفترض - على التمييز بين الجميل من القبيح ، والغث من السمين ، والصالح من الطالح ؛ فإن الطفل قد لا يكون قادراً على ذلك ، خاصة أن الدراسات النفسية تؤكد أن تكييف الطفل في سنه المبكر يؤثر إلى حد كبير في علاقته بالأشياء .

التمهيد بهذه المقدمة عن أهمية تربية الأطفال ، وعن حقوق أطفالنا التي كفلها لهم الدين الأسلامي الحنيف يقودنا إلى الحديث عن المكتبات التي تخدم الأطفال ، لقدرتها على المساهمة الفعالة في توجيه الأطفال ، وتوعيتهم ، وشغل فراغهم بما يحقق لهم - بعون الله وتوفيقه - الحماية من الوقوع في المصائد التي تنصب لهم، والمؤامرات التي تُحاك ضدهم وضد مستقبلهم ؛ ولكن قبل الحديث عن هذا النوع من المكتبات ، ينبغي أن نُعرِّف من هو الطفل .

تعريف الطفل :

الطفل مفرد ، وجمعها أطفال ؛ والطفل هو الصبي من حين يولد إلى أن يحتلم . قال الإمام النووي : "الطفل والطفلة هما الصغيران ما لم يبلغا" [11] . وورد في لسان العرب أن الصبي يُدعى طفلاً من حين يسقط من بطن أمه إلى أن يحتلم" [12].

يُقسّم علماء النفس مراحل نمو الطفل على النحو التالي:

١ - مرحلة المهد ، أو الرضاعة ؛ وهذه تبدأ من يوم ميلاد الطفل وحتى بلوغه السنة الثانية .

٢ - مرحلة الطفولة المبكرة ؛ وتبدأ من السنة الثالثة وحتى الخامسة .

٣ - مرحلة الطفولة النامية ؛ وتبدأ من السنة السادسة وحتى بدء البلوغ .

٤ - مرحلة البلوغ ؛ وتبدأ من السنة الثانية عشرة حتى الخامسة عشرة .

٥ - مرحلة المراهقة ؛ وتبدأ من الخامسة عشرة وحتى الثامنة عشرة [13] .

وبالرغم من أهمية كل مرحلة من هذه المراحل ، إلاّ أن المرحلة الثانية ، والتي تقع بين سن ٣-٥ سنوات تُعتبر بحق أهم المراحل ؛ فهي مرحلة الاستعداد ، التي فيها يتم التأسيس ؛ إذ إلى جانب قدرة الطفل في هذه المرحلة على التعرف إلى الحروف والأرقام ؛ فإن باستطاعته تكوين كلمات وجُمل مفيدة . لهذا فالأطفال بأمس الحاجة إلى الرعاية السليمة ، والتوجيه السديد ؛ خاصة وأن لديهم القابلية للتوجيه والتعليم ؛ فينبغي والحالة هذه أن نغرس في نفوسهم في مراحل الطفولة الأولى حب القراءة ، وحب أوعية المعلومات ، وإدراك أهميتها وفوائدها وكيفية الاستفادة منها ؛ وهذا لا يتأتى أو يتحقق بالأماني والأقوال ، بل بالأفعال البناءة والمثمرة ، ومنها إقامة المكتبات التي يُمكن أن يرتادها ويستفيد منها الأطفال والشباب ، وتزويدها بكل ما تحتاجه من أوعية المعلومات المناسبة لمستوياتهم التعليمية ، وقدراتهم الذهنية ، وميولهم القرائية ، واحتياجاتهم المعرفية والثقافية ؛ مع مراعاة ألاّ يكون في هذه الأوعية ما يتعارض وتعاليم ديننا الحنيف ، أو عاداتنا وتقاليدنا العربية الإسلامية الأصيلة ، بل ما يُحقق الأهداف المرجوة منها ، وهي إثراء حصيلتهم المعلوماتية ، وزيادة معرفتهم بالقيم الروحية والفكرية والإنسانية والاجتماعية ؛ هذا إلى جانب توفير العديد من الخدمات والأنشطة الضرورية والبناءة والتي تهدف في مجموعها إلى تعزيز فرص الاستفادة الحقة من المكتبات باستخدامها الاستخدام الأمثل والمثمر ، مما يعود عليهم بالنفع والفائدة ، وتكوين جيل على قدر كبير من الوعي والإدراك والعلم والثقافة .

مكتبات الأطفال :

يُحظى الأطفال في كثير من الدول بخدمات مكتبية مختلفة ، وأنشطة عديدة تُسهم في بنائهم بناءً سليماً ، ومتوازناً ؛ سواء من الناحية العلمية ، أو الثقافية ، أو النفسية ، أو الاجتماعية ؛ هذا إلى جانب آخر وهو تخليصهم من براثن اللهو الرخيص ، ومزالق الانحراف والفساد الذي ينجم - عادة - عن الفراغ .

المكتبات التي تُسهم في خدمة الأطفال هي :

أولاً : المكتبات المنزلية :

المكتبات المنزلية هي ما تُسمى بالمكتبات الخاصة ، وهي مكتبات ينشؤها الأشخاص - عادة - في منازلهم. ومكتبة المنزل تعكس - في الغالب الأعم - اهتمامات الأب، أو الأم ، أو كليهما . هذا لا يعني أنه لا توجد مكتبات منزلية لا تُستخدم ، ولا يُستفاد منها . نعم ، يوجد مكتبات خاصة يكون الغرض الأساسي من تكوينها الزينة ، أو التباهي ؛ ومثل هذه المكتبات لا تحقق فائدة ترجى منها لأهل المنزل .

الطفل بطبيعته فضولي ، ويُحب التقليد ، وأقرب الناس اليه ، وأكثرهم التصاقاً به، وتأثيراً عليه هما والداه؛ فهما مثله الأعلى ؛ ومن هنا نرى أهمية تكوين مكتبات منزلية مهما كان حجمها ؛ شريطة أن تُستخدم بشكل واضح وفعال ، وأن يكون للطفل فيها نصيب مناسب ؛ إذ أن المكتبة المنزلية هي المكتبة الأولى التي يفتح الطفل عينيه عليها ؛ على أنه ينبغي اختيار أوعية المعلومات الخاصة بالأطفال بعناية ؛ فلا يجوز اقتناء ما هب ودب . أيضاً لا بد من تعويدهم على الاستفادة من أوعية معلومات هذه المكتبة، ومساعدتهم في القراءة ، وحكاية القصة ، ومناقشتهم فيما سمعوه ، أو قرأوه ؛ وتوجيههم التوجيه السديد في كيفية استخدام الأوعية ، والتعامل السليم معها، وأهمية احترامها ؛ لتظل سليمة تتجدد الاستفادة منها . وكما أشرت آنفاً فالوالدان هما القدوة ؛ وهذا يؤكد أهمية ، بل وضرورة استخدام الوالدين للمكتبة بصفة منتظمة .

المكتبات المنزلية (الخاصة) كانت منتشرة في جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي منذ القرون الأولى للهجرة النبوية ؛ فقد كان للخلفاء في العهد الأموي ، والعباسي ، والفاطمي ، مكتبات خاصة ؛ كما كان الوزراء ، والولاة، والأغنياء ، والعلماء ، والأدباء يهتمون بتكوين مكتبات خاصة بهم ؛ وهذا الاهتمام يعكس - غالباً - حبهم للعلم والعلماء، وحرصهم على الاستفادة من مؤلفاتهم ، وإنتاجهم العلمي ؛ وهو دليل واضح وجلي على نمو الوعي عندهم ؛ وبالتالي إدراكهم لأهمية أوعية المعلومات ، ونعني بذلك الكتب ، وضرورة توافرها للاستفادة منها .

تلك الظاهرة التي كانت موجودة ، بل ومنتشرة في صدر الإسلام ، وهي تكوين مكتبات منزلية ، لا نجد لها اهتماماً يُذكر عند الكثيرين من أبناء الجيل الحاضر . نعم، يوجد في الوقت الحالي مكتبات خاصة ؛ إلاّ أنها - مع الأسف الشديد - قليلة ، ولا يمكن مقارنتها بما كان في صدر الإسلام ؛ كما أن معظم المكتبات القائمة حالياً لا يستفيد منها أفراد الأسرة الفائدة المرجوة . أيضاً فإن أغلب المكتبات المتوفرة حالياً هي مكتبات صغيرة مقارنة بمكتبات صدر الإسلام ؛ كما أن معظم محتوياتها خاصة بالكبار ، ونادراً ما يكون للأطفال نصيب يذكر فيها ؛ وهذا هو الخطأ الجسيم الذي ينم عن جهل ، أو تساهل بتربية الأطفال ، وأهمية تعويدهم على القراءة والاستفادة من أوعية المعلومات ؛ مع أن الإسلام قد ميّز بين العالم والجاهل ؛ وحمّل الوالدين مسؤولية كبيرة حيال تربية وتعليم أبنائهم ؛ خاصة أنهم - أي الأطفال - غير مدركين ، وبالتالي فهم بأمسّ الحاجة إلى التوجيه السليم ، والتعليم الهادف والبناء ؛ فالأطفال أمانة في الأعناق ،

وبالتالي فمثلما يحتاجون إلى تغذية بدنية تتوافر فيها معظم المقومات الصحية للجسم السليم إن لم يكن كلها ، فهم أيضاً يحتاجون إلى التغذية الفكرية التي تنمي عقولهم، وتشحذ أفكارهم ، وتصقل مواهبهم ؛ وهذا لعمري لا يتأتى إلاّ بالتعليم ، والتوجيه ، واختيار أوعية المعلومات التي تلبي هذه الاحتياجات وتوفيرها ، وجعلها في متناول أيديهم في المكتبة المنزلية .

ثانياً : المكتبات العامة :

المكتبات العامة تُقدم خدماتها - كما هو واضح من عنوانها - لجميع فئات المجتمع؛ بما في ذلك الأطفال الذين يُشكلون شريحة كبيرة ، بل ومهمة من المجتمع ، وبالتالي ينبغي أن يُحسب لهم ألف حساب ، وأن يكون لهم نصيب وافر في أوعيتها، وخدماتها، وأنشطتها . يقول محمد فتحي عبدالهادي : "والمكتبات العامة تُقدم خدماتها للأطفال من منطلق أن المكتبة العامة خدمة عامة تؤديها الدولة لكل أبنائها صغاراً وكباراً ... ، بل ويُعدّ إنشاء مكتبات الأطفال من المهام الوطنية في كثير من الدول..."[١٤] .

تهتم المكتبات العامة بجميع مجالات المعرفة ، ولها أربع وظائف أساسية ، هي :

١ - الوظيفة التثقيفية .

٢ - الوظيفة التعليمية .

٣ - الوظيفة الإعلامية .

٤ - الوظيفة الترويحية .

وبالنسبة للأطفال فإن للوظيفة التعليمية في المكتبة العامة جانبين أساسيين ؛ الجانب الأول هو دورها في استقبال الأطفال قبل سن الالتحاق بالمدرسة ؛ والجانب الثاني هو توفير أوعية المكتبة وإتاحتها ، وخدماتها ، وأنشطتها لتلاميذ المدارس حينما لا توفر المكتبة المدرسية هذه الأشياء لسبب من الأسباب ؛ كأن تكون مغلقة في الفترات المسائية ، أو العطل الرسمية ، أو حين لا يكون هناك أصلاً مكتبة مدرسية .

إن خدمات المكتبات العامة للأطفال ليست حديثة . تقول نعمات مصطفى بأن المكتبة العامة ظلت ولفترة طويلة المؤسسة التثقيفية الوحيدة التي تقدم خدماتها للأطفال[١٥].

المكتبات العامة تستقبل الأطفال في سنهم المبكرة ، أي قبل سن الدراسة ؛ فهم يأتون إليها وهم في السنة الثالثة من العمر ، أو حتى قبل هذه السن ، وذلك بصحبة الأب ، أو الأم . وفي هذه السن المبكرة تُغرس فيهم عادة التردد على المكتبة العامة لاستخدامها والاستفادة من مقتنياتها وخدماتها وأنشطتها . إن الأطفال الصغار وإن لم يكونوا قادرين على القراءة ؛ فإنهم يُمارسون اللعب ببعض أدوات التسلية البريئة المتوفرة في المكتبة ، أو يُشاهدون أفلاماً هادفة ، أو يستمعون لقصص خاصة بهم تحكى لهم من قبل أشخاص يتقمصون شخصيات أبطال القصص ، ويحكون فصولها أمام الأطفال بلغة بسيطة وواضحة ، تتناسب وقدراتهم الذهنية . أيضاً يتعوّد الأطفال في هذه السن المبكرة على كثير من الخصال الحميدة ؛ كالهدوء ، وحُسن الإصغاء ، واحترام مشاعر الآخرين وحقوقهم ؛ هذا إلى جانب استعارة بعض القصص القصيرة والمصورة بواسطة آبائهم ، أو أمهاتهم؛ حيث يتولى الأب ، أو الأم في المنزل قراءة هذه القصص لهم ، ومناقشتهم فيها .

ومن الفوائد التي يجنيها الأطفال من المكتبات العامة هو غرس حب المكتبة العامة ، وعادة التردد عليها ؛ فيكبر الطفل ويكبر معه حبه لها ، واحترامه لرسالتها ، وتقديره لخدماتها ؛ ذلك أنه سيتذكر فيما بعد أنها المكتبة الوحيدة التي استقبلته طوال مراحل طفولته، وأنها لا تزال تفتح أبوابها له فيما تبقى من عمره ، حتى وإن كان شيخاً

كبيراً ، طالما أنه قادر على الاستفادة منها .

معظم المكتبات العامة في المملكة العربية السعودية وفي العالم العربي لا تهتم – مع الأسف الشديد – كثيراً بالأطفال ، ولا تفكر في احتياجاتهم ، وبالتالي نجدهم شبه مغيبين من حساباتها ، الأمر الذي جعل الأطفال أنفسهم لا يرتادونها، لأنهم لا يجدون فيها قبولاً لهم ، أو لأنه لا يتوفر فيها ما يتناسب واهتماماتهم ؛ بل إن بعض المكتبات لا تسمح لهم بارتيادها؛ على أنه يُمكن أن يُستثنى من هذا القول بالنسبة للمملكة العربية السعودية مكتبتان ؛ الأولى مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض ، والتي أخذت في الآونة الأخيرة تبذل جهوداً طيبة وموفقة لخدمة الأطفال ، حيث أنشأت مكتبتين خاصتين بالأطفال الصغار ملحقتين بالمكتبتين النسائيتين في كل من المكتبة المركزية شرق الرياض ، وفي الفرع الحديث في منطقة المربّع وسط مدينة الرياض . أما المكتبة الثانية التي تخدم الأطفال بالرياض فهي مكتبة الطفل التابعة لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ؛ إلاّ أنه يؤخذ على مكتبات الأطفال هذه صغر حجمها ، وقلة أوعيتها ، واقتصارها على الأطفال الذين لا تتجاوز أعمارهم عشر سنوات ؛ وهذا يعني أن الأطفال الذين تتجاوز أعمارهم هذا السن ليس لهم نصيب في مقتنياتها وخدماتها ، وبالتالي فهذه الشريحة الكبيرة من الأطفال محرومة من أي خدمات مكتبية عامة .

ثالثاً : المكتبات المدرسية :

المكتبات المدرسية هي أكثر أنواع المكتبات عدداً ، وأوسعها انتشاراً . وتُقدم خدماتها للأطفال منذ التحاقهم بالمدرسة ، وتُشكل عنصراً هاماً وأساسياً في العملية التعليمية ؛ لأن معظم مقتنياتها يدعم بالدرجة الأولى المناهج الدراسية ، أو هكذا يُفترض ؛ لكنها تُشارك المكتبات العامة في تحمل مسؤولية العمل المباشر في كثير من احتياجات الطفل التثقيفية ، والتربوية ، والترويحية ؛ بحيث يكتسبون العديد من الخصال الحميدة، والعادات الحسنة ، والقيم الإيجابية ؛ كاحترام الآخرين ، والإيثار ، والتعاون ، والنظام ؛ كما تزرع فيهم المنافسة البناءة في القراءة ، واكتساب المعلومات ؛ باعتبار ذلك أهم وسائل كسب المعرفة، وزيادة التحصيل العلمي، والتكوين الثقافي. لكن المكتبة المدرسية تتميز عن العامة في أنها تقدم خدماتها إلى مجموعة متجانسة من المستفيدين ، الذين يمكن تحديد احتياجاتهم وفقاً للمستوى العمري من ناحية، والمستوى التعليمي من ناحية أخرى ؛ كما يُمكن التنبؤ باحتياجاتهم المستقبلية وفقاً للمتغيرات والتطورات التي تطرأ على المناهج الدراسية ، وطرق التعليم . وإذا نظرنا إلى مكتبات مدارس البنين والبنات لا في المملكة فحسب ، بل وفي معظم أرجاء العالم العربي نجد أنها شبه معدومة، وخاصة في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة ؛ مع أنهما الأساس والركيزة التي تبنى عليها مراحل التعليم اللاحقة؛ كما أن الموجود من هذه المكتبات وهو قليل جداً لا يُستفاد منه ؛ إذ إن الاعتماد هو – في الغالب – على الكتب الدراسية المقررة ، والتي توزع – عادةً – مجاناً ؛ ناهيك عن عدم إيجاد أماكن ملائمة للمكتبات حتى في المباني الحديثة . أيضاً فإن غالبية أوعية المعلومات الموجودة في معظم المكتبات المدرسية ليس لها ارتباط بالمناهج ، ولا يتناسب واهتمامات الطلاب وميولهم ، مما يجعل هذه المكتبات القليلة غير مجدية ، وفائدتها – إن وجدت – فهي محدودة ؛ مما يؤكد عدم نضج الوعي المكتبي، وإدراك أهمية المكتبة ورسالتها . يقول محمد فتحي عبدالهادي : "... من الواضح أهمية المكتبة في حياة الطفل ؛ فهي تتحمل مسؤولية العمل المباشر في تكوين عقله ؛ إذ إن نشاطها يبدأ حالما يستطيع الطفل الإصغاء إلى الكلمات ، أو التعرف على الصور ... مما يشجع الطفل على القراءة ،

ويجعلها محببة إليه ، كما تساعده على اكتساب المعلومات وترد على أسئلته واستفساراته ، وتوسع مداركه وآفاق ذاكرته عن العالم من حوله ؛ إضافة إلى كونها تنمي فيه التعلم الذاتي ..."[١٦] .

ومن المكتبات المرتبطة بالمكتبات المدرسية ما يُسمى بـ (مكتبات الفصول) ، وهي مكتبات صغيرة الحجم، تؤسس داخل الفصول الدراسية ، وخاصة في المدارس الابتدائية . تتكون محتويات هذه المكتبات الفصلية - غالباً - من المواد التي يحتاجها المدرسون للتدريس ؛ لكنها مع ذلك تشتمل على بعض الكتب التي يفضل الأطفال قراءتها . مقتنيات مكتبات الفصول متغيرة ؛ إذ تقوم المكتبة المركزية بالمدرسة بتجديد محتوياتها وتحديثها بين حين وآخر حسب الحاجة . تُمثل مكتبات الفصول أهمية خاصة في المدارس؛ إذ هي تخفف العبء عن المكتبة المركزية ، وتقدم لطلاب الفصل بعض الخدمات التي تقدمها المكتبة المركزية بالمدرسة . إن مكتبات الفصول تُساهم كثيراً في خدمة الطلاب والمدرسين ، لكنها مع ذلك لا تُغني أبداً عن المكتبة المركزية التي يجب ألا تخلو منها أي مدرسة .

رابعاً : مكتبات الأندية :

يتوفر في المملكة العربية السعودية وفي غيرها من دول العالم العربي الكثير من الأندية الأدبية والرياضية ؛ وفي معظمها إن لم يكن كلها مكتبات ، وقد تكون مكتبات جيدة ، إلاّ أن المكتبات الموجودة في هذه الأندية لا تهتم كثيراً بالأطفال ؛ فهي وإن راعت إلى حد ما ميول بعض الشباب واهتماماتهم ، ممن ينتمون إلى ما يُسمى بالطفولة المتأخرة ، إلاّ أنها لا تحسب حساباً يذكر للأطفال الصغار، كما أن الذين يستفيدون من مكتبات الأندية - وهم مع الأسف - قلة ؛ هم من الذكور فقط ؛ أما الإناث فليس لهن - كما يبدو - نصيب يذكر في هذه المكتبات .

من هنا فإن وضع مكتبات الأندية الأدبية والرياضية يحتاج إلى إعادة نظر ؛ إذ من غير العدل والإنصاف ، ومن غير المفيد أيضاً تجاهل احتياجات شرائح مهمة وكبيرة من المجتمع واهتماماتها ، وخاصة الأطفال . من هنا فإنه ينبغي تفعيل دور هذا النوع من المكتبات ، وتوسيع خدماتها وأنشطتها لتشمل الأطفال من الجنسين ومن جميع الأعمار. إن اقتصار خدماتها على شريحة معينة من المجتمع ، وإهمال الشرائح الأخرى رغم أهميتها وكبر حجمها هو تعطيل واضح لوظائف مكتبات الأندية وأهدافها. إن الاختلاط بين الذكور والإناث ، وفي جميع المستويات العمرية غير مسموح به في كثير من الدول المحافظة ، وذلك تبعاً للتعليمات الشرعية ؛ وهذا شيء طبيعي ؛ بل هو واجب يفرضه الدين الإسلامي الحنيف ، لكن هذا لا يعني إهمال حقوق الفتاة ، أو التقليل من أهمية دورها ؛ وبالتالي فإنه لا بد من إيجاد حلول جذرية وفعّالة ومنصفة تُسهم في القضاء على أوقات فراغ جميع فئات المجتمع ، وتلبي احتياجاتهم الهادفة والبناءة ، وتستجيب لتطلعاتهم السامية ؛ وهذا ليس بالصعب أو المستحيل إذا ما توفرت الرغبة الأكيدة ، والعزيمة القوية ، والنية السليمة الصادقة، والأهداف النبيلة والمخلصة .

خامساً : مكتبات الهيئات والمنظمات الخيرية :

في كثير من الدول ، وخاصة المتحضرة منها يوجد هيئات ، أو منظمات خيرية ؛ يؤسسها فرد أو أكثر ، تُعنى بالفرد ، سواء كان كبيراً أم صغيراً ، ذكراً أو انثى ؛ وهذه العناية بالفرد تختلف باختلاف الاهتمامات والأهداف العامة لهذه الهيئة أو المنظمة الخيرية . ومن الأشياء التي تُعنى بها هو إنشاء مكتبات تُسهم مع المكتبات الأخرى - إن وجدت - في خدمة أفراد المجتمع في كل ما من شأنه رفع نسبة الوعي عندهم ، وتطوير مستواهم الثقافي ، وتوثيق عُرى العلاقات الطيبة بينهم ، وإشغال أوقات فراغهم بما يعود عليهم بالنفع والفائدة . إن رفع نسبة الوعي عند

أفراد المجتمع لهو هدف نبيل، إذ به يُصان المجتمع – بتوفيق الله – من كل ما قد يعرض كيانه ، أو مستقبله للمخاطر، أو يُنغص عليه حياته اليومية ؛ فالوعي خير سلاح يتحصن به الفرد، ويحصن به أسرته، ومجتمعه.

إن لمكتبات الهيئات أو المنظمات الخيرية أهدافاً سامية تصب في خدمة المجتمع بجميع فئاته ، كباره وصغاره ، ذكوره وإناثه ؛ وهذه الخدمة الخيرية إنما تأتي نتيجة إدراك للدور الذي تلعبه القراءة في حياة الأفراد بصفة عامة ، والأطفال بصفة خاصة ، حيث بها يرتفع مستواهم العلمي والثقافي ، ويتحقق بهذا التثقيف الذاتي النمو المتواصل للحصيلة المعلوماتية ، وبها تُصقل المواهب والقدرات ؛ مما يكسبهم بالتالي الوعي الكافي ، والإدراك القوي الذي يُمكنهم من التمييز بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل ، والصواب من الخطأ ، والرديء من الجيد ، والضار من النافع ؛ وغير ذلك من الفوائد التي لا تنعكس إيجابياتها عليهم ، وعلى أسرهم ، ومجتمعاتهم فحسب ، بل على الإنسانية جمعاء ؛ هذا فضلاً عما تحققه القراءة من شغل لأوقات الأفراد ، وخاصة الأطفال والشباب بما يفيد ويُمتع .

إن أطفالنا ، وشبابنا يعانون اليوم من نقص كبير في المراكز الثقافية ، بما فيها المكتبات ؛ هذا إلى جانب ضعف الإنتاج الفكري الموجه لهم وقلته ، سواء في المجلات أو الكتب ؛ في وقت هم في أمس الحاجة إلى إنتاج يشغل فراغهم ، ويستجيب لميولهم واهتماماتهم ، ويتناسب ومستوياتهم التعليمية ، وقدراتهم الذهنية . تقول تغريد محمد القدسي عن احتياجات الطفل العربي : "إنه يحتاج إلى التوجيه في عالم اليوم الذي نعيشه والذي تطورت فيه احتياجات الأطفال تطوراً كبيراً ... ؛ مما يجعلنا في مأزق يتطلب الخروج منه أن نُقرّب الأطفال من القراءة ومصادرها"(١٧) .

هذا النوع من المكتبات – أي مكتبات الهيئات والمنظمات الخيرية – لا يوجد منه في المملكة – مع الأسف – حتى الآن ، وحسب معلوماتي سوى مكتبة واحدة في مدينة الرياض ، وهي مكتبة الطفل التابعة لمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ؛ وهي مكتبة لا بأس بها ، ولكن خدماتها تقتصر على الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٥ – ١٢ سنة ؛ كما أنها لا تستطيع أن تخدم الجنسين – أي الذكور والإناث – في وقت واحد ؛ كما لا يتوفر لها فروع لا في مدينة الرياض ولا في غيرها من مدن المملكة .

ما الذي يحتاجه الأطفال من المكتبات ؟

تُشكل الطفولة هاجساً لدى مُعظم المربين ؛ ولهذا فهي تُحظى في كثير من دول العالم باهتمام كبير في مجالات كثيرة ، يأتي ضمن أولوياتها الاهتمام بالخدمات المكتبية التي تقدم للأطفال ؛ باعتبارها من الخدمات الأساسية التي يجب أن توفر لهم ، وباعتبارها أيضاً حقاً مشروعاً من حقوقهم ، ولأنها من العوامل الهامة والمؤثرة في تكوين جيل واعٍ ، مسلح بالعلم والمعرفة ، والثقافة الواسعة . وإذا كانت مؤسسات التعليم تقوم بدور كبير في بناء شخصية الفرد ، وإعداده لممارسة دوره في الحياة ؛ فإن مكتبات الأطفال بما تحتوي عليه من أوعية معلومات ، وما تقدمه من خدمات ، وما تقوم به من أنشطة تُسهم إسهاماً فاعلاً في تحقيق أهداف التعليم . والخدمات المكتبية للأطفال هي مظهر حضاري ، يدل على رقي الأمة، وارتفاع وعي المجتمع ، وتقدم مستواه التعليمي والثقافي والفكري . يقول محمد فتحي عبدالهادي: "كلما ارتقى النظام الاجتماعي والتعليمي في جماعة من الجماعات ، وتطورت البيئة الثقافية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ؛ اتسعت خدمات المكتبات، وتنوعت، وشملت كل أفراد المجتمع بما فيهم الأطفال، الذين هم رجال الغد، وعماد المستقبل"(١٨).

تستطيع مكتبات الأطفال أن تُحقق أهدافها ، وأن تنال رضا مجتمعها إذا قامت بتوفير الآتي :

أولاً : المقتنيات :

لكي تتمكن المكتبة - أي مكتبة - من تحقيق أهم أهدافها ، وهو تفعيل استخدام مقتنياتها ؛ ينبغي عليها أن تبني بشكل جيد ، ومتوازن ، ومتجدد ، مجموعات كافية ، ومتنوعة من أوعية المعلومات التي تلبي احتياجات المستفيدين ، وعلى رأسهم الأطفال ؛ على أن يؤخذ في الاعتبار تناسب هذه الأوعية مع اهتماماتهم ، وميولهم ، ومستوياتهم التعليمية ، والثقافية ، وقدراتهم الذهنية . هذه المقتنيات يُفترض أن تشتمل على الكتب ، والدوريات ، والوسائل السمعية والبصرية ، والسمع بصرية ، بما في ذلك الأقراص الميلزرة .

أيضاً لا بد من ترتيب ، أوعية معلومات الأطفال وتنظيمها بطريقة سهلة، واضحة وجذابة ؛ بحيث تثير اهتمام الأطفال ، وتشجعهم على استخدامها ؛ ليتمكنوا بالتالي من الاستفادة منها ، والاستمتاع بما فيها من معلومات .

من الأمور التي ينبغي مراعاتها في كتب الأطفال ومجلاتهم، وخاصة صغار السن، أن تكون مجلدة، وكتابتها واضحة، ولغتها سهلة ، وأن تكون مدعومة بصور، يُفضل أن تكون ملونة ؛ على أن تكون الصور والأسماء مما هو مألوف ومتعارف عليه . كذلك يجب مراعاة أن تكون القصص قصيرة ؛ ذلك أن الطفل بطبعه ملول ، ولا يُحب الإطالة .

يختلف حجم المقتنيات المخصصة للأطفال من مكتبة إلى أخرى حسب نوع المكتبة ، ونسبة روادها من الأطفال؛ فالمكتبة المدرسية - مثلاً - يُفترض أن تكون معظم أوعيتها للأطفال، سواء منها ما يدعم المناهج ، أو ما يُخصص للترويح والثقافة العامة ؛ بينما ينبغي أن تشكل مجموعة أوعية المعلومات الخاصة بالأطفال في المكتبة العامة نسبة تتراوح ما بين ٢٠ - ٣٠٪ من مجموع المقتنيات . يقول حسن محمد عبدالشافي : "لا توجد معايير عددية للمكتبات العربية ، وأقترح أن تكون النسبة المئوية لعدد كتب الأطفال بالمكتبات العامة ٣٠٪ من جملة عدد الكتب في المكتبة"[١٩]. وتشير نعمات مصطفى إلى أن مكتبات الأطفال تحرص على تخصيص نسبة تصل إلى ٢٠٪ من ميزانية الاقتناء لتنمية مجموعة ثقافة الطفل كي تبقى حية متجددة ؛ مشيرة إلى أن مجموعة ثقافة الأطفال في مكتبات إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية تتجدد سنوياً بإضافة عدد من الكتب يصل إلى ٥٠٠ عنوان سنوياً "[٢٠] .

إن أي مكتبة لن تستطيع تحقيق أهم أهدافها ، وهو كسب رضا المستفيدين ، وتفعيل استخدام مقتنياتها، إلاّ إذا كانت هذه المقتنيات قوية كماً ونوعاً ؛ بحيث تتميز بالجودة ، والتنوع ، والشمول ؛ وتكون قادرة على تلبية احتياجات الرواد الثقافية ، والتعليمية ، والتربوية ؛ على أنه يمكن التعرف إلى اهتمامات المستفيدين ، وميولهم عن طريق توزيع استبانات عليهم بين الحين والآخر للاستئناس بآرائهم ، أو عن طريق سجلات الإعارة ، حيث يمكن بواسطتها التعرف إلى الموضوعات التي يميلون إليها ، ويفضلون قراءتها .

ثانياً : الخدمات والأنشطة :

من المعايير التي يقاس بها نجاح المكتبات هو نوع الخدمات التي تقدمها وحجمها ، والأنشطة التي تقوم بها ؛ فكلما تعددت الخدمات ، وتنوعت الأنشطة ، وتم تجديدها وتفعيل دورها ليستجيب لاحتياجات المجتمع الذي تخدمه واهتماماته ، كلما كان ذلك أدعى إلى زيادة الروابط ، وتقوية الصلات . ويُشكل الأطفال شريحة كبيرة من المجتمع ، وبالتالي فلا بد من تلبية احتياجاتهم ، أخذاً بعين الاعتبار الفروق الفردية بينهم ، وكذا اختلاف الاهتمامات والميول ، وتفاوت القدرات الذهنية ، والمستويات التحصيلية.

تعتبر المكتبات العامة والمدرسية أكثر أنواع المكتبات اهتماماً بالأطفال ، وهذا الدور لا يأتي من واقع

الأهداف التي تسعى إليها ، أو المهام المنوطة بها فحسب ، بل أيضاً لأنها المكتبات التي تفتح أبوابها له منذ سنواته الأولى . وإذا كانت المكتبات المدرسية تختلف عن المكتبات العامة بالأهداف ، حيث تولي اهتماماً خاصاً للوفاء بمتطلبات العملية التعليمية والتربوية للطلاب والطالبات واحتياجاتها ؛ فإن هذا لا يعني إغفال الاهتمامات والاحتياجات الفردية الأخرى المختلفة لهم ، ويأتي على رأس أولوياتها اختلاف الميول القرائية ، وهو ما تركز عليه المكتبة العامة نفسه ، وتعطيه كثيراً من الأولوية والاهتمام ، مما يؤكد صفة التكامل ، والتلاحم بينهما ؛ وهو ما يستوجب التنسيق ، والتعاون في كثير من الخدمات والأنشطة الموجهة للأطفال في كل ما يعود عليهم بالنفع والفائدة ، ويسهم في تنشئتهم تنشئة سليمة تدعم تكوينهم العلمي ، والثقافي ، والتربوي .

هناك تنوع في أنماط الخدمات والأنشطة التي تقدمها المكتبات للأطفال وأشكالها ، ويمكن تناول ذلك فيما يلي:

١ - الخدمات :

تشمل الخدمات التي تقدمها المكتبات للأطفال المجالات التالية :

أ - تأمين المقتنيات التي تتناسب ومستوياتهم التعليمية ، وقدراتهم الذهنية ، وتتفق مع ميولهم واهتماماتهم . هذا مع عدم إغفال ما يدعم المناهج الدراسية ، ويخدم أبعادها المختلفة ، ومنها تحويل التعليم من الطرق التقليدية المعتمدة على التلقين والحفظ إلى الطرق الحديثة التي تدور حول الفهم ، والنقد ، والتحليل . ولأن أوعية المعلومات في المكتبة يجب أن تنمو وتتجدد ؛ فإنه يُمكن لقسم التزويد الاستئناس بآراء المستفيدين ومقترحاتهم أو ذويهم ؛ هذا إلى جانب الرجوع إلى السجلات الإحصائية للإعارة الخارجية من أجل التعرف إلى الميول القرائية للرواد ، وبالتالي العمل على اختيار المقتنيات التي تشبع رغباتهم ، وتلبي اهتماماتهم وتأمنها .

ب - تدريب الأطفال على كيفية العثور على أوعية المعلومات ، وعلى طرق الاستخدام السليم لهذه الأوعية واستخراج المعلومات منها ، وتنمية قدراتهم البحثية ، وإكسابهم القدرات الذاتية للاعتماد - بعد الله - على أنفسهم . مثل هذه الخدمات تفرض على مكتبات الأطفال ، وخاصة العامة والمدرسية ، إيجاد موظفين مؤهلين ، قادرين على التعامل مع الأطفال بأساليب مميزة ، مهذبة ، وخلاّقة ، وذات مردود سريع ، فعّال وإيجابي . من هنا أوصت الدراسات التي أجريت حول الخدمة المكتبية للأطفال بأن لا يقوم بخدمتهم إلاّ من تتوفر لديه مؤهلات دراسية متخصصة في مجالات أدب الأطفال ، وعلم نفس الطفل ، وطرق التدريس ، وتوفرت له إمكانات التدريب المهني الكافي في مجال الخدمة المكتبية(٢١) .

إن تعليم المهارات ، أو ما يُسمى بالتربية المكتبية للأطفال لمن الأهمية بمكان، لما لها من فوائد كثيرة ؛ وهي أمانة لا تقع مسؤوليتها على موظفي المكتبات المدرسية فحسب، بل وعلى موظفي مكتبات الأطفال في المكتبات العامة ؛ ذلك أن غرس الثقة بالنفس ، يبعد الأطفال عن الاتكالية ، ويجعلهم أكثر اعتماداً على خدمة أنفسهم بأنفسهم ؛ فالمثل يقول : "إذا أعطيت شخصاً سمكة فإنه سيجد قوت يومه ، أما إذا علمته صيد السمك فإنه سيجد غذاءه طوال حياته".

ج - الإعارة الخارجية : مكتبات الأطفال مثل مكتبات الكبار ينبغي أن تتوفر فيها مقتنيات يمكن الوصول إليها ، والاستفادة منها ؛ سواء عن طريق القراءة داخل المكتبة ، أو خارجها لما يُمكن استعارته .

ولأن الأطفال لا يمكثون - عادةً - في المكتبات وقتاً طويلاً ؛ فإنه لمن المهم جداً تعويدهم على القراءة الخارجية ، والاستفادة من أوقات فراغهم عن طريق استعارة أوعية المعلومات التي تناسب ميولهم واهتماماتهم،

وتتفق ومستوياتهم الثقافية والتعليمية ؛ على أنه لا ينبغي أن تقتصر الإعارة على الكتب فقط ، بل يجب أن تشمل وسائل اللعب التعليمية ، لما تحققه مجموعة اللعب التعليمية من تأثير إيجابي وقوي في تنمية الحصيلة المعلوماتية ، وتقوية القدرات الذهنية .

إن تشجيع الأطفال على استعارة أوعية المعلومات من المكتبات ضروري ؛ ومن أجل هذا يجب أن تكون إجراءات الإعارة سهلة ، ومبسطة ، وأن لا تطبق أنظمة العقوبات التي تطبق على الكبار – عادةً – على الصغار؛ فالحرمان ، أو دفع غرامة التأخير قد تجعل الأطفال ينفرون من المكتبة ، أو يحجمون عن الاستعارة . هذا لا يعني التساهل المطلق ، أو المفرط معهم في مخالفة التعليمات وأنظمة المكتبة ؛ ولكن يمكن للمكتبة أن تقوم بترسيخ مفهوم التربية المكتبية في أذهان الصغار ، كالهدوء ، والتعاون، واحترام مشاعر الآخرين وحقوقهم ، والمحافظة على أوعية المعلومات ، والحرص على سلامتها ، سواء داخل المكتبة أو خارجها ؛ هذا إلى جانب احترام القوانين والأنظمة ، والتقيد بالتعليمات بما فيها أنظمة الإعارة الخارجية .

د – الخدمة المرجعية : تعتبر هذه الخدمة من الخدمات الأساسية في جميع أنواع المكتبات ، لما لها من أهمية بالغة في الإجابة على استفسارات المستفيدين وأسئلتهم عن حقائق ومعلومات معينة ، أو الإرشاد إلى مصادر تتوفر فيها الإجابات المطلوبة ؛ لكنها بالنسبة للأطفال تهدف إلى إرشادهم ، وتدريبهم على استخراج المعلومات من مصادرها، وبالتالي تغرس فيهم عادة البحث والاطلاع، والاعتماد – بعد الله – على النفس في استخراج المعلومات ؛ هذا إلى جانب تنمية المهارات القرائية ، وشحذ القدرات الذاتية على تحديد مصادر المعلومات المطلوبة للإجابة عن أية تساؤلات قد تعنّ لهم ، أو مشكلات تواجههم . إن الخدمة المرجعية هي في الحقيقة خدمة فنية متخصصة؛ ذات أهمية عظيمة ، وفائدة كبيرة للمستفيدين؛ من هنا يجب أن توكل مهمة الخدمات المرجعية ، وخاصة في مكتبات الأطفال إلى عناصر مؤهلة تأهيلاً فنياً ، ونفسياً ، وتربوياً ؛ ذلك أن نجاح المكتبة يتوقف أيضاً على قدرات العاملين فيها ، ومهاراتهم ، وكفاءاتهم .

ولكي تؤدي هذه الخدمة ثمارها فإنه لا بد من بناء مجموعات كافية ، ومتوازنة من المراجع ؛ مع تنميتها وتحديثها بشكل منتظم ، ومستمر لتواكب المستجدات ، وتستجيب للتطلعات ، والاحتياجات .

٢ – **الأنشطة** : الأنشطة التي تقوم بها مكتبات الأطفال هي في حقيقة الأمر نوع من الخدمات التكميلية ؛ لكنها مفيدة ، وضرورية ؛ لأن توفيرها للأطفال يعمق الروابط ، ويوثق الصلات ، لا بينهم وبين المكتبة فحسب ، بل وبين العاملين فيها ؛ مما يوسع دائرة الاستفادة الحقة والمنشودة من خدمات المكتبة وأنشطتها . من الأنشطة المناسبة ، والتي يحتاج إليها الأطفال ما يلي :

أ – **ساعة القصة** : يُقصد بساعة القصة الحكايات القصصية ، وخاصة الشعبية منها ، والتي تُحكى للأطفال خلال ساعة معينة يحددها المسؤولون في مكتبات الأطفال، وهذه الساعة قد تنفذ يومياً ، أو أسبوعياً ، وذلك حسب الحاجة ، والإمكانات ، وظروف المكتبة .

تعتبر ساعة القصة من أكثر الوسائل فاعلية في إثارة حب الأطفال للكتب والمكتبات ، والقراءة ؛ ذلك أن الطفل مستمع جيد ؛ يستمتع ، ويتفاعل مع القصة وأحداثها ؛ خاصة إذا كان الحاكي يجيد فن الإلقاء ، ويتقن تلوين الأصوات ، وتقمص شخصيات القصة ؛ بحيث تُحكى القصة بأسلوب يحبه الأطفال ، ويجعلهم ينسجمون معه ، ويتفاعلون مع مجريات أحداثها . لهذا يجب أن يتم اختيار القاص ، وكذا القصص التي تُحكى للأطفال بعناية فائقة ؛ بحيث لا تكون القصص مسلية

فقط، بل ومفيدة ، وتتوفر فيها عناصر الوضوح، والتشويق، والجدة ؛ وأن تتلاءم وقدرات الأطفال الذهنية، ومستوياتهم التعليمية ، وأن تكون ذات هدف بناء . وقد ثبت أن الأطفال يُقبلون على قراءة القصص التي سبق وسمعوها، أو شاهدوها ممسرحة أمام أنظارهم ؛ كما أنها تبقى – في الغالب – عالقة في أذهانهم لفترة طويلة من حياتهم ؛ مما يؤكد على اكتسابهم لمهارات الإنصات ، وقوة الذاكرة ؛ وهو ما يعني أهمية اختيار القصص التي تثري حصيلة الأطفال بمعلومات أكثر عمقاً، ونفعاً ؛ مع إكسابهم الأخلاق الفاضلة ، والعادات الحسنة التي يكون لها تأثير إيجابي على مستقبلهم العلمي، والثقافي ، والاجتماعي(٢٢).

مع الأسف الشديد فإن معظم القصص الموجه للأطفال في العالم العربي على قلّته لا يرقى إلى المستوى المنشود ، ولا يفي بالمتطلبات ، أو يلبي الاحتياجات ؛ ذلك أن أكثره مقتبس من قصص أجنبي ، وخاصة الغربي ؛ بل إن بعضه مترجم حرفياً بما في ذلك أسماء الأشخاص ، والأماكن ، وأسماء الحيوانات ؛ مما يجعلها بالتالي لا تناسب أطفالنا ، خاصة وأن فيها ما يتناقض وعاداتنا وتقاليدنا ، بل أحياناً مع عقيدتنا ؛ ناهيك عن أن الأسماء غير مألوفة ؛ سواء أسماء الأشخاص ، أو الحيوانات ، أو الأماكن ؛ مما ينفر الطفل منها ، ويجعله لا يستسيغ سماعها ؛ وبالتالي تصبح عديمة الجدوى . تقول هيفاء شرايحة ، وهي تستعرض الإنتاج الفكري المطبوع للأطفال في العالم العربي : " ... نجد أن أغلب الكتب لا تتناسب والهدف الذي وضعت من أجله لتنمية قدرات الأطفال ، وملكاتهم الفكرية ؛ كما أن الترجمة تشكل عنصراً هاماً في نشر كتب الأطفال ، وخاصة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية ... "(٢٣) . وفي موضع آخر تقول : " ... إن أدب الأطفال باللغة العربية كتب دون دراسة أو تخطيط لأعمار الأطفال ، ونموهم ، ونفسياتهم ؛ أو حتى مراعاة للناحية الفكرية والذهنية عندهم، أو اهتمام بقاموسهم اللغوي"(٢٤).

ومع أن هيفاء شرايحة تتحدث عن معلومات مضى عليها أكثر من ثلاثين عاماً ؛ إلاّ أن واقع الحال بالنسبة لكتب الأطفال العرب ما زال يحبو عاجزاً عن إنصافهم ، وتحقيق تطلعاتهم واحتياجاتهم ؛ فالمكتبة العربية تعاني من نقص كبير في أوعية المعلومات المخصصة للأطفال ، ويأتي في أولويات هذا النقص الكتب والمجلات الجيدة والمفيدة ، مما يضطرها لتلقف أي إنتاج ، حتى وإن كان هزيلاً ؛ وهذا له انعكاسات سلبية ، إذ يحول مكتبات الأطفال إلى مستودع لإنتاج رديء ، قد يضر أكثر مما ينفع .

من هنا فإنه من واجب الدول العربية ، ممثلة بالمؤسسات التي تُعنى بالطفل تربية ، وتعليماً، وتثقيفاً ؛ وأعني بها مؤسسات التعليم ، وكذا مكتبات الأطفال المختلفة ، وخاصة العامة والمدرسية ، أن تدعو وتشجع بكل قوة وحماس الكُتّاب العرب ، الموثوق بقدراتهم ، وأمانتهم ، وإخلاصهم لدينهم وأمتهم ، على الكتابة للأطفال في موضوعات مفيدة ، اجتماعياً ، وثقافياً ، وروحياً ، وتربوياً، وتعليمياً ؛ بحيث تكون الموضوعات من البيئة العربية شكلاً ومضموناً ولغة ، وأن تكون الإصدارات مستمرة ، سواء على شكل كتب ، أو مجلات مصورة ، ومبسطة .

ب – **المسابقات** : تعتبر المسابقات من أهم الوسائل الفعّالة في إنماء ثقافة الأطفال ، وإثراء حصيلتهم المعلوماتية ، وإبراز ميولهم ، واهتماماتهم ، وكشف مواهبهم ، وقدراتهم .

تتخذ المسابقات أشكالاً متعددة ؛ منها على سبيل المثال لا الحصر :

- مسابقة القراءة .
- مسابقة الكتابة والتلخيص .
- مسابقة النقد .
- مسابقة الإلقاء .

يُنظر إلى المسابقات باعتبارها وسائل مجدية ، تُمكن الطفل من زيادة معلوماته ، وإثراء ثقافته ؛ إلى جانب غرس عادة القراءة والاطلاع ؛ ناهيك عن إثارة روح التنافس الشريف بين الأطفال . وقد ثبت أن هذا التنافس الهادف والبناء يُسهم في نمو الطفل من الجوانب النفسية ، والتربوية ، واللغوية ، والاجتماعية (٢٥).

ج - إقامة المسرحيات ، والمحاضرات ، والندوات :

يُمكن القول إن القصص التي يُمكن اختيارها ، وتمثيلها على خشبة المسرح عبر مجموعة من الأطفال والشباب ، يتولى كل واحد منهم القيام بدور معين فيها له فوائد عديدة ؛ فإلى جانب ما يحققه مثل هذا النشاط من ترفيه ، وتسلية بريئة ؛ فإنه يُعالج مشاكل وقضايا اجتماعية ، ويثري الحصيلة الثقافية للأطفال والشباب ، ويكسبهم مهارات وخبرات هم بحاجة إليها ؛ وذلك عبر تعويدهم على التعاون ، والعمل بروح الفريق ، وينمي قدراتهم على الإلقاء الجيد ، والتعبير المؤثر ؛ وهذا فيه صقل لمواهبهم الأساسية ، مما يُعزز ثقتهم بأنفسهم ، وبقدراتهم الذاتية ، ويخلصهم من الخجل .

أيضاً ، فإن المحاضرات ، والندوات التي تقيمها مكتبات الأطفال والشباب تُحقق لهم فوائد جمة ، خاصة إذا أحسن اختيار موضوعاتها ، واختيار المشاركين فيها ؛ فهي تُسهم في تنمية معارفهم ، وتحيطهم بموضوعات نافعة وقيمة ، تفيدهم ، وتفيد مجتمعهم في الحاضر والمستقبل ، كما تُسهم في تدريبهم على الأساليب المثلى للحوار السليم ، والمناقشة الهادفة ، وكيفية إبداء الآراء ، وطرح الأسئلة ، والتعبير بوضوح وجلاء عن الأفكار .

٤ - المعارض :

من الأنشطة الهادفة لمكتبات الأطفال إقامة المعارض المختلفة ؛ سواء كانت معارض لكتب الأطفال ، أو للبرامج والحاسبات الآلية ، أو لإنتاج الأطفال من بحوث ، أو مقالات ، أو رسومات ، أو أشغال يدوية أخرى ؛ على أن يشترك في هذه المعارض بعض المؤلفين المهتمين بالكتابة للأطفال ، وكذا دور النشر التي لها نشاط في مجال النشر الخاص بالأطفال ؛ ولا شك أن مثل هذه المعارض تعتبر فرصة ثمينة وقيّمة للمكتبة كي تبرز نشاطها ، وإسهاماتها في مجال خدمة الأطفال ؛ إلى جانب وضع بعض الملصقات التي تحث على القراءة وتبين أهميتها وفوائدها في إثراء الحصيلة المعلوماتية ، ورفع المستوى العلمي والثقافي ، وتأثير ذلك على حياة الفرد والمجتمع في الحاضر والمستقبل .

احتياجات مكتبات الأطفال والشباب :

لكي تتمكن مكتبات الأطفال والشباب من أداء رسالتها ، وتحقيق أهدافها على الوجه المطلوب ؛ فإنه لا بد من توفر عناصر ثلاثة ، هي :

أولاً : المبنى والتجهيزات :

١ - المبنى :

ينبغي أن يتم اختيار مبنى المكتبة ليكون في موقع مناسب يمكن رؤيته، ويسهل الوصول إليه دون مشقة تذكر؛ كما أن حجم المبنى يستوجب أولاً دراسة المجتمع نفسه ؛ فالتعرف إلى عدد السكان ، ونسبة الأطفال والشباب ، ومعدل المواليد ، وعدد المكتبات القائمة - إن وجدت - وإمكاناتها ، وقدراتها الاستيعابية ، كل ذلك يتطلب دراسة وافية ، وشاملة ؛ فإذا كان في المجتمع أكثر من مكتبة لخدمة الأطفال والشباب، فهذا وضع ؛ فإن لم يكن به سوى مكتبة واحدة ، أو حتى ولا مكتبة ؛ فإن هذا وضع آخر .

أي دراسة لإنشاء مكتبة للأطفال والشباب تحتاج إلى دراسة الواقع نفسه، وتقدير الاحتياجات الأساسية، سواء في حجم المبنى، أو في موقعه ؛ أخذاً بعين الاعتبار إمكانية التوسع المستقبلي للمبنى والتجهيزات، والموظفين ، والرواد.

إن المكتبة تضم أوعية معلومات تنمو ، وتزداد بشكل منتظم ؛ إلى جانب تقديم خدمات متنوعة ، وتوفير

أنشطة مختلفة ؛ وبالتالي فلا بد من أخذ هذه الاحتياجات الحاضرة والمستقبلية بالاعتبار .

لا ينبغي أن يكون تخطيط مكتبات الأطفال والشباب ارتجالياً ، أو عشوائياً ؛ بل لا بد من إسناد مهمة تخطيط المبنى إلى مهندس معماري أو أكثر ، ويُفضل أن يكون المهندس من أصحاب الخبرة في تصميم مباني المكتبات ؛ على أنه لا بد أيضاً من التشاور المستمر مع أمين المكتبة ؛ ذلك أن المكتبي أدرى من المهندس بالاحتياجات ، وبالتوزيع المناسب لمواقع أوعية المعلومات، والخدمات، والأنشطة داخل المبنى. أما مساحة المبنى فتحكمه مجموعة من الضوابط، منها عدد المكتبات القائمة ، وحجم السكان ، وعدد الأطفال في المجتمع ونسبة الرواد المتوقع استفادتهم من المكتبة ؛ علماً بأن مساحة مبنى مكتبة الأطفال طبقاً للمعايير الدولية تتراوح مابين ١٦٧٢ – ١٨٥٨متراً مربعاً[٢٦] .

هناك ناحية فنية لها أهمية قصوى ، ألا وهي التصميم ؛ إذ لا بد من الحرص على التصميم الجميل للمبنى واختيار الألوان المناسبة ، المريحة وغير المنفرة ؛ فالنفس تحب الجمال ، وتهوى الأشكال التي تتوفر فيها لمسات فنية جميلة ، كما تستريح لرؤية الألوان الهادئة ؛ وهذا يحتم أخذ هذه الأشياء بعين الاعتبار عند التنفيذ .

من الأمور التي يجب الاهتمام بها في تصميم مباني المكتبات هو توفير وسائل للسلامة ؛ فلا بد من وجود وسائل إطفاء حديثة ، ومخارج للطوارئ ، وأجهزة إنذار ، ومصابيح تضيء تلقائياً عند انقطاع التيار الكهربائي لتساعد الرواد والموظفين على مغادرة المبنى عبر المخارج المخصصة لهذا الغرض .

٢ – التجهيزات :

تزويد مكتبة الأطفال والشباب بالأثاث ، والأجهزة اللازمة يتطلب توفير أثاث مناسب ، وملائم للمستفيدين سواء من الرواد ، أو الموظفين العاملين في المكتبة ؛ بحيث يكون الأثاث من النوع الجيد والمتين ، وفيه تناسق في الألوان مما تقبله العين ، وتستريح له النفس ؛ فلا ينبغي أن تكون الأرفف عالية ، ولا المناضد موحدة الشكل والحجم ، كما يجب أن تكون المناضد والكراسي مناسبة لأحجام القراء . أيضاً ينبغي تأمين الأثاث ، والأجهزة ، والأدوات المكتبية التي يحتاجها الموظفون ، ليتمكنوا من خدمة الرواد على الوجه الأكمل ، وبالسرعة المطلوبة .

٣ – الموظفون :

يعتبر العنصر البشري في المكتبة من أهم العناصر المؤثرة والفاعلة في نجاح المكتبة أو فشلها . نعم ، إن نجاح مكتبة الأطفال أو فشلها إنما يتوقف بالدرجة الأولى على كفاءة موظفيها ، ومدى قدرتهم على تشغيلها وإدارتها ؛ لهذا فلا بد من اختيار موظفي مكتبة الأطفال بعناية فائقة. من أهم الصفات والشروط المطلوب توفرها في المسؤول عن مكتبة الأطفال ما يلي :

أ – الحصول على مؤهل عالٍ في تخصص المكتبات والمعلومات، إلى جانب مؤهل آخر في التربية وعلم نفس الطفل.

ب – الرغبة والحماس في العمل مع الأطفال ، والقدرة على التأثير عليهم ، وكسب ودهم .

ج – المعرفة الجيدة بوظائف مكتبة الأطفال وأهدافها، والعمل بكل جد وإخلاص لتحقيق ذلك.

د – القدرة على تقييم أوعية المعلومات الخاصة بالأطفال، ومن ثم الاختيار، والتوصية بما هو صالح منها.

هـ – القدرة على التخطيط للعمل ، وتطوير الخدمات والأنشطة ، وتنمية المقتنيات بكل جديد ومفيد .

و – الإلمام بالأمور الإدارية ، والفنية ، وإعداد التقارير ، والإحصائيات .

ز – القدرة على اتخاذ القرارات ، وتحمل المسؤوليات.

٤ - أوعية المعلومات :

تشكل أوعية المعلومات التقليدية وغير التقليدية في المكتبات حجر الزاوية في بناء مكتبة مثالية تستجيب لمتطلبات الرواد ، وتلبي احتياجاتهم ؛ باعتبارها الركيزة الأساسية للجوانب الأخرى من الخدمة المكتبية . يقول حسن محمد عبدالشافي : "إن قدرة المكتبة على الوفاء باحتياجات المستفيدين تعتمد بالدرجة الأولى على جودة ، وتنوع ، وشمول المجموعات بها ؛ أي كلما كانت المجموعات قوية ، وبمعايير كمية ونوعية مناسبة كانت المكتبة في وضع يمكنها من تلبية احتياجات المستفيدين كافة"(٢٧) .

مصطلح مصادر المعلومات يشتمل على أوعية معلومات تقليدية ، أي مطبوعة على ورق ، ويأتي في مقدمتها الكتب والدوريات ؛ وهذه تشكل - في الغالب - العمود الفقري في مجموعات المكتبة ، باعتبارها محور الأنشطة والخدمات المكتبية ؛ وأوعية غير تقليدية ، أي غير مطبوعة ، وتشمل المواد السمعية ، والبصرية ، والسمع بصرية ، كالأفلام ، والشرائح ، والأسطوانات ، وأشرطة الفيديو ، وأشرطة الكاسيت ، والأقراص المليزرة . وهناك نوع ثالث من أوعية المعلومات يُطلق عليه الأوعية المتعددة ، وهي مزيج من أوعية تقليدية وغير تقليدية ، ويُستخدم مثل هذا النوع في المكتبات المدرسية من قبل بعض المعلمين ، واصطلح على تسميته ب (التوليفات) ، أو (الأطقم) ، أو (الحقائب التعليمية).

لكي تتمكن مكتبات الأطفال من تحقيق أهدافها ، وإرضاء روادها؛ لا بد من توفير أوعية المعلومات باختلاف أشكالها ، وأنواعها ، والتي ينبغي أن يُراعى عند تأمينها استجابتها لاهتمامات الرواد ، وتناسبها لقدراتهم الذهنية والتعليمية .

بناء أوعية المعلومات هذه لا بد أن يكون وفق سياسة واضحة ومكتوبة ؛ بحيث لا يكون هناك مجال للاجتهادات الشخصية ، والتي قد تضر أكثر مما تنفع .

تهدف السياسة الواضحة والمكتوبة إلى تحقيق مجموعة من الأهداف ؛ من أهمها :

أ) منع الارتجال والعشوائية ، والاجتهادات الشخصية في بناء مجموعات مواد المكتبة .

ب) تأمين أوعية المعلومات المطلوبة والمناسبة بشكل مستمر ، لتبقى المكتبة حية ، ديناميكية ، تجد الإقبال القوي ، والمتجدد من الرواد ، الذين تسعى المكتبة لكسبهم ، ونيل رضاهم .

ج) المحافظة على مستوى عالٍ من الكم والنوع ، عبر تأمين قدر كبير من أوعية المعلومات الحديثة والمختلفة ، والتي تلبي احتياجات المستفيدين ، وتتناسب وميولهم ، وقدراتهم .

د) تحديد المسؤولية في الاختيار والتأمين ، وذلك بوضع معايير يمكن الاسترشاد بها عند اختيار أوعية المعلومات .

هـ) منع التكرار والازدواجية عند الشراء ، والذي قد يلحق ضرراً بقدرات المكتبة المادية والمعنوية.

عند اتخاذ قرار بوضع سياسة واضحة ومكتوبة لتنمية مقتنيات المكتبة - أي مكتبة - فإنه ينبغي أن يسبق مثل هذا القرار مجموعة من الخطوات ، تتمثل فيما يلي :

- دراسة تقويمية مسبقة لواقع أوعية المعلومات في المكتبة ، بغية التعرف إلى أوجه النقص ، ومواطن القوة والضعف في المقتنيات الموجودة .
- التعرف إلى إمكانات المكتبة المادية ، الحالية والمستقبلية ؛ لأن السياسة هي خطة تسير المكتبة وفقها للوصول إلى الأهداف المرجوة خلال فترة زمنية محددة .
- جمع معلومات عن واقع مكتبات الأطفال الأخرى في المجتمع - إن وجدت - ؛ حتى يكون بناء المجموعات في المكتبة تكاملياً ، بعيداً عن التكرار الذي يحد من التعاون المثمر والبناء ، ولا يخدم مصالح المستفيدين .

السياسة التي توضع لتنمية مقتنيات المكتبة هي في حقيقة الأمر مبادئ استرشادية مكتوبة ؛ يجب اتباعها

لبناء المجموعات في المكتبة وتنميتها ؛ على أنه لا بد من التنبه إلى أن هذه السياسة وقتية وليست دائمة ، وإنما يُعمل بها – عادة – لبضع سنوات ، يتم بعدها مراجعة ، هذه السياسة وتقويمها ، والاستفادة من أخطاء الماضي ، وتجديد أو تحديث عناصرها بما يتلاءم ومتطلبات المستقبل واحتياجاته ومستجداته .

السؤال الذي يطرح نفسه هو من الذي ينبغي أن يضع هذه السياسة المكتوبة للتزويد ؟

لكي نضمن – بتوفيق الله – الجودة لأي سياسة توضع ؛ فإنه يفضل أن يشترك في وضع سياسة التزويد في مكتبات الأطفال ، وخاصة العامة والمدرسية مجموعة من الأشخاص ، منهم :

- أمين المكتبة ، أو نائبه .
- رئيس قسم التزويد ، أو أحد المسؤولين المتميزين في القسم .
- عدد من المدرسين ، يتم اختيارهم بناءً على ترشيح من مدير المدرسة .
- بعض أولياء أمور الأطفال ، ممن تتوفر فيهم الثقة والكفاءة .
- بعض المربين المتقاعدين ، ممن عرفوا بالكفاءة والإخلاص .
- بعض الطلاب المتميزين، علماً، وخلقاً، واستقامة.

الهوامش

١ – سورة التحريم ، الآية : ٦

٢ – عبد الحليم عويس . نظام الأسرة في الإسلام . جدة : الشركة السعودية للأبحاث والتسويق ، ١٩٨٥م ، ص١١٣.

٣ – المصدر السابق .

٤ – المصدر السابق ، ص ١١٥ .

٥ – فضل إلهي . الاحتساب على الأطفال . الرياض : مط . سفير ، ١٤١٨هـ ، ص ٢٢ .

٦ – هيفاء شرايحة . أدب الأطفال ومكتباتهم . ط . الثانية ، عمان – الأردن : المطبعة الوطنية ومكتباتها، ١٩٨٣م ، ص٥٧ .

٧ – عبدالرحمن بن خلدون . مقدمة ابن خلدون . ط . الرابعة ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، (د . ت) ، ص ٥٣٣ .

٨ – عبدالله ناصح علوان . تربية الأولاد في الإسلام . ط . (٣٠)، بيروت : دار الفكر المعاصر ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م ، ص ١١٥ .

٩ – المصدر السابق .

١٠ – محمد سالم . "حتى لا يكون ابنك إمعة تافهاً". مجلة (الدعوة)، ع١٨٠٤، جمادى الأولى ١٤٢٢هـ، ص ٦٦ .

١١ – فضل إلهي. مصدر سابق، ص٩ .

١٢ – المصدر السابق ، وانظر "لسان العرب" لابن منظور ، مج ١١ ، ص٤٠١ ، مادة (طفل) .

١٣ – فخري حسين عربي ، ولطفي بركات أحمد . اتجاهات نفسية وتربوية . جدة : مطبوعات تهامة، ١٤٠٤هـ ، ص ١٤ .

١٤ – محمد فتحي عبد الهادي ، وآخرون. مكتبات الأطفال. القاهرة: مكتبة غريب ، (د . ت) ، ص١٣ .

١٥ – نعمات مصطفى . "الخدمة المكتبية للأطفال : تنظيمها وأنماطها" . مجلة المكتبات والمعلومات العربية ، ع ٣ ، س١، يوليه ١٩٨١م ، ص٦٧.

١٦ – محمد فتحي عبد الهادي ، وآخرون . مصدر سابق، ص١٧.

١٧ – تغريد محمد القدسي . "الكتاب الشهري للطفل إسهام فاعل في حقل الكتابة الحديثة للطفل العربي". مجلة عالم الكتب . ع ٣ ، مج ٢٠ (ذو القعدة / ذو الحجة ١٤١٩هـ)، ص٢١٦ .

١٨ – محمد فتحي عبد الهادي ، وآخرون . مصدر سابق، ص١١.

١٩ – المصدر السابق ، ص١٠٥ .

٢٠ – نعمات مصطفى . مصدر سابق، ص ص ٧٢ – ٧٣ .

٢١ – المصدر السابق ، ص٦٩ .

٢٢ – محمد فتحي عبد الهادي ، وآخرون. مصدر سابق، ص١٤٦.

٢٣ – هيفاء شرايحة . مصدر سابق، ص٣٢.

٢٤ – المصدر السابق ، ص٤١ .

٢٥ – محمد فتحي عبد الهادي ، وآخرون. مصدر سابق، ص١٤٨.

٢٦– المصدر السابق ، ص٢٤ .

٢٧– المصدر السابق ، ص٨٩ .

الحوار في مسرحية "السلطان الحائر" لتوفيق الحكيم

دراسة فنية تحليلية

حسين علي محمد

كلية اللغة العربية بالرياض - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة :

يعد الحوار أحد أهم عناصر التأليف المسرحي "فهو الذي يُوضِّح الفكرة الأساسية، ويُقيم بُرهانها، ويجلو الشخصيات، ويُفصح عنها، ويحمل عبء الصراع الصاعد حتى النهاية، وهذه المهمات يجب أن يضطلع بها الحوار"(١) .

ويقوم هذا البحث وعنوانه "الحوار في مسرحية "السلطان الحائر" لتوفيق الحكيم: دراسة فنية تحليلية" على دراسة فن الحوار في هذه المسرحية الشهيرة التي صدرت عام ١٩٦٠م، وتأتي أهمية هذه الدراسة من الآتي:

١ - أنها تدرس مسرحية لكاتب من مؤسسي المسرح النثري العربي المعاصر، وهو توفيق الحكيم، الذي يوصف عادة بأنه ممن يُجيدون إدارة الحوار في مسرحه.

٢ - أن فن المسرح - النثري والشعري جميعاً - يقوم على الحوار، وإذا درسنا الحوار في هذه المسرحية، فقد درسنا نموذجاً لإدارة الحوار في مسرح توفيق الحكيم.

٣ - أن المسرحية تُثير قضية على درجة كبيرة من الخطورة، وهي قضية الحكم لمن: للسيف أم للقانون ؟

ولقد كُتبت عن مسرحية "السلطان الحائر" بعض الدراسات والمقالات بأقلام أمين الخولي، ووداد سكاكيني ، ومحمد أبو الأنوار، وأحمد زياد محبك ... وغيرهم، وهي دراسات ومقالات في مجملها تعرض للمسرحية وأحداثها وشخصياتها وتوازن أحداث المسرحية بأحداث مُشابهة في التاريخ المملوكي، لكن الباحث استطاع أن يقف على ثلاث دراسات مهمة تناولت المسرحية ، وهي :

١ - المسرح المصري بعد الحرب العالمية الثانية بين الفن والنقد السياسي والاجتماعي، لسامي منير حسن عامر، حيث تحدث في الفصل الأول من الباب الثالث من الجزء الثاني من كتابه عن تطور مسرح توفيق الحكيم الرمزي من خلال النقد السياسي والاجتماعي، فذكر أن هذه المسرحية تُمثل مرحلة من مراحل التجديد عند الحكيم في القالب المسرحي والمضمون، مازجاً بين الكوميديا والدراما، وهو ما عُرِف في نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات بالكوميديا السوداء(٢)، ثم أشار إلى أن الحكيم لجأ إلى الرمز، الذي هو "الفجر" ليلمّح إلى أصل بعيد، يُرجى أن يتحقق بعد ذهاب الليل، لأن الوعود الليلية كثيرة(٣).

ثم بيّن الفرق بين عمل توفيق الحكيم وغيره من الكتاب المسرحيين من أمثال نعمان عاشور، ولطفي الخولي، وألفريد فرج، ويوسف إدريس، وسعد الدين وهبة ، الذين تبنوا القضايا السياسية والاجتماعية من خلال تحليل جدلي تاريخي هادئ، بينما تناولها توفيق الحكيم من خلال الرمز(٤).

ويمضي سامي منير عامر في التدليل على هذه الفكرة بالنصوص المختلفة إلى أن يصل في النهاية إلى القول بأن الحكيم قدّم لنا مسرحية تقليدية الشكل رمزية المضمون(٥).

٢ – مسرحية "السلطان الحائر": دراسة تحليلية نقدية ، حوليات كلية دار العلوم، العدد العاشر ، ١٩٨٢/٨٧٣م ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٣م ، محمد أبو الأنوار :

تحدث محمد أبو الأنوار عما تثيره المسرحية من قضية إنسانية تتمثل في أيهما يجب أن يحكم: السيف أم القانون ؟ وأشار إلى تاريخ كتابة المسرحية ومكانها، وأن الحكيم متأثر فيها بما يجري في عالم اليوم من أحداث، ثم تحدث عن أبرز أبطال المسرحية وأحداثها، وذكر مواضع من الحوار الذي أداره الحكيم بين الشخصيات، ثم تحدث عن نوع المسرحية وأبرز خصائصها الفنية، ثم قدم لنا دراسة في بنائها الفني، وانتهى إلى تسجيل طرف من الجدال الذي دار بين أمين الخولي ومحمد مندور، فالخولي يرى أنها مسرحية تاريخية، بينما يرفض مندور ذلك، ويرى أنها واقعية تُعالج مشكلة ذات طابع ذهني قائم في عصر الكاتب[٦].

٣ – الكلمة والبناء الدرامي : رؤية نقدية تحليلية مقاربة، ، ط١، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٨١م ، لسعد أبي الرضا :

وقد تحدث الكاتب في الفصل الأول عن البناء المسرحي البسيط، وأشار إلى أن مسرحية "السلطان الحائر" من هذا النموذج، ثم تحدث عن التشكيل اللغوي في المسرحية، وأنه يتضح من خلال اللفظة، والتركيب، والأحداث، وذكر أنه يتسم بالتالي:

١ – طول الحدث والجمل .

٢ – حشد وسائل البرهنة وأساليبها، كالنفي والقصر والإجمال، والتفصيل والعطف وغير ذلك .

٣ – تكرار الكلمات التي تحمل عناصر التفجر في الموقف.

٤ – تسلسل الأحداث وامتدادها في خط محكم .

وإذا قارنّا هذه الدراسات بخطة هذه الدراسة وجدنا البون واضحاً، فهذه الدراسة تُركز على عنصر الحوار باعتباره العنصر الأبرز في بناء المسرحية عند توفيق الحكيم، وتدرس مسرحية "السلطان الحائر" دراسة أدبية تطبيقية من خلال ذلك الإطار.

ومسرحية "السلطان الحائر" كأية مسرحية تقوم على الحوار، وهناك وسائل إضافية تُساعد النص المسرحي حين يُعرض على خشبة المسرح كالموسيقا التصويرية، والإضاءة وغيرهما، ولكن النص نفسه لا يجري فيه من فنون القول سوى الحوار، ولذلك يُقال "لا مسرح بدون حوار"[٧].

وقد يكون الحوار بين شخصين، أو مناجاة بين الشخص ونفسه، يكشف به الكاتب أغوار الشخصية، وهمومها الكامنة ودوافعها الخفية، وأحياناً يكون الحديث من طرف واحد ظاهر ندرك من خلاله الطرف الآخر، وهدفه إبراز أفكار المتحدث ونواياه للمشاهدين.

ويرى النقاد أن إجادة الحوار في النص المسرحي تدل على قدرة هذا الكاتب[٨]، وقد أشار بعض الباحثين والنقاد الذين كتبوا عن مسرحية "السلطان الحائر" لتوفيق الحكيم على قدرة المؤلف على إدارة الحوار وبراعته في ذلك؛ فيقول محمد أبو الأنوار في بحثه "مسرحية "السلطان الحائر": دراسة تحليلية نقدية": "وإذا بحثنا عند الحوار في مسرحيته هذه ألفيناه أبرع أدواته، بل هو هويته الشخصية التي تميزه بين كتابنا المسرحيين على الإطلاق"[٩].

ويرى أحمد زياد محبك في كتابه "المسرحية التاريخية" أن الحوار في مسرحية "السلطان الحائر" سلس رشيق، ينساب رخياً، قصير الجمل، سهل التركيب، متنوع التعبيرات، واضح المعنى، قوي التأثير، يسوق بعضه إلى بعض في اطّراد، يُمتع ويُشوِّق، ويدفع الحركة المسرحية قدماً إلى مزيد من تعقيد وإثارة، وهو فصيح الكلمات من غير غرابة ولا تفاصح، وسليم بناء الجمل من غير قوة ولا تصنّع، وبليغ العبارات من غير تنميق ولا افتعال"[١٠].

لكن هؤلاء النقّاد لم يتعرّضوا لعلاقة الحوار بالحدث

أو الصراع، ولم يتعرّض أحد منهم لأثر الحوار في رسم الشخصيات، مما جعلني أقوم بهذا البحث، الذي جعلته في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة :

في المقدمة: تحدثت عن المسرحية، والدراسات السابقة عنها، واحتفاء النقاد بها، وإشارتهم إلى أهمية الحوار دون أن يتناولوا أثره في رسم الشخصيات، أو الصراع.

وفي التمهيد: تحدثت عن الحوار في المسرحية والقصة والرواية.

وفي المبحث الأول وعنوانه "الحوار والفكرة" تحدثت عن الفكرة التي دارت حولها المسرحية، فعرضتها عرضاً موجزاً، وبيّنت القضية الرئيسة التي أثارتها المسرحية.

وفي المبحث الثاني: تناولت الحوار والشخصيات.

وفي المبحث الثالث: تناولت الحوار والصراع.

وفي المبحث الرابع: تناولت المزلق الذي وقع فيه الحوار.

وفي الخاتمة: أشرت إلى أهم النتائج التي وصلتُ إليها.

تمهيد:

لغة الحوار في المسرحية والقصة والرواية:

الحوار أداة فنية في المسرحية والقصة والرواية والتمثيلية المتلفزة والمُذاعة. والحوار: نمط من أنماط التعبير تتحدّث به شخصيتان أو أكثر في فن من الفنون السابقة، وينبغي أن يتّسم الحديث فيه بالموضوعية والإيجاز والإفصاح"[١١].

والحوار الجيد هو الذي يكون معبراً "ويتمثّل هذا النوع من الحوار فيما حسن تركيبه، وسهل قوله، واتضح معناه، وعبّر تعبيراً ملائماً، ويجب التضحية بزخرف الكلام وأناقته في سبيل المعنى، فلقد كان سومرست موم يفضّل الكلمة القوية المحددة المعنى في الحوار على الكلمة ذات الجرس والرنين"[١٢].

ووظيفة الحوار كما يرى روجر م. بسفيلد:

١ – السير بالعقدة، أي تقدمها أو تدرُّجها أو تسلسلها.

٢ – الكشف عن الشخصيات.

٣ – ينبغي أن تُوافق أجزاء الحوار المشهد التمثيلي أو السياق القصصي أو الروائي أو المسرحي الذي تُقَدَّم فيه "فمواقف المجد والعظمة تتطلّب جملاً قوية قصيرة، ومواقف الغرام تقتضي جملاً غنائيّة متدفّقة سلسة، فيها الفيض العاطفي والإحساس بالحب والجمال. والمواقف الفلسفية تستلزم جملاً رزينة متزنة، ذات صبغة منطقية ... بحيث يتعدّى مضمون الجمل إلى مضمون الكلمات والمقاطع أيضا"[١٣] .

ومن سمات الحوار الجيد :

١ – الاختصار، والإفصاح، والإبانة .

٢ – انتقاء خير الأساليب والجمل والألفاظ المعبرة عن الشعور والعاطفة، وترك العبارات التي لا قيمة لها.

٣ – الإشارة إلى الواقع ، لا نقله.

٤ – مراعاة طبيعة القارئ أو المستمع للحوار ، فإذا كان الحوار بين طرفين أو ثلاثة ظاهرياً، فإنه يوجد طرف آخر هو القارئ أو المستمع .

ومما يعيب الحوار: الإطناب، وهو ترك شخصيات العمل الأدبي تتحدّث كثيراً حديثاً لا طائل من ورائه، أي لا يُثري العمل الأدبي، أو يُعرِّفنا على الشخصيات التي تتحدّث أمامنا "ولذا يجب على المؤلف أن يكون متيقِّظاً ، ولا يسمح بأية كلمة لا يكون لها دورها في عرض الأحداث، أو تصوير الشخصيّات ، مدركاً أنَّ الإيجاز في استعمال الكلمات هو أساس القوة في الحوار"[١٤].

١ - *الحوار والفكرة*:

"ليست الفكرة هي الموضوع ... إن ما تدور حوله المسرحية هو موضوعها ...أما الغاية التي تتغيّاها المسرحية فهذه هي فكرتها"[١٥].

والفكرة "هي الحقيقة أو الحقائق التي يُريد الكاتب أن يؤكِّدها عن طريق تجسيمها على المسرح من خلال

الأحداث والشخوص، فهو يطرح وجهة نظره في قضية تشغل الناس، وهو بذلك يُشارك في إنارة الطريق نحو الحل السليم"[١٦].

وقد صدرت مسرحية "السلطان الحائر" لتوفيق الحكيم[١٧] عام ١٩٦٠م، وتدور أحداث المسرحية حول سلطان من سلاطين المماليك علم أن الناس في مدينته يلغطون أنه لم يزل عبداً، وأن سيده السابق لم يعتقه، ولهذا لا يحق له أن يحكم ويكون سلطاناً على الناس قبل أن يُعتق ويصير حراً .

ويتحيّر السلطان بين استعمال القوة لإسكات الناس (وهذا رأي الوزير)، والاحتكام إلى القانون (وهذا رأي القاضي). والاحتكام إلى القانون يعني أن يُعرض السلطان في مزاد عام أمام الناس ليشتريه من يشتريه فيعتقه، وقد تردّد السلطان بين الرأيين، ولكنه قرر في النهاية أن يكون القانون هو الحكم :

السلطان: قررت أن أختار .. أن أختار ..

الوزير: ماذا يا مولاي؟ ..

السلطان : (صائحاً في عزم) القانون! .. اخترت القانون! .. [١٨] .

وتم المزاد، وكان السلطان من نصيب غانية سيئة السمعة بالمدينة، ورفضت تلك الغانية التوقيع على وثيقة العتق، وبعد أخذ ورد وافقت الغانية على شراء السلطان والتوقيع على صك عتقه إذا أذّن المؤذن لصلاة الفجر!

وتستضيف الغانية السلطان في بيتها، ويدور بينهما حوار يكشف شخصيتيهما، فقد اكتشف السلطان أن الغانية بريئة من تهمة العهر، وما هي إلا امرأة تُحب الأدب والفن، كما اكتشفت الغانية طيبة السلطان ودماثة خلقه.

وأثناء الحوار بين الغانية والسلطان يؤذن المؤذن لصلاة الفجر قبل حلول الوقت، ويُفاجأ السلطان والغانية بالأذان، ثم يعلمان أن تلك الخطة من تدبير القاضي، الذي تحايل على القانون، وزعم أن العتق يتم إذا أذّن المؤذن لصلاة الفجر سواء أكان الأذان في موعده، أم في غير موعده، ويرفض السلطان ذلك، ويفضِّل أن يبقى عند الغانية حتى الموعد الحقيقي لأذان الفجر، ولكن الغانية لما رأت أن تلك الحيلة مبعثها حب القاضي للسلطان، قررت أن تُعيد هي الأخرى للسلطان حريته تعبيراً عن حبها، حتى ولو كان ذلك قبل الموعد المتفق عليه سلفاً، وقد أهداها السلطان الياقوتة الكبرى التي تزين عمامته، قائلا: "لن أنسى أبداً أني كنتُ عبدك ليلة"[١٩]!

إن فكرة الصراع بين القوة والقانون هي القضية التي بُنيت عليها مسرحية "السلطان الحائر"، وقد قال مؤلف المسرحية نفسه محدداً الفكرة التي يرمي إليها من تأليف المسرحية: "هذه المسرحية كُتبت في خريف ١٩٥٩م، عندما كان المؤلف في باريس يشهد فيها ما يجري في عالم اليوم، ووحيها ذلك السؤال الذي يقف عالمنا اليوم أمامه حائراً: هل حل مشكلات العالم هو في الاحتكام إلى السيف أو إلى القانون؟ .. في الالتجاء إلى القوة أو المبدأ؟"[٢٠].

وإن الذي أوحى له بفكرة هذه المسرحية هو ما شعر به إبان إقامته في باريس من صراع دولي عنيف بين القانون ممثلاً في هيئة الأمم المتحدة، والقوة ممثلة في القنابل الذرية والهيدروجينية"[٢١].

والمسرحية في هذا الإطار مرتبطة بفلسفة الكاتب العامة في كتاباته "والخط الفكري الواحد الذي يربط إنتاجه الأدبي، وهو في تقديره مقاومته للفناء والزمن والضعف"[٢٢].

لقد كان السلطان حائراً بين القوة والقانون، وكان باستطاعته رفض مسألة بيعه في المزاد أمام الناس، وإسكات الألسنة بحد السيف، ولكنه بذلك كان سيرتكب خطأ فادحاً ستتوارثه الأجيال لأنه سيسن سنة القفز إلى كرسي السلطة للمتطلعين إلى الحكم، وقد يكون السلطان أول ضحايا تلك السنة، ولو أصاخ السلطان إلى صوت

القانون، فسيضرب بذلك المثل لكل من يأتي بعده، وبذلك يحمي السلطان نفسه وسلطته"[٢٣]، وهذا ما قاله القاضي للسلطان :

القاضي : أعني أن لك الخيار يا مولاي السلطان .. لك أن تجعله للعمل، ولك أن تجعله للزينة .. إني معترف بما للسيف من قوة أكيدة، ومن فعل سريع وأثر حاسم، ولكن السيف يُعطي الحق للأقوى، ومن يدري غداً من يكون الأقوى؟ .. فقد يبرز من الأقوياء من ترجح كفته عليك! أما القانون فهو يحمي حقوقك من كل عدوان، لأنه لا يعترف بالأقوى .. إنه يعترف بالأحق! ..

والآن فما عليك يا مولاي سوى الاختيار: بين السيف الذي يفرضك، ولكنه يعرضك، وبين القانون الذي يتحداك ولكنه يحميك! .."[٢٤].

وقد أثرت تلك العبارات في نفس السلطان، وجعلته يتحوّل تدريجيا من اختيار القوة إلى اختيار القانون، حيث نرى السلطان بعد ذلك يتوقف عن مناظرة القاضي، ويتوقف لحظة مفكراً لأول مرة خلال تلك المناظرة.

إن المغزى الحقيقي للمسرحية – كما يقول محمد أبو الأنوار – "هو أن القوي من يحتمي بالقانون والحق، وليس هو من يحتمي بالسيف، وأن الخضوع للعدالة مجد ورفعة وقوة، ونكتشف أن حاجات المجتمع إلى سيادة القانون – على النحو الصحيح تماما – أشد من حاجتها إلى أي شيء آخر، ويظهر لنا بوضوح أن دور السلطان في حماية القانون هو دور جوهري وأصيل بل هو الدور الأول إذا فقده أو حاد عنه فقد كل شيء، وندرك أيضا أن حاجة الأمة إلى القاضي الأمين العادل تُساوي تماماً حاجتها إلى الجيش القوي الظافر، فالجيش يدفع البغي عن الأوطان، والقاضي يدفع البغي عن الحقوق التي بدونها يُصبح الأفراد هملاً وضياعاً، بل لا يمكن لأفراد تضيع عدالة القانون بينهم أن يصنعوا من أنفسهم جيشاً منتصراً أو أمة ذات قيمة"[٢٥].

ولعل مؤلف المسرحية أراد أن ينبِّه إلى غياب الديمقراطية بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، "وذلك عندما غابت شمس الملكية في مصر، وتطلّع المصريون إلى حكم أفضل، وجاءت الوعود الكثيرة بتحقيق آمال الديمقراطية من خلال مؤسسات اشتراكية، ولكن تبدّد سراب تلك الوعود، وظهر أن شمس الديمقراطية لم تشرق بمصر، بل ساد ظلام دامس سرت فيه المفاسد، وكان الحكم للسيف، وانزوى القانون في غياهب الظلام"[٢٦].

وتبدأ الإشارة إلى فكرة المسرحية في منتصف الفصل الأول تقريباً، من خلال الحوار التالي بين القاضي والمحكوم عليه والوزير:

القاضي : (يجلس على مقعد له) فكوا قيود المتهم! ..

(يفك أحد الحراس أغلال المحكوم عليه)

اقترب يا هذا .. ما هي جريمتك؟ ..

المحكوم عليه : لم أرتكب جُرماً! ..

القاضي : وما هو الاتهام المنسوب إليك؟

المحكوم عليه : سل الوزير عنه! ..

القاضي : إني أسألك أنت! ..

المحكوم عليه: ما فعلت شيئا قط سوى أني لفظت كلمة بريئة، لا خطر فيها ولا ضرر! ..

الوزير: إنها كلمة مروعة أثيمة!

القاضي: (للمحكوم عليه) ما هي هذه الكلمة؟

المحكوم عليه: لست أحبُّ أن أعيدها ..

الوزير: الآن لا تحب .. أما في وسط السوق وبين جموع الناس ..

القاضي: ما هي هذه الكلمة؟

الوزير: قال إن مولانا النبيل العظيم إن هو إلا عبد رقيق [٢٧] .

فالحوار يكشف عن الفكرة في هذا الموقف، وينمّيها

الحوار الذي يصل إلى الذروة في هذا المشهد من نهاية الفصل الأول بين الوزير والسلطان والقاضي، ويبلور الفكرة التي تطرحها المسرحية:

الوزير : وأسفاه! .. ما كان لي أن أعلم أن رجلاً مثل هذا سيأتي يوماً يثرثر ويلغط ..

السلطان : ولهذا أردت أن تُغلق فمه بإسلامه إلى الجلاد! ..

الوزير: نعم ...

السلطان : وتدفن غلطتك بدفن هذا الرجل ...

الوزير : (مطرقاً) نعم ...

السلطان : وما فائدة ذلك الآن .. والجميع يثرثرون ويلغطون؟ ...

الوزير : إذا قطع رأس هذا الرجل وعلّق في الساحة أمام الناس، فما من لسان بعدئذ يجرؤ على الكلام! ..

السلطان: أتظن ..؟

الوزير : إن لم يستطع السيف قطع الألسنة فماذا يستطيع إذن ..؟

القاضي : أتأذن لي بكلمة يا مولاي؟ ..

السلطان : إني مصغٍ .

القاضي: إن السيف قاطع للألسنة والرؤوس.. ولكنه ليس بقاطع في المشاكل والمسائل ..

السلطان: ماذا تعني؟ ..

القاضي: أعني أن المسألة ستظل دائماً قائمة .. وهي أن السلطان يحكم دون أن يُعتَق، وأنه عبد رقيق على شعب حر طليق!! [٢٨].

ويصل الحوار بالفكرة إلى منتهاها في نهاية الفصل الأول، حيث نرى حيرة السلطان تنتهي، ويصل إلى شاطئ الاستقرار:

السلطان: (وهو مطرق في تفكيره) السيف أم القانون؟! .. القانون أم السيف؟؟ ..

الوزير: إني مقدِّر يا مولاي دقة موقفك! ..

السلطان: ولا تُريد مع ذلك أن تُعينني برأيك؟! ..

الوزير: لا أستطيع .. أنت في هذا الموقف صاحب الرأي وحدك !

السلطان: لا مفرَّ إذن أن أُقرِّر بنفسي! ..

الوزير: هو ذاك ..

السلطان: السيف أم القانون؟! .. القانون أم السيف؟؟ ..

(يفكر لحظة ، ثم يرفع رأسه بقوة) .

حسن .. لقد قرّرت ..

الوزير: أوامرك يا مولاي! ..

السلطان: قررت أن أختار .. أن أختار ..

الوزير: ماذا يا مولاي؟ ..

السلطان: (صائحاً في عزم) القانون! .. اخترت القانون! .. [٢٩] .

والتكرار في المقطع السابق "السيف أم القانون؟! .. القانون أم السيف؟؟ .." التي تتكرّر مرتين على لسان السلطان توحي بالحيرة، والاضطراب، وعدم القدرة على اتخاذ القرار.

لكن السلطان وسط هذه الحيرة – كما يصفه الحكيم بين قوسين – (يفكر لحظة، ثم يرفع رأسه بقوة)، وكأنما الحوار أوصله إلى شاطئ الفكر، فمنحه الفكرُ القدرةَ على الاختيار، ومن ثم تنتصر فكرة اختيار القانون على السيف .

لكن فكرة الانحياز إلى القانون واختياره بديلاً عن السيف تُواجه اختباراً قاسياً حينما يُعرض السلطان للبيع، وتشتريه الغانية، ويُصرُّ القاضي على أن توقع وثيقة عتق السلطان في اللحظة التي تشتريه فيها:

الوزير : أتتجرّأين على شراء مولانا؟! ..

الغانية : ولم لا؟ .. ألست مواطنة ومعي نقود؟!.. فلم لا يكن لي عين الحق الذي للآخرين؟! ..

القاضي : نعم .. لك هذا الحق .. إن هذا القانون

يسري على الجميع .. على أنه يجب عليك أن تكوني على علم بشروط هذا البيع ..

الغانية : هذا طبيعي .. أنا أعلم أنه بيع ..

القاضي : بيع له صفة خاصة ..

الغانية : بيع بالمزاد العلني ..

القاضي : نعم .. ولكن ..

الوزير : إنه قبل كل شيء عمل وطني .. وأنت مواطنة يهمك خير الوطن فيما أظن ..

الغانية : بدون شك! ..

الوزير : إذن وقعي هذه الحجة! ..

الغانية : ماذا جاء في هذه الحجة؟ ..

الوزير : العتق ...(٣٠) .

ويستمر الحوار مع الغانية التي ترفض فكرة "التخلي عن المتاع الذي اشترته في المزاد"(٣١)، ويقول الوزير إنه يستطيع أن يُرغمها على التخلي عن السلطان بسيفه، فيقول له السلطان :

السلطان : تلْجأ إلى السيف الآن؟! .. لقد فات الأوان! ..(٣٢) .

وتكشف هذه العبارة التي قالها السلطان عن أن خيار اللجوء إلى السيف لم يعد مطروحاً، فقد انتصرت فكرة اللجوء إلى القانون.

وهكذا استطاع الحوار أن يُبرز الفكرة ويُقدِّمها لنا في صورة حيّة من الأحداث التي تتآزر، لتُبرز لنا أن اللجوء إلى سيادة القانون فيه الأمان للحاكم والرعية، وهي الفكرة التي أراد توفيق الحكيم إيصالها للمتلقي من خلال هذا العمل المسرحي.

٢ - الحوار والشخصيات :

للشخصية دورها الكبير في أي عمل مسرحي، فهي صانعة الأحداث، ولا يُمكن أن تؤلَّف مسرحية جيِّدة دون أشخاص يُديرون أحداثها، ومن هنا "تأتي أهمية الشخصية في المسرحية باعتبارها صانعة الحدث، فلا حدث بلا شخصية مرسومة رسماً جيداً"(٣٣).

وتعريف الشخصية "أمر لا يخلو من الصعوبة، ذلك لأن الشخصية الدرامية غير الشخصية في واقع الحياة، وقد تكون غيرها حينما تُعرض على خشبة المسرح"(٣٤).

لكننا نستطيع أن نقول "إن الشخصية المسرحية المتكاملة ينبغي أن تُقدِّم لنا إنساناً متعدد الأبعاد، له حياته الخارجية الظاهرة التي تضطرب أمامنا على المسرح، وله كذلك حياته الباطنة التي نرى انعكاسها على عالم الواقع فيما تقوله الشخصية أو تفعله أو تلبسه، أو ما تهمله فلا تتناوله بالعمل أو الحديث. وينبغي على هذه الشخصية المتكاملة أن تُساهم مساهمة فعّالة فيما يدور حولها من أحداث، وينبغي أن تُشارك مشاركة إيجابية في الصراع الدائر خارجها بينها وبين غيرها من الشخصيّات، وبين الشخصيات جميعاً وبين المجتمع أو العالم الخارجي، فعلى قدر المُساهمة في ذلك الصراع تتوقف حيوية الشخصية وتكمن قدرتها على التطور. وهذا العنصر الأخير - أي التطور هو إكسير الحياة بالنسبة للشخصية المسرحية الناجحة"(٣٥).

وأبرز أبطال مسرحية "السلطان الحائر" هم "السلطان والوزير والقاضي والغانية، ويأتي في المرتبة الثانية: الخمّار والإسكاف والمؤذِّن والجلاّد وخادمة الغانية، ثم الحراس وأفراد الشعب"(٣٦).

ولأننا لا نستطيع أن ندرس جميع الشخصيّات ونتوقّف أمامها في هذه الدراسة فسوف نتوقف أمام أربع شخصيّات، هي: السلطان، والقاضي، والغانية، والجلاّد.

أ - السلطان :

يعدُّ السلطان هو الشخصية المحورية في هذا العمل، حيث تدور حوله الأحداث، كما يتفاعل معه الأشخاص الآخرون . وتبدأ المسرحية بأن نتعرّف عليه في أزمته الخاصة؛ فهو عبد مملوك، توفي السلطان دون أن يوقِّع وثيقة عتقه،

ويدور حوار بينه وبين الوزير حول النخاس في هدوء :

الوزير : إنه يستحق الموت لثرثرته وانفلات لسانه ..

السلطان : لستُ أرى ضرراً بالغاً في أن يقول أو يذيع أني كنتُ عبداً رقيقاً .. السلطان الراحل نفسه كان كذلك .. أليس هذا صحيحاً أيها الوزير؟ ..(٣٧).

وإذا كان السلطان يبدو هادئاً في أول الأمر، فإنه ينفعل حين يعرف أنه لم يُحرَّر بعد، وأن وثيقة عتقه ليست موجودة عند القاضي:

السلطان : هذا محض زور وبهتان .. هذا محض اختلاق لا يستقيم معه عقل ولا منطق .. لم أعتق بعد؟ .. أنا؟! .. أنا الذي كان قائداً للجيوش وقاهراً للمغول .. الذراع الأيمن للسلطان الراحل، والخلف الذي أعده ليحكم من بعده .. كل هذا وما فكّر السلطان قبل وفاته في عتقي؟! .. أهذا معقول؟ .. اسمع أيها القاضي! ما عليك إلا أن تُطلق المنادين يُعلنون في المدينة التكذيب الرسمي، وينشرون على الناس نص الوثيقة المسجلة بعتقي، وهي لا شك محفوظة في خزائنك .. أليس كذلك؟(٣٨) .

ولكن القاضي حينما أخبره بأنه لا توجد وثيقة قانونية بعتقه في خزانته(٣٩)، وأقنعه بسلوك الطريق القانوني، استجاب له.

ويُعرض السلطان للبيع في السوق، ونرى الإسكاف يقرر أنه لو معه نقود تكفي لشراء السلطان ما اشتراه، لأنه ماذا يصنع بسلطان في حانوته؟! إنه قد يضطر لمضاعفة ساعات عمله ليطعمه ويخدمه. ويقول الخمار إنه لو يمتلك ثمن السلطان لاشتراه، ويعلل ذلك بقوله: "إن مجرد وجوده في حاني كفيل باجتذاب المدينة كلها .. يكفي أن أطلب إليه أن يقص على زبائني كل ليلة أخبار معاركه ضد المغول، وطرائفه، وأسفاره ومغامراته، وما رأى من بلاد، وما دخل من ديار، وما اجتاز من قفار .. أليس كل هذا مفيداً وممتعاً؟! .. "(٤٠) .

ويُصبح الأمر أقرب إلى المهزلة حين نرى حواراً يدور بين طفل وأمه الفقيرة، يرجوها أن تشتري له هذه اللعبة المسماة السلطان، التي تحمل سيفاً كبيراً يحلم به الطفل، ظانا أنه لعبة يُلعب بها!:

طفل : (لأمه) أماه! .. أهذا هو السلطان؟! ..

الأم : (لطفلها) لا يا بني! .. هذا أحد الحراس! ..

الطفل : وأين هو السلطان إذن؟! ..

الأم : لم يحضر بعد! ..

الطفل : وهل للسلطان سيف؟! ..

الأم : نعم سيف كبير! ..

الطفل : وهل سيبيعونه هنا؟! ..

الأم : نعم يا بني! ..

الطفل : متى يا أماه؟! ..

الأم : عما قليل ..

الطفل : أماه! .. اشتريه لي! ..

الأم : ماذا؟ ..

الطفل : السلطان! .. اشتري لي السلطان! ..

الأم : اسكت! .. إنه ليس لعبة تلعب بها! ..

الطفل : إنك قلتِ إنهم سيبيعونه هنا .. اشتريه لي إذن! ..

الأم : يا بني اسكت! .. هذا ليس لمثلك! ..

الطفل : لمن إذن؟ .. للكبار؟! ..

الأم : نعم .. هذا للكبار!(٤١).

وفي حديث الإسكاف والخمّار والطفل وأمه ما يكشف عن التحوُّل الذي جرى للسلطان من قاهر للمغول، إلى سلعة من السلع تُباع في السوق!

والسلطان في حواره مع الغانية في انتظار مطلع الفجر، يبدو – في إطار من الرقص والطعام والشراب – صورة من سلاطين ألف ليلة وليلة، بل لا ينسى المؤلف أن يُذكِّرنا تصريحاً بذلك في هذا الحوار بين السلطان والغانية:

الغانية : فلنبدأ إذن بالحديث! .. حدثني! ..

السلطان : عن نفسي؟! ..

الغانية : نعم .. عن قصتك؟! .. احك لي قصتك! ..

السلطان : تُريدين مني أن أحكي لك قصصاً؟!

الغانية : نعم .. في الحق أنه لا بد أن تكون لديك ذخيرة من القصص الرائعة الممتعة! .

السلطان : أنا الآن الذي يحكي القصص؟! ..

الغانية : ولم لا؟! ..

السلطان : حقا .. هذا ما ينبغي! .. ما دمتُ أنا في وضع شهرزاد! .. هي أيضاً كان عليها أن تحكي القصص الليلَ بطوله، في انتظار الفجر الذي سيُقرِّر مصيرها! ..

الغانية : (ضاحكة) وإذن أنا شهريار الهائل المُخيف ؟!

السلطان : نعم .. أليس هذا عجيباً؟ .. كل شيء اليوم يسير مقلوباً معكوساً! ..

الغانية : لا .. أنت السلطان دائماً .. أما أنا فهي التي في وضع شهرزاد الجالسة دائماً عند قدميك! ..

السلطان : شهرزاد القابضة على رقبة شهريارها القلق حتى يُدركه الصباح! ..

الغانية : لا .. بل شهرزاد التي تُدخل الانشراح في صدر سلطانها، والفرحة والبهجة في قلبه .. سترى الآن كيف أعالج قلقك وشكك![٤٢] .

وما دام المؤلف قد رأى أن يرسم شخصية السلطان على هذا النحو، ويخلع عليه رداء شهريار أو شهرزاد في مجلس من الغناء والرقص والطعام والشراب، فقد كان طبيعياً ألا يرتفع الموقف – وهو ذروة المسرحية – إلى ما كان ينبغي أن يرتفع إليه من توتر وصراع حول الحق والقانون، وحول تلك المحنة التي خاضها السلطان وأثرها في حكمه أو فهمه لمعنى القانون والحق. وهكذا ظل الحوار يجري بين السلطان والغانية على هذا النحو الفاتر بعيداً عن جوهر القضية"[٤٣].

ولكن المؤلف من خلال هذا الحوار أبرز جانباً من الشق الإنساني في تكوين السلطان قاهر التتار، الذي عاش للحرب والانتصارات . ويوضّح هذا الجانب الإنساني أيضاً هذا الحوار بين السلطان والغانية :

الغانية : أتسمح لي يا سلطاني العزيز؟! ..

السلطان : بماذا؟

الغانية : بسؤال شخصي أُلقيه عليك! ..

السلطان : سؤال شخصي؟! .. أوكل هذا الذي نحن فيه لم يكن شخصياً؟! ..

الغانية : أريد أن أسألك عن قلبك؟ .. عن الحب؟؟ ..

السلطان : الحب؟! .. أي حب؟! ..

الغانية : الحب لامرأة؟ ..

السلطان : أتتصوَّرين أنه لديَّ من الوقت ما أشتغل فيه بمثل هذه الأشياء؟! ..[٤٤] .

إن شخصية السلطان هي الشخصية المحورية التي تتركّز الأحداث عليها، والسلطان هو قاهر المغول، ولكن الكاتب – بوضع السلطان في هذا الإطار الذي اختاره لمسرحيته – يفتح ثغرة في شخصية السلطان لأنه عبد لم يُحرَّر بعد، ويحكم شعباً حراً، فلا بد من عتقه، وبعد صراع داخلي عنيف في أعماق السلطان، وخارجي مع الوزير والقاضي والغانية يقتنع السلطان بضرورة احترام عدالة القانون، وعدم اللجوء إلى السيف، وبذلك يُظهر السلطان شجاعة نادرة لا تتوافر في الكثير من السلاطين، ونتعرّف عليه إنساناً منحازاً للعدالة، وقادراً على الدفاع عن رأيه، كما وجدناه في أشدِّ اللحظات قتامة لم يتخلّ عن اختياره.

ب – القاضي :

تبدأ المسرحية بإثارة قضية أن الحاكم ليس حراً، فقد قال المحكوم عليه وهو النخاس الذي باع السلطان عندما كان طفلاً للسلطان الراحل، أن السلطان السابق لم يوقع وثيقة عتقه . وقد كان المحكوم عليه شجاعاً في إبداء

رأيه، ومن ثم رأى القاضي أن السلطان ما دام لم يعتق بعد فيجب بيعه .

ويقف القاضي موقفاً صُلباً في الدفاع عن القانون والشرع، ويبدي استعداده للموت في سبيل ما يعتقد أنه حق وواجب :

القاضي : هذا هو الحل القانوني الشرعي! ..

السلطان : (للوزير) لا تُضيِّع وقتاً! .. لم يبق من رد على هذا الأحمق إلا الإطاحة برأسه، ولتكن النتيجة ما تكون! .. وأنا الذي سيفعل ذلك بيده .. (يستل سيفه) .

القاضي : إنه لشرف عظيم لي يا مولاي لأن أموت بيدك، وأن تذهب روحي في سبيل الحق والمبدأ!! ..

الوزير: صبراً يا مولاي صبراً! .. لا تصنع من هذا الرجل شهيداً .. ما من ميتة أروع من هذه يتمناها مثل هذا الشيخ المهدَّم! .. سوفَ يُقال إنك حطَّمت القانون والشرع فيه .. وسوف يُصبح هو الرمز الحي لروح الحق والمبدأ .. ورُبَّ شهيد له من التأثير والنفوذ في ضمير الشعوب ما ليس لملك جبّار من الملوك! ..

السلطان : (يكظم غيظه) لعنة الله ..

الوزير : لا تُنِلْه هذا المجد يا مولاي على حساب الموقف! ..

السلطان : وما العمل إذن؟ .. إن هذا لرجل يضعنا في مأزق .. ويُخيِّرُني بين أمرين، كلاهما مر : القانون الذي يُظهرني ضعيفاً ويصيِّرني أضحوكة، أو السيف الذي يصمني بالوحشية ويجعلني بغيضاً! ..

الوزير : (يتجه إلى القاضي) يا قاضي القضاة! .. كن ليناً ميسراً .. ولا تكن صلباً معسراً .. قف معنا في منتصف الطريق، وأوجد لنا حلاً وسطاً، واجتهد معنا في البحث عن مخرج معقول! ..

القاضي : ما من مخرج معقول سوى القانون ..

الوزير : نطرح السلطان للبيع في المزاد؟! ..

القاضي : نعم! ...(٤٥) .

ثم تجري أحداث بيع السلطان "وكان القاضي – وهو حامي حمى القانون – قد أدخل في البيع شرطاً فاسداً، وهذا الشرط أن من يشتري لا بد أن يقوم بالعتق في الحال، وهو شرط يتعارض مع حقوق الملكية"(٤٦)، ويدور حول طويل بين الغانية والقاضي حول هذا الشرط الذي يتسم "بالتلفيق والتزوير والتحايل باسم القانون والقانون منه براء"(٤٧)، نجتزئ منه هذا الجزء:

القاضي : حقا أيتها المرأة .. لقد وقّعت عقد بيع، ولكنه عقد مشروط ..

الغانية : يعني! ..

القاضي : يعني أنّه عقد معلّق على شرط ..

الغانية : أي شرط؟! ..

القاضي : العتق .. وإلا فالبيع نفسه يصبح باطلاً! ..

الغانية : تعني أيها القاضي أنه لكي يُصبح البيع صحيحاً يجب أن أوقّع العتق! ..

القاضي : نعم!

الغانية : وتعني كذلك أنه يجب أن أوقع العتق حتى يصبح الشراء نافذاً! ..

القاضي : تماماً .

الغانية : لكن يا مولاي القاضي .. ما هو الشراء .. أليس هو امتلاك شيء في نظير ثمن؟! ..

القاضي : هو هذا! ..

الغانية : وما هو العتق؟ .. أليس هو عكس الامتلاك؟! .. إنه التخلي عن الامتلاك؟ ...

القاضي : نعم! ..

الغانية : إذن أيها القاضي أنت تجعل العتق شرطاً للامتلاك .. أي أنه لكي يكون امتلاك الشيء المبيع صحيحاً يجب على المشتري أن يتخلّى عن هذا الشيء ..

القاضي : ماذا؟ .. ماذا؟ ..

الغانية : بعبارة أخرى لكي تمتلك شيئا يجب أن تتخلّى عنه ..

القاضي : كيف تقولين لكي تملك يجب أن تتخلّى؟ ..

الغانية : أو إذا شئت .. لكي تملك يجب أن لا تملك ..

القاضي : ما هذا الكلام؟

الغانية : هذا هو شرطك .. لكي أشتري يجب أن أعتق .. لكي أملك يجب ألا أملك! .. أترى هذا معقولاً؟! ..

السلطان : معها حق .. لا عقل ولا منطق يقبل هذا [٤٨] .

وفي نهاية المسرحية نراه يستدعي المؤذِّن ليؤذن في منتصف الليل، حتى يُرغم الغانية على توقيع وثيقة عتق السلطان ، "وهو يرى أن هذا العمل من جانبه خدمة جليلة للسلطان، ولا يهم القانون الآن في شيء"[٤٩] .

والقاضي في هذه المسرحية مثال على التذبذب والتغيُّر؛ فقد تغيَّر من حامي حمى القانون إلى مُدَلِّسٍ ، يحرص على الشكل، وإن تنافى الشكلُ مع الحقيقة كما أسلفنا .

ولعلَّ الحكيم أراد أن ينتقد بعضَ كبار رجال القانون المصريين الذين عملوا في تلك الفترة – مع رجال الثورة – وسهروا على إصدار قوانين تُيسِّر لهم حكم البلاد، وتعصف بمعارضيهم الذين أسموهم "الرجعيين، ورجال الثورة المضادة".

ج – الغانية :

امرأة ظلمها المجتمع، وساءت سمعتها عنده، واتهمها بالعهر، ومع ذلك تنتصف للمحكوم عليه بالإعدام، وتستنكر إعدامه دون محاكمة عادلة، ثم تحتال لتأخير تنفيذ الحكم فتنقذه بذلك من الموت "ولولا ذلك لما أثيرت المشكلة الكبرى في المسرحية وهي عدم شرعية الحاكم"[٥٠]، ثم إذا بها تشتري السلطان، وتعيد إليه حريته.

في الفصل الأول يتهمها الجلاد بـ "الخنا والفجور"[٥١]، وفي الفصل الثاني تتقدّم لشراء السلطان وتدفع ثلاثين ألفاً نقداً وعداً، وفي الفصل الثالث نكتشف الصفات الحقيقية للغانية، فهي حرة وليست جارية "وإلا لما استطاعت أن تهب غيرها الحرية، وهي من هواة الفن والثقافة، ولا تأبه برأي الناس فيها، ولا تُحاول تصحيحه، فعند ما يجتاز الإنسان – على حد تعبيرها – أقصى حدود السوء فإنه يصير حراً"[٥٢].

وهي في حاجة إلى حريتها لتعمل ما يحلو لها، وهو صحبة الرجال من أجل أرواحهم وعقولهم، وليس من أجل أجسادهم كما يظن السلطان، ومن قبله كثرة أهل المدينة[٥٣].

وهذا جزء من الحوار الذي دار بينها وبين الوزير يكشف عن فهم للأمور وحسن احتجاج ، حينما طلب منها أن تُوقِّع وثيقة عتق السلطان في اللحظة التي اشترته فيها ودفعت فيه ثلاثين ألفاً عداً ونقداً :

الغانية : ماذا يعني هذا؟ ..

الوزير : ألا تعرفين ما هو معنى العتق؟ ...

الغانية : أمعناه أن أتخلّى عمّا في يدي؟! ..

الوزير : نعم! ..

الغانية : أتخلى عن المتاع الذي اشتريته في المزاد؟! ..

الوزير : هو ذاك ..

الغانية : لا أريد التخلي عنه ..

السلطان : جميل! ..

الوزير : ستتخلين عنه أيتها المرأة! ..

الغانية : لا ..

الوزير : لا تُرغميني على أن أكون عنيفاً .. إنك تعلمين أني أستطيع أن أرغمك ..

الغانية : بأية وسيلة؟ ..

الوزير : (مشيراً إلى سيفه) بهذا ...[٥٤].

إن حديثها يبدو مقنعاً، بينما يبدو حديث الوزير معتمداً على السلطة وجبروتها، حيث تلجأ إلى السيف دائماً حينما تفشل في إدارة الحوار، ومن ثم يتدخّل السلطان بعد الحوار السابق مباشرة ويقول :

السلطان : تلْجأ إلى السيف الآن؟! .. لقد فات الأوان! ..[٥٥] .

لقد ظلم المجتمعُ الغانيةَ، واتهمها زوراً بالخنا والفجور، وتكرّمت هي بفعل الخير في إنسانية ونبل، عندما منحت السلطان حريته، لمّا أراد القاضي أن يحتال ويؤذّن للفجر قبل موعده:

الغانية : لا .. إن قاضي قضاتك أراد أن ينقذك .. وإني لا أحب أن أكون أقل منه إخلاصاً لك! أنت الآن يا مولاي حر! ..

السلطان : حر؟! ..

الغانية : نعم .. هات حجة العتق يا قاضي القضاة لأوقّع عليها ..

القاضي : توقعين الآن ..

الغانية : نعم الآن! ..(٥٦) .

ورفضت أن تأخذ ثمناً أو تعويضاً من السلطان بعد عتقه:

السلطان : فلنتقدّم بالثناء على كرم هذه السيدة النبيلة .. اسمحي لي يا سيدتي أن أوجّه إليك شكري، وأن أرجو منك أن تقبلي ردَّ مالك إليك، إذ لم يعد من سبب يدعو إلى خسارة مالك! .. أيها الوزير فليُدفع لها من مالي الخاص ما يُعادل المبلغ الذي خسرته! ..

الغانية : لا .. لا يا مولاي السلطان! .. لا تسترد مني هذا الشرف! .. ما من ثروة في الأرض تعدل عندي هذه الذكرى الجميلة التي سأعيش عليها طول حياتي .. إني بشيء زهيد أسهمت في حدث من أعظم الأحداث! ..

السلطان : حسن .. ما دام للذكرى عندك هذا الشأن فاحتفظي إذن بهذا التذكار ..

(يخلع الياقوتة الكبرى من عمامته)

الوزير : (هامساً) الياقوتة الفريدة في الدنيا! ..

السلطان : إلى جانب فضلها تعتبر شيئاً بخساً! ..

(يقدم الياقوتة)

الغانية : لا يا مولاي السلطان العزيز .. لست أستحق .. لست جديرة بكل هذه .. هذه ..

السلطان : (وهو يتحرك للانصراف) وداعاً أيتها السيدة الفاضلة(٥٧).

لقد رسم توفيق الحكيم من خلال حواره صورة لسيِّدة ظلمها المجتمع، ولكنَّها مع ذلك تتقدّم لشراء السلطان، وتُصرُّ على تملكه "ولو لليلة واحدة، لعلّها تستردُّ كرامتها من الجمهور الذي لم يفهم عنها حياتها وسيرتها، وهي لا ترجو أكثر من أن يبقى السلطان عندها ليلة حتى مطلع الفجر"(٥٨). وفي هذه الليلة عرف السلطان وعرف الجمهور أي سيدة فاضلةٍ كانت!

د - الجلاد :

رجل بلا قلب ، لا يعرف الرحمة، يهدِّد المحكومَ عليه بأنه سيقتله مع أذان الفجر ويغني!، ويطلب من النخاس المحكوم عليه بالإعدام أن يهيئ له جواً مريحاً ليؤدِّي مهمته على أحسن وجه مع أذان الفجر!

إنه وحش كاسر في صورة آدمية.

وهناك الكثير من مثل هذه الشخصيات في كل مجتمع، وهم أدوات السلطة - حينما تكون غاشمة ظالمة - للبطش بالأبرياء. وننقل هنا جزءاً من حوار دار بينه وبين المحكوم عليه :

الجلاد : صه! .. صه! .. أغلق فمك، لقد أمرت بقطع رقبتك في الحال لو نبست بحرف عن جريمتك ..

المحكوم عليه : لا تنزعج! .. أغلقت فمي! ..

الجلاد : هذا خير ما تفعل! .. أن تُغلق فمك وأن تتركني أهنأ بنومي! .. إنه من مصلحتك أن أستمتع بنوم هادئ هنيء! ..

المحكوم عليه : من مصلحتي؟! ..

الجلاد : بالتأكيد .. من مصلحتك أن أكون في راحة تامة وصحة جيدة جسماً ونفساً، لأني حين أكون متعباً ، ضيِّق الصدر، متوتر الأعصاب .. فإن يدي تُصاب بالرعشة، وعندما تُصاب بالرعشة فإني أؤدي عملي أداء سيئاً ..

المحكوم عليه : وما شأني بعملك؟! ..

الجلاد : يا أحمق! .. عملي متصل برقبتك! .. إن سوء الأداء معناه أن رقبتك لن تقطع قطعاً حسناً .. لأن القطع الحسن يحتاج إلى يد ثابتة ونفس هادئة، حتى يُطاح الرأس بضربة واحدة ، لا تدع وقتاً للإحساس بالألم .. فهمت الآن؟!(٥٩).

وهذا هو الجلاد نراه في موقف آخر حين يسب الغانية ويقذفها بالسباب ترسل له خادمتها لتلقنه درساً في الأدب، وترفع النعل وتقول له إنها لم تجد أعتق منها ولا أقذر مما يليق بوجهه القبيح(٦٠)، ومن عجب أننا نراه رعديداً خوَّاراً حين يتلقّى تهديد خادمة الغانية بصفع النعال، ولا يقابل ذلك إلا بطلب المساعدة من المحكوم عليه، وباعتذاره هو منها :

الجلاد : يا لقلة الشهامة، وسقوط الهمة! .. تراها وقد رفعت في يدها النعل كما يُرفع الحسام أو الصارم الصمصام، ولا تهب لتدافع عني؟! .. تقف هكذا مكتوف اليدين! .. تتفرّج بغير اكتراث! .. وتُصغي بدون اهتمام إلى إهانتي وتحقيري وسبي! .. ليس هذا والله من المروءة في شيء! ..

المحكوم عليه : حقا! ..

الخادمة : (تهز النعل بيدها) اسمع أيها الرجل! .. دع هذا المسكين وشأنه! .. واجهني أنا إذا كانت لديك الشجاعة! .. حسابك معي أنا .. لقد أسأت أدبك معنا، وعليك أن تُقدِّم لنا اعتذاراً وتطلب منّا الصفح .. وإلا فورب العزة صاحب الملكوت وواهب الجبروت ..

الجلاد : (في رفق) مهلاً .. مهلاً ..

الخادمة : تكلّم .. ما جوابك؟ ..

الجلاد : التفاهم! ..

الخادمة : اطلب الصفح أولاً! ..

الجلاد : إلى من أطلب الصفح؟ .. إليْكِ أنتِ؟ ..

الخادمة : إلى مولاتي

الجلاد : أين هي؟ ..(٦١) .

ويكشق غناء الجلاد في الفصل الأول عن حس إنساني يختفي وراء الغلظة، وجفاف المشاعر الذي أكسبته إياه مهنته القاسية، يقول في هذه الأغنية :

الجلاد :

يا زهـرةً عمـرُها ليلـةْ
عليكِ السلامِ من المعجبينْ
إذا أذّن الفجرُ غداً، تُقطفينْ
ويسقُطُ عنكِ رداءُ النّدى!
وفي سلّةٍ منْ حطَبٍ ترقُدينْ
وتخفُتُ منْ حولِك ألحاني!...
ويبْرُقُ في الجوِّ نصْلُ الرّدى!
مُضيئاً في يدِ البُستاني!
يا زهرةَ عمرُها ليلةْ! ..
عليكِ السلام عليكِ السلام! ..(٦٢)

فالمحكوم عليه هو الزهرة، والجلاد هو البستاني الذي سيقطفها في مطلع الصباح! ورغم أن السطور السابقة تخلو من الوزن الواحد الذي ينتظمها، فإنها تمتلئ بالشاعرية التي يصفها توفيق الحكيم في حوار معه بأنها "بمثابة انبعاث شيء غير مرئي ولا ملموس، يُحدث بمجرّد انبعاثه تأثيراً غير معلوم في نفسك، ولكنك تشعر بعده كما لو كانت أشعة لا تُرى قد كشفت لك عن عالم مجهول، فالشاعرية إذن هي عملية كشف عن عالم مجهول، والقيمة الأدبية تأتي هنا من أن هذا الكشف الشاعري قد أضاف أبعاداً غير متوقّعة للبُعد المادي المتوقّع والمنظور"(٦٣) .

٣ - الحوار والصراع :

الصراع في علم النفس هو "حالة وجدانية يعيشها الإنسان بفعل أن عواطفه من طبيعتها أن تتضارب حينما تتفاعل مع الظروف والملابسات والمواقف، ودراسة الصراع نفسها هي دراسة العاطفة في تكونها وحركتها ونشاطها

وعلى الخصوص في وضع التوتر الذي تتصارع فيه مع نفسها داخلياً، ومع الظروف والعوائق خارجياً، والصراع يكون في العواطف المختلفة داخل النفس وهو الصراع الداخلي ، أو بين العواطف والقوى القهرية الخارجية حين تصطدم هذه العواطف بما يعوقها عن نشاطها ووظيفتها وهو الصراع الخارجي"(٦٤).

ويعد بعض النقّاد الصراع في المسرحية من أهم عناصرها الفنية، بل العنصر الذي يميزها عن غيرها من الفنون الأدبية، وذلك لأن لفظة دراما الإغريقية نفسها معناها اللغوي الذي استمدّت منه معناها الاصطلاحي "هو الحركة" (٦٥) .

وعنوان المسرحية "السلطان الحائر"، ويرى أحد النقّاد أن "عنوان المسرحية كثيراً ما يحمل معناها، ويكون بمثابة مفتاح لإدراك كنهها" (٦٦) ، وعنوان المسرحية يُشير إلى الحيْرة التي وقع فيها السلطان عندما اكتشف أنّ وثيقة رقه لم توقَّع من السلطان الرّاحل، وحار لفترة بين السيف والقانون، وهذا لبُّ الصراع في المسرحية .

ويظهر الصراع بين السيف والقانون في الحوار التالي بين السلطان والوزير والقاضي، حول النخاس المتهم بإثارة قضية أن السلطان لم يُحرَّر، وأن القاضي لا يمتلك في خزانته حجة شرعية موثقة على ذلك :

الوزير : ليس من الضروري لمن يحكم أن يحمل في يديه الوثائق والحجج! .. لدينا أروع مثل وأقواه في الأسرة الفاطمية .. وكلنا يذكر ما فعل المعز لدين الله الفاطمي يوم جاء يزعم أنه من نسل رسول الله صلوات الله عليه، وأنه بهذا النسب له حق الحكم في أرض مصر، فلما لم يصدِّقْه الناس قام فيهم شاهراً سيفه، وفاتحاً صناديق ذهبه، وهو يقول: هذا حسبي .. وهذا نسبي! .. فسكت الناس، وحكم هو وذريته من بعده هادئين هانئين الأجيال الطويلة! ..

السلطان : ما تقول في هذا أيها القاضي؟ ..

القاضي : أقول إن هذا صحيح من الوجهة التاريخية .. ولكن ..

السلطان : ولكن ماذا؟ ..

القاضي : تريد إذن أيها السلطان العظيم أن تحل مشكلتك بهذه الطريقة! ..

السلطان : ولِم لا؟! ..(٦٧).

ويصل الصراع إلى ذروته عندما يتأزَّم الموقف، ويقترح الوزير أن "يُعلن للناس على الملأ أن مولانا السلطان قد أعتق عتقاً شرعيا، أعتقه السلطان الراحل قبل وفاته، وأن الوثائق والحجج محفوظة لدى قاضي القضاة، والموت لمن يجرؤ على تكذيب ذلك!"(٦٨)، ويرفض القاضي هذا الكذب الصريح، ويقول إنه لن يشترك في هذه المؤامرة ضد القانون، ولا بد أن يُباع السلطان، ويُردُّ ثمنه إلى بيت المال :

القاضي : هناك شخص سوف يُكذِّب ذلك ..

الوزير : من هو؟ ..

القاضي : أنا ..

السلطان : أنت؟! ..

القاضي : نعم .. أنا يا مولاي .. إني لا أستطيع أن أشترك في هذه المؤامرة! ..

الوزير : إنها ليست مؤامرة .. إنها خطة لإنقاذ الموقف ..

القاضي : إنها مؤامرة ضدّ القانون الذي أُمثِّله ..

السلطان : القانون؟! ..

القاضي : نعم أيها السلطان .. القانون .. أنت في نظر الشرع والقانون لست سوى عبد رقيق .. والعبد الرقيق يعتبر – قانوناً وشرعاً – شيئاً من الأشياء ومتاعاً من الأمتعة وبما أن السلطان الراحل المالك لرقبتك لم يعتقك قبل وفاته ، فأنت لم تزل شيئاً من الأشياء ومتاعاً مملوكاً لآخر، وعلى هذا فأنت فاقد لأهلية التعاقد في المعاملات العادية التي يُزاولها بقية الناس الأحرار .. (٦٩).

ويحسم السلطان الصراع ويختار اللجوء إلى القانون، ويصل الصراع إلى قمته حين يصل موكب السلطان إلى الساحة التي يُباع فيها، ويبدأ مزاد البيع بخطبة عصماء للوزير:

الوزير : أيها القوم الأعزاء! .. إنكم تحضرون اليوم حدثاً فذا ضخماً، من أخطر الأحداث في تاريخنا : سلطان مجيد يطلب حريته، فيلجأ إلى شعبه بدلاً من أن يلجأ إلى سيفه، هذا السيف البتّار الجبّار الذي انتصر به في معارك المغول، كان يستطيع أن ينتصر به أيضاً في نيل حريته وتحرير رقبته .. ولكن سلطاننا المظفر العادل قد اختار أن يخضع للقانون .. كما يخضع له أضعف فرد في رعيته، وها هو ذا يلتمس حريته بالطريق التي نصّ عليها القانون .. فمن شاء منكم أن يفتدي حرية سلطانه المحبوب فليتقدّم إلى هذا المزاد[٧٠].

ويرسو المزاد على الغانية، "وتدفع أكياس الذهب بها ثلاثون ألف دينار نقداً وعداً، والقاضي – وهو حامي حمى القانون – كان قد أدخل في البيع شرطاً فاسداً، وهذا الشرط أن من يشتري لا بد أن يقوم بالعتق في الحال، وهو شرط يتعارض مع حق الملكية، ولكن الغانية ترفض التخلي عمّا اشترته، وهنا يهددها الوزير بالسيف، وهنا يتدخّل السلطان :

السلطان : تلْجأ إلى السيف الآن ؟! .. لقد فات الأوان! .. [٧١] .

ويصل الصراع إلى قمته عندما تُوافق الغانية على توقيع وثيقة العتق عندما يؤذّن لصلاة الفجر :

الغانية : لفظ من فمي يستطيع أن يُغيِّر مصيرك، ويُوجِّه حياتك: إما إلى الرق والعبوديّة، وإمّا إلى الحرية والسِّيادة! ..

السلطان : وعليك أن تختاري! ..

الغانية : (متفكرة) بين العبودية التي تمنحك لي، وبين الحرية التي تحفظك لعرشك وشعبك!..

السلطان : عليك أن تختاري! ..

الغانية : الخيار صعب! ..

السلطان : أعرف! ..

الغانية : إنه لمؤلم أن أتركك تذهب .. أن أفقدك إلى الأبد! .. ولكنه مؤلم أيضاً أن أراك تفقد عرشك! .. لأن بلادنا لن يُتاح لها أبداً سلطان في مثل عدلك وشجاعتك .. لا .. لا تترك الحكم، ولا تعتزل العرش! .. أريد أن تبقى سلطاناً.

السلطان : .. وإذن؟

الغانية : سأوقع الحجة! ..

السلطان : حجة العتق؟ ..

الغانية : نعم! ..[٧٢]

ويرى إبراهيم عوض أن عيب المسرحية الأكبر يتمثّل "في أن الأساس الذي تقوم عليه وهو الصراع داخل نفس السلطان بين السيف والقانون لا يستغرق إلا لحظات قصار، سرعان ما يختار السلطان القانون بعدها وفي عزم، مع أن مثل ذلك الأمر لا يُمكن أن يُحسم بمثل هذه البساطة"[٧٣].

ويرى عبد القادر القط أن الصراع الحقيقي كان غائباً، ويرى أن بقية المسرحية كان يمكن أن تكون بعد البيع، لصراع نفسي عميق حاد في نفس السلطان في الساعات القليلة التي قضاها في بيت الغانية[٧٤] .

ونحن لا نوافق الباحثين على رأيهما ونرى أن الصراع نام وممتد على امتداد المسرحية ؛ ففي الفصل الأول حين بوغت السلطان بمعرفة أنه لا يزال عبداً ويجب بيعه ورد ثمنه إلى بيت المال، دار حوار بينه وبين القاضي والوزير حينما اقترح الوزير على القاضي أن "يعلن على الملأ أن مولانا السلطان قد أعتق عتقاً شرعياً .. أعتقه السلطان الراحل قبل وفاته وأن الوثائق والحجج مسجلة ومحفوظة لدى قاضي القضاة، والموت لمن يجرؤ على تكذيب ذلك"[٧٥].

القاضي : بالنسبة إليّ الأمر يختلف .. فأنا لا أستطيع أن أكذب على نفسي، ولا أستطيع التخلص من القانون وأنا الذي أمثله .. ولا أستطيع الحنث بيمين عاهدت فيها نفسي على أن أكون الخادم الأمين للشرع والقانون! ..

السلطان : عاهدت فيها نفسك أمامي ...

القاضي : وأمام الله وضميري ..

السلطان : معنى ذلك أنك لن تسير معنا ...

القاضي : في هذا الطريق .. لا ..

السلطان : ولن تضع يدك في أيدينا ..

القاضي : على هذه الخطة .. لا ..

السلطان : إذن .. نستطيع في هذه الحالة أن تُنحِّي نفسك جانباً .. ولا تتدخّل في شيء، وتتركنا نحن نفعل ما نشاء .. بهذا تصون يمينك وتُرضي ضميرك ..

القاضي : إني آسف يا مولاي السلطان ..

السلطان : لماذا؟

القاضي : لأني الآن .. وقد علمت أنك في نظر القانون فاقد لأهلية التعاقد .. أراني مضطراً إلى الحكم ببطلان كل تصرفاتك ..

السلطان : إنك مجنون .. هذا مستحيل! ..[76] .

إن هذا الحوار يكشف عن بداية الصراع في نفس السلطان، وأنه لم يكن متهيئاً لفكرة أنه عبد، يجب أن يُباع كالأشياء ، ويُردُّ ثمنه إلى بيت المال . لكنه بعد حوار طويل أشرنا إلى أطراف منه فيما مضى وافق على أن ينتصر القانون على السيف .

وفي الفصل الثاني حينما عُرض للبيع، واشترته الغانية، ورفضت أن تُوقِّع وثيقة عتقه في لحظة الشراء نفسها، يتدخّل السلطان في الحوار بين القاضي والغانية، وينتصر للقانون الذي اختاره :

القاضي : ما هذا الكلام؟ ..

الغانية : هذا هو شرطك .. لكي أشتري يجب أن أعتق .. لكي أملك يجب ألا أملك! .. أترى هذا معقولاً؟! ..

السلطان : معها حق .. لا عقل ولا منطق يقبل هذا ..

القاضي : من علمك ذلك أيتها المرأة؟ .. ما من ريب في أنه فقيه من فقهاء القانون، قادر ماجن فاجر هو الذي لقّنها هذا الذي تقول ..

السلطان : وماذا يهم! .. هذا لن يُغير من الأمر شيئاً .. هذا هو قانونك أيها القاضي! .. أرأيت؟! .. مع القانون .. هناك دائماً حجة تقارع حجة، وكلها لا تخلو من المعقول والمنطق ..

القاضي : ولكن هذه مغالطة! .. هذه سفسطة .. إن ما تقوله هذه المرأة ليس إلا سفسطة !

السلطان : شرطك هو السفسطة .. فالبيع هو البيع ..[77].

وفي الفصل الثاني نفسه نشهد هذا الحوار بين السلطان والغانية ، يكشف عن صراع يدور في نفس السلطان حول إمكان عتقه بيدي الغانية التي اشترته:

السلطان: ... تعالي هنا أيتها المرأة! .. اقتربي! .. خطوة أخرى .. هنا .. أمامي! .. أريد أن أُلقي عليك بعض أسئلة .. أتسمحين؟ ..

الغانية : سمعاً وطاعةً يا مولاي! ..

السلطان : أولاً .. وقبل كل شيء .. من أنا؟ ..

الغانية : من أنت؟! ..

السلطان : نعم .. من أكون أنا؟ ..

الغانية : أنت السلطان! ..

السلطان : أنت معترفة بأنّي السلطان؟ ..

الغانية : طبعاً! ..

السلطان : حسن .. والسلطان ما عمله؟! ..

الغانية : عمله .. أنه يحكم ..

السلطان : أنت موافقة على أنه يحكم؟

الغانية : بدون شك ..

السلطان : حسن جداً .. إذن ما دمت مقرّة بكل هذا، فكيف تطلبين بأن يُسلِّم إليك السلطان؟! ..

الغانية : لأنه أصبح من حقي! ..

السلطان : لستُ أناقشك حقك .. إنما أتساءل فقط عن إمكان تنفيذ هذا الحق .. ما دمت سلطاناً يحكم، فكيف أستطيع القيام بمهام منصبي إذا سلِّمت إليك في منزلك؟! [٧٨] .

وهو حوار يتصف بالهدوء في ظاهره، لكنه يكشف عن عمق الصراع في نفس السلطان، الذي يُريد أن يقنع الغانية بأن ذهابه إلى بيتها سيعوقه عن أداء دوره في تنفيذ أمور الدولة والاستجابة لمتطلّبات الحكم.

ونكتشف من خلال قصر الجمل وعلامات الاستفهام حدة ما يعتمل في داخل نفس السلطان من غيظ للموقف الذي صار فيه، لكن السيف لم يعد يُجدي في علاج الأمر، ومن ثم فهو لا يمتلك إلا الحوار عساه يُقنع مالكته (الغانية) بعتقه دون أن تأخذه معه – كمتاع من الأمتعة، اشترته بحر مالها – إلى بيتها!

وفي الفصل الثالث نرى السلطان غاضباً حينما يكتشف أن القاضي يتلاعب بالقانون من أجل منح السلطان حريته، فقد أذَّن المؤذن – بإيعاز من القاضي – قبل موعد أذان الفجر، وغضب لمنطق القاضي الذي يقول: "لم يكن الفجر ذاته في الموضوع .. ولكن الوعد انصبَّ على صوت المؤذن وهو يؤذِّن لصلاة الفجر .. فإذا أخطأ المؤذِّن في التقدير أو التصرف فهو مسؤول عن خطئه ... إن المؤذِّن سيُحاكم بالطبع على خطئه .. ولكنَّ هذا لا يُغيِّر شيئاً من طبيعة الواقع: وهو أننا سمعنا جميعاً المؤذن يؤذِّن لصلاة الفجر من فوق مئذنته .. وإذن فكل النتائج القانونية المترتبة على ذلك يجب أن تأخذ مجراها"[٧٩]، ويطلب من الغانية التوقيع على وثيقة العتق.

إن الصراع يعتمل في نفس السلطان، ويرى أن اللجوء إلى القانون لم يكن إلا لعبةً عند الوزير والقاضي، ويظل السلطان على اقتناعه بالقانون وجدواه إلى النهاية :

السلطان : (صائحاً) يا للعار! .. كفى ، كفى! .. أبطلوا هذا العبث! .. كفوا عن هذا الصَّغار! .. إنها لن توقع! .. إني أرفض رفضاً باتاً أن توقع بهذه الطريقة! .. وأنت يا قاضي القضاة ألا تخجل من اللعب هكذا بالقانون؟!

القاضي : يا مولاي السلطان! ..

السلطان : لقد خاب ظني! .. خيَّبت ظني فيك يا قاضي القضاة! .. أهذا هو القانون في رأيك؟! .. اجتهاد وبراعة في التحايل والتلاعب؟! ..

القاضي : إنما أردت يا مولاي أن ..

السلطان : أن تُنقذني .. أعرف ذلك .. لكن هل تظن أني أقبل إنقاذي بمثل هذه الوسائل؟! ..[٨٠].

وهكذا ظل الصراع مستمراً في فصول المسرحية جميعاً، حتى انتهت أزمة "السلطان الحائر"، وظل الحوار ناقلاً أميناً لهذا الصراع بنوعيه الخارجي والدَّاخلي.

٤ - المزلق الذي وقع فيها الحوار:

أشرنا من قبل إلى المزلق الذي من الممكن أن يقع فيه الحوار في المسرحية، وهو: الإطناب، بمعنى أن يترك المؤلف شخصيات عمله المسرحي تتحدّث كثيراً حديثاً لا طائل من ورائه، أي لا يُثري العمل الأدبي، أو يُعرِّفنا على الشخصيات التي تتحدّث أمامنا "ولذا يجب على المؤلف أن يكون متيقِّظاً، ولا يسمح بأية كلمة لا يكون لها دورها في عرض الأحداث، أو تصوير الشخصيّات، مدركاً أنَّ الإيجاز في استعمال الكلمات هو أساس القوة في الحوار"[٨١] .

والقارئ للمسرحية يُلاحظ بعض الحوارات التي تظهر فيها الإطالة غير اللازمة والإطناب غير المُبرَّر، ولعلّ ما دفع الحكيم إليها هو الفكاهة والانسياق وراء إطالة المشهد، دون أن يؤدِّي شيئاً في الصراع أو تعقيد الأحداث أو الكشف عن خصيصة جديدة تُثري النصَّ المسرحي. ومن ذلك الحوار الذي دار بين الجلاد والمحكوم عليه، إذ يطلب

الأول بعد أن تمل أن يُغني له الثاني أغنية جميلة، ثم يُنهي الأمر بأن يُغنِّي هو نفسه، ويمضي الحوار على هذه الشاكلة :

المحكوم عليه : غَنِّ! ..

الجلاد : وهل ستعجب بي وتستحسن؟..

المحكوم عليه : نعم! ..

الجلاد: وعد أكيد؟ ..

المحكوم عليه : أكيد ..

الجلاد : إذن .. أُغني لك تلك الأغنية الرقيقة .. أتُصغي؟ ..

المحكوم عليه : أُصغي وأستحسن ..

الجلاد : الاستحسان يأتي في النهاية .. أما الآن فالمطلوب منك هو الإصغاء فقط ..

المحكوم عليه : أُصغي فقط ..

الجلاد : حسن .. هل أنت مستعد؟ ..

المحكوم عليه : لماذا؟ .. ألست أنتَ الذي سيُغنِّي؟ ..

الجلاد : بلى .. ولكن من الضروري أن تكون أنت مستعداً للاستماع! .. (٨٢) .

ويمضي الحوار على هذه الطريقة إحدى عشرة صفحة(٨٣)، يبعث خلالها الملل في نفس القارئ للنص .

ومن نماذج الإطناب، بل الثرثرة التي لا طائل من ورائها الحوار في الفصل الثالث بين الوزير والإسكاف والخمّار والجلّاد، وفيه يستطلع الوزير رأي الثلاثة في الغانية، وهل ستوقع عند الفجر فعلاً وثيقة عتق السلطان أم لا؟ وينتهي الموقف الحواري إلى إثارة الإسكاف والخمار والجلاد ضد الغانية، ومن هذا الحوار:

الوزير : ... أجبني صراحة عن هذا السؤال : هل ستُخلف هذه المرأة وعدها في رأيك أو ستفي به؟! ..

الجلاد : ولكني يا مولاي الوزير؟! ..

الوزير : قلت لك لا تخف وأفصح عن رأيك دون حرج .. هذا أمر عليك طاعته! ..

الجلاد : أمرك مطاع يا مولاي .. إني في الحقيقة لست أثق في هذه المرأة ..

الوزير : لماذا؟!!

الجلاد : لأنها كاذبة .. مُخادعة .. محتالة ..(٨٤) .

والحوار بين الوزير والإسكاف والجلاد والخمار يحتل سبع صفحات(٨٥) ، وكان يمكن أن يحتل صفحة واحدة ويؤدي الغرض المطلوب.

ومن حسن الحظ أن هذه الصفحات الميتة - التي تشهد حواراً لا يُضيف شيئاً إلى بناء المسرحية - صفحات قليلة، ولا تؤثّر على سياق النص المسرحي في إطاره العام والكلي.

٥ - الخاتمة :

للحوار المسرحي أهميته في بناء المسرحية، فمنه نعرف الصراع الذي يدور في المسرحية، ومنه نتعرّف على الشخصيّات التي تتحمل عبء تقديم العمل المسرحي، ومن خلاله تتسلل لنا الفكرة التي يُريد المؤلف توصيلها دون جلبة أو ضوضاء.

وقد أشار كثير من النقاد منهم محمد أبو الأنوار، وأحمد زياد محبك - كما أشرنا في المقدمة - إلى قدرة توفيق الحكيم على إدارة الحوار في مسرحه عموماً، وفي مسرحية "السلطان الحائر" خصوصاً.

وقد حاول هذا البحث أن يدرس الحوار في مسرحية "السلطان الحائر" دراسة نقدية تحليلية، ومن النتائج التي توصَّل إليها :

١ - أن الحوار استطاع أن يُوصِّل لنا بوضوح الفكرة التي تطرحها المسرحية، وهي فكرة الصراع بين القوة والقانون، وهي القضية الرئيسة التي بُنيت عليها: وتآزرت الشخصيات لتوضِّح هذه الفكرة، واختلفت وتشابكت وتقاطعت مصائرها من أجل توضيح هذه الفكرة، وكان الحوار مرهفاً ودقيقاً في توصيل الفكرة

والسير معها على امتداد فصول المسرحية الثلاثة .

٢ – استطاع الحوار من خلال رسمه للشخصيات الرئيسة أن يُطلعنا على صورة دقيقة للشخصية وهي تُفكِّر، كما صوّر لنا الشخصيّات وهي تتصارع أو تتآمر، ومن خلال ذلك رأينا السلطة التنفيذية عندما تكون ظالمة وغاشمة، وتكون بالتالي جبانة أيضاً، وأن شجاعتها على المقيّد بالأغلال وهم كاذب، يدل على ذلك شخصية الجلاد فقد رأيناه شديد العداوة على المحكوم عليه المقيّد بالأغلال، أما أمام خادمة الغانية فإنه يُسارع في الاعتذار وهو خائف وجل. كما بيّن دور بطانة السوء، وكيف أنها تصبح عمى على بصيرة السلطان، وهذا واضح من خلال شخصية الوزير. كما بيّنت لنا المسرحية أنه لا مخرج لأمة أو مجتمع بغير إحياء دور الضمير والخضوع للعدل المطلق، وهذا واضح من خلال شخصية السلطان.

٣ – قام الحوار في هذه المسرحية بدوره كاملاً في بناء نص مسرحي راقٍ يتسم بلغة معبرة دائماً، شاعرية أحياناً (أي تقترب من الشعر وجماليّاته في الخيال والتصوير)، مع محافظته على قدرته الدرامية على توضيح الصراع بين الشخصيات وفي نفوسها، ولم يقع الحوار في مزلق الإطناب إلا قليلاً .

٤ – وتكشف هذه المسرحية عن تملُّك توفيق الحكيم للحوار، وإجادته له . وهو – أي الحوار – أداة من أهمِّ أدوات بناء المسرحية النثرية والشعرية على السَّواء .

الهوامش

١ – حسين علي محمد : المسرح الشعري عند عدنان مردم بك : اتجاهاته الموضوعية وقضاياه الفنية، ط١، الشركة العربية للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨م، ص٣٢٥، وانظر: علي أحمد باكثير: فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية، ط٢، دار المعرفة، القاهرة ١٩٦٤م، ص٦٩.

٢ – سامي منير : المسرح المصري بعد الحرب العالمية الثانية بين الفن والنقد السياسي والاجتماعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية ١٩٧٨م ، ٣٨/٢.

٣ – السابق، ص٣٩.

٤ – السابق، ص٣٩.

٥ – السابق، ص٣٩.

٦ – محمد أبو الأنوار : مسرحية "السلطان الحائر" : دراسة تحليلية نقدية، حوليات كلية دار العلوم، العدد العاشر، ٨٧٣/ ١٩٨٢م، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٣م، انظر الصفحات ٥، ٦، ١٤، ١٨، ٢٢، ٢٤.

٧ – حسين علي محمد : التحرير الأدبي، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص٢٨٧ .

٨ – السابق، ص٢٨٧.

٩ – محمد أبو الأنوار : مسرحية "السلطان الحائر" : دراسة تحليلية نقدية، حوليات كلية دار العلوم، العدد العاشر، ١٩٨٢/٨٧٣م، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٣م، ص١٧.

١٠– أحمد زياد محبك : المسرحية التاريخية في المسرح العربي المُعاصر، ط١، دار طلاس، دمشق ١٩٨٩م، ص٣٣٣.

١١– روجر م. بسفيلد : فن الكاتب المسرحي، ترجمة : دريني خشبة، القاهرة ١٩٦٤م، ص٢١٨.

١٢– طه عبد الفتاح مقلد : الحوار في القصة والمسرحية والإذاعة والتليفزيون، مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٧٥م، ص١٠ .

١٣– لاجوس إجري : فن كتابة المسرحية، ترجمة : دريني

خشبة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة د.ت . ، ص٤٢٠ .

١٤- السابق، ص١٠.

١٥- منصور نعمان نجم الدليمي : إشكالية الحوار بين النص والعرض في المسرح، ط١، دار الكندي، إربد – الأردن ١٩٩٨م، ص١٧، ١٨.

١٦- حسين علي محمد : التحرير الأدبي، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص٢٨٤.

١٧- ولد توفيق بن إسماعيل الحكيم بحي "محرم بك" بالإسكندرية في عام ١٨٩٨م، وقد تلقى تعليمه الأول في مدرسة "رأس التين" الابتدائية، وأكمل تعليمه بالقاهرة، ولما قامت ثورة ١٩١٩م اشترك فيها بتأليف الأناشيد الوطنية التي كانت سبباً في اعتقاله، ولقد تخرج من مدرسة الحقوق، ولكن بدرجة لا تؤهله للعمل بالنيابة، فارتحل إلى "باريس"، ومكث فيها ثلاثة أعوام، ولم يستطع خلالها الحصول على الدكتوراه في القانون، وخلال تلك الفترة ألف روايته "عودة الروح" وكانت عودته إلى مصر عام ١٩٢٨م. وبعد عودته من فرنسا عمل وكيلاً للنائب العام في المحاكم المختلطة بالإسكندرية، ثم انتقل إلى القضاء الأهلي عام ١٩٢٩م، وفي عام ١٩٣٤م عمل مديراً للتحقيقات بوزارة المعارف العمومية، ثم انتقل إلى وزارة الشؤون الاجتماعية عام ١٩٣٩م. واختير عضواً بمجمع اللغة العربية ١٩٥٤م، وتوفي عام ١٩٨٧م.

كتب المسرحية الطويلة والقصيرة، والرواية، والقصة القصيرة، والمقالة، والذكريات السياسية، من أشهر مؤلفاته: عودة الروح (١٩٣٣م)، ومحمد (١٩٣٦م)، وزهرة العمر (١٩٤٣م)، والسلطان الحائر (١٩٦٠م)، وعودة الوعي (١٩٧٤م).

١٨- توفيق الحكيم: السلطان الحائر، ط٧، مكتبة الآداب ومطبعتها، القاهرة ١٩٨٦م، ص٧٥.

١٩- السابق، ص١٦٧.

٢٠- السابق، ص٩.

٢١- محمد مندور : مسرح توفيق الحكيم، ط٣، دار نهضة مصر للطبع والنشر، د.ت، ص١٦٠، ١٦١. وانظر السابق، ص٩.

٢٢- محمد جبريل : نجيب محفوظ صداقة جيلين، كتابات نقدية (١٦)، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٣م، ص١٥٧.

٢٣- إبراهيم عوض : دراسات في المسرح، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة ١٤١٨هـ، ص٩٦.

٢٤- توفيق الحكيم : السلطان الحائر، ص٧١، ٧٢.

٢٥- محمد أبو الأنوار : مسرحية "السلطان الحائر" : دراسة تحليلية نقدية، ص١٤.

٢٦- سامي منير عامر : المسرح المصري بعد الحرب العالمية الثانية، ج٢، ص٤٣، ٤٤.

٢٧- توفيق الحكيم : السلطان الحائر، ص٤٥، ٤٦.

٢٨- السابق، ص٥٥، ٥٦.

٢٩- السابق، ص٧٤، ٧٥.

٣٠- السابق، ص١٠٣، ١٠٤.

٣١- السابق، ص١٠٤.

٣٢- السابق، ص١٠٥.

٣٣- عبد الرحمن شلش : مدخل إلى فن المسرحية، ط١، الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٣٣.

٣٤- منصور نعمان نجم الدليمي: إشكالية الحوار بين النص والعرض في المسرح، ط١، دار الكندي ، إربد – الأردن ١٩٩٨م، ص١٢٧.

٣٥- علي الراعي: فن المسرحية، كتب للجميع، العدد ١٤٦، القاهرة - نوفمبر ١٩٥٩م، ص٥٧، ٥٨ .
٣٦- محمد أبو الأنوار : مرجع سابق، ص٦.
٣٧- توفيق الحكيم : السلطان الحائر، ص٤٧ .
٣٨- السابق، ص ٥٠، ٥١ .
٣٩- السابق، ص٥٢ .
٤٠- السابق، ص٧٨، ٧٩ .
٤١- السابق، ص٨٠، ٨١ .
٤٢- السابق، ١٣٤، ١٣٥ .
٤٣- عبد القادر القط : من فنون الأدب : المسرحية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٨م، ص١٨١.
٤٤- توفيق الحكيم : السلطان الحائر، ص١٤٤.
٤٥- السابق، ص٦٦، ٦٧ .
٤٦- محمد أبو الأنوار : مرجع سابق، ص١١ .
٤٧- السابق، ص١٢ .
٤٨- توفيق الحكيم : السلطان الحائر، ص١٠٥، ١٠٦ .
٤٩- محمد أبو الأنوار، مرجع سابق، ص١٣ .
٥٠- فؤاد دوارة : مسرح توفيق الحكيم : المسرحيات السياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦م، ص٢٩٥ .
٥١- توفيق الحكيم : السلطان الحائر، ص٣٠.
٥٢- فؤاد دوارة : مسرح توفيق الحكيم، مرجع سابق، ص٢٩٦.
٥٣- توفيق الحكيم : السلطان الحائر، ص ١٣٧.
٥٤- السابق، ص١٠٤، ١٠٥.
٥٥- السابق، ص١٠٥.
٥٦- السابق، ص١٦٥.
٥٧- السابق، ص١٦٦، ١٦٧.
٥٨- وداد سكاكيني : السلطان الحائر ، مجلة "المجلة"، العدد (٤٩)، رجب ١٣٨٠هـ/ يناير ١٩٦١م، ص١١٧.
٥٩- السابق، ص١٣.
٦٠- السابق، ص٣١.
٦١- السابق، ص٣٢، ٣٣.
٦٢- السابق، ص٢٨، ٢٩.
٦٣- فؤاد دوارة : عشرة أدباء يتحدّثون، كتاب الهلال، العدد (١٧٢)، القاهرة ١٩٦٥م، ص٣٩.
٦٤- عدنان بن ذريل : الشخصية والصراع المأساوي، دمشق ١٩٧٣م، ص٦٨ .
٦٥- محمد مندور: الأدب ومذاهبه، ط٢ ، نهضة مصر ، القاهرة د.ت، ص١٠٩.
٦٦- أحمد زكي : اتجاهات المسرح المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (الجزء الثاني) ١٩٩٨م، ص١٧٨.
٦٧- توفيق الحكيم: السلطان الحائر، ص٥٦، ٥٧.
٦٨- السابق، ص٥٧.
٦٩- السابق، ص٥٧، ٥٨.
٧٠- السابق، ص٨٨.
٧١- السابق، ص١٠٥.
٧٢- السابق، ص١٢١، ١٢٢.
٧٣- إبراهيم عوض : دراسات في المسرح ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ١٤١٨م ، ص١٠٧.
٧٤- عبد القادر القط : من فنون الأدب: المسرحية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٨م، ص١٨٤، ١٨٥.
٧٥- توفيق الحكيم : السلطان الحائر، ص٥٧ .
٧٦- السابق ، ص٥٩، ٦٠.
٧٧- السابق ، ص١٠٦، ١٠٧.
٧٨- السابق ، ص١١٥ ، ١١٦.
٧٩- السابق ، ص٦٢.
٨٠- السابق ، ص١٦٣.
٨١- لاجوس إجري : فن كتابة المسرحية، مرجع سابق، ص١٠.
٨٢- توفيق الحكيم : السلطان الحائر، ص٢٣، ٢٤.
٨٣- السابق، ص ص١٨-٢٩.
٨٤- السابق، ص١٢٩.
٨٥- السابق، ص ص١٢٦-١٣٢.

المصادر والمراجع

أ - كتب :

إبراهيم عوض :

١ - **دراسات في المسرح**، مكتبة زهراء الشرق .- القاهرة، ١٤١٨م.

أحمد زكي :

٢ - **اتجاهات المسرح المعاصر**.- القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، (الجزء الأول ١٩٩٦م، الجزء الثاني ١٩٩٨م).

أحمد زياد محبك :

٣ - **المسرحية التاريخية في المسرح العربي المُعاصر**.- ط١.- دمشق : دار طلاس، ١٩٨٩م.

أحمد سيد محمد :

٤ - **توفيق الحكيم : سيرته وأعماله**.- ط١.- القاهرة : الصدر لخدمات الطباعة، ١٩٩١م .

أحمد العشري :

٥ - المسرحية السياسية في الوطن العربي .- القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٥م.

أرسطو طاليس :

٦ - فن الشعر، ترجمة : شكري عيّاد .- ط١.- القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧م.

بكري شيخ أمين :

٧ - **مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني**.- ط٤.- بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٦٨م.

توفيق الحكيم :

٨ - **السلطان الحائر**، ط٧، مكتبة الآداب ومطبعتها، القاهرة ١٩٨٦م.

٩ - **عودة الوعي**.- القاهرة : دار الشروق، ١٩٧٥م.

١٠- **فن الأدب**، المطبعة النموذجية، القاهرة د.ت.

حسين علي محمد :

١١- **التحرير الأدبي**.- ط١.- الرياض : مكتبة العبيكان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .

١٢- **المسرح الشعري عند عدنان مردم بك : اتجاهاته الموضوعية وقضاياه الفنية** .- ط١.- القاهرة : الشركة العربية للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م .

رشيد الذوادي :

١٣-**أبناء من مصر** .- ط١.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٥م.

روجر م . بسفيلد :

١٤- **فن الكاتب المسرحي** ، ترجمة : دريني خشبة.- القاهرة ١٩٦٤م.

سامي منير حسين عامر :

١٥- **المسرح المصري بعد الحرب العالمية الثانية بين الفن والنقد السياسي والاجتماعي**.- الإسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م.

سعد أبو الرضا :

١٦- **الكلمة والبناء الدرامي : رؤية نقدية تحليلية مقاربة** .- ط١.- القاهرة : دار الفكر العربي، ١٩٨١م.

طه عبد الفتاح مقلد :

١٧- **الحوار في القصة والمسرحية والإذاعة والتليفزيون**.- القاهرة: مكتبة الشباب، ١٩٧٥م.

عبد الرحمن شلش :

١٨- **مدخل إلى فن المسرحية**.- ط١.- الرياض، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

عبد العزيز حمودة :

١٩- **المسرح السياسي**، مكتبة الأنجلو.- القاهرة ١٩٧١م.

عبد القادر القط :

٢٠- **من فنون الأدب : المسرحي**.- بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٨م.

عدنان بن ذريل :

٢١- **الشخصية والصراع المأساوي**.- ط١.- دمشق مطابع ألف باء الأديب، ١٩٧٣م .

علي أحمد باكثير :

٢٢- **فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية** -٠ ط٢-٠ القاهرة : دار المعرفة، ١٩٦٤م.

علي الراعي :

٢٣- **فن المسرحية**، كتب للجميع، العدد ١٤٦، القاهرة - نوفمبر ١٩٥٩م .

علي عقلة عرسان :

٢٤- **الظواهر المسرحية عند العرب**، منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق ١٩٨١م .

فؤاد دوارة :

٢٥- **عشرة أدباء يتحدّثون**، كتاب الهلال، العدد (١٧٢)، القاهرة ١٩٦٥م، ص٣٩ .

٢٦- **في النقد المسرحي** ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة د. ت .

٢٧- **مسرح توفيق الحكيم : المسرحيات السياسية** -٠ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

كمال الدين عيد :

٢٨- **مقدمة في الفنون المسرحية**، قسم الإعلام - كلية الآداب جامعة الملك سعود، الرياض ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

كير إيلام :

٢٩- **سيمياء المسرح والدراما**، ترجمة رئيف كرم -٠ ط١-٠ بيروت : المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢م.

لاجوس إجري :

٣٠- **فن كتابة المسرحية**، ترجمة: دريني خشبة -٠ القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت .

محمد جبريل :

٣٠- **نجيب محفوظ صداقة جيلين**، كتابات نقدية (١٦)، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ١٩٩٣م .

محمد فتوح أحمد :

٣١- **في المسرح المصري المعاصر**-٠ ط ١ -٠ القاهرة : مكتبة الشباب، د.ت.

محمد مندور :

٣٢- **الأدب ومذاهبه**-٠ ط٢-٠ القاهرة: نهضة مصر للطبع والنشر، د.ت.

٣٣- **مسرح توفيق الحكيم** -٠ ط٣-٠ دار نهضة مصر للطبع والنشر، د.ت.

محمد يوسف نجم :

٣٤- المسرحية في الأدب العربي الحديث -٠ ط٢ -٠ بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٧م .

منصور نعمان نجم الدليمي :

٣٥- **إشكالية الحوار بين النص والعرض في المسرح** -٠ ط١-٠ إربد - الأردن : دار الكندي، ١٩٩٨م.

يوسف إدريس :

٣٦- **جمهورية فرحات**، سلسلة الكتاب الذهبي، القاهرة ١٩٥٦م .

يوسف حسن نوفل :

٣٧- **بناء المسرحية العربية : رؤية في الحوار** -٠ ط١ -٠ القاهرة : دار المعارف ، ١٩٩٥م .

ب - مقالات في دوريات :

أمين الخولي :

٣٨ - السلطان الحائر : في البناء المسرحي والدلالة الفنية ، مجلة "**المجلة**" (مصر) ، العدد (٦٣) ذو القعدة ١٣٨١هـ .

محمد أبو الأنوار :

٣٩- مسرحية "السلطان الحائر" : دراسة تحليلية نقدية ، **حوليات كلية دار العلوم** ، العدد العاشر، ٨٧٣ / ١٩٨٢م ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٣م .

وداد سكاكيني :

٤٠- السلطان الحائر في مسرحية الحكيم ، مجلة "**المجلة**" (مصر) ، العدد (٤٩) ، رجب ١٣٨٠هـ .

المستدرك على المحققين

عبدالمحسن بن عبدالعزيز العسكر
الرياض

تحقيق الكتب فن له أسسه وقواعده ، وإن أعظم ما يطلبه التحقيق فيمن ينهض إلى هذا العمل ، أن يكون واسع الاطلاع يقظاً أميناً، ذا صبر صابر على فحص كلام المؤلفين وإمضائه على وجهه الصحيح، وما فتئ الكبار من المشتغلين في هذا الفن - يذكرون عناء التحقيق وعقباته . قال عبدالسلام هارون : «التحقيق أمر جليل ، يحتاج من الجهد والعناية إلى أكثر مما يحتاج إليه التأليف»[1] . وقال السيد أحمد صقر : «النشر فن خفي المسالك، عظيم المزالق، جم المصاعب، كثير المضايق، وشواغل الفكر فيه متواترة، ومتاعب البال وافرة، ومبهظات العقل غامرة، وجهود الفرد في مضماره قاصرة، يؤودها حفظ الصواب في سائر نصوص الكتاب ويعجزها ضبط شوارد الأخطاء، ورجعها جميعاً إلى أصلها...» [2] .

ومع ما يبذله المحققون من الجهد البالغ والتقصي في البحث إلا أنه ربما فات عليهم فوائت، فيأتي ممن بعدهم مَن يستدرك عليهم، وهذا لا يعني أن ههنا فاضلاً ومفضولاً، وإنما هي أشياء تتجلى لقوم وتغمض على آخرين . ولذا طفق ذوو الفطانة والإدراك من المحققين يناشدون قراءهم إصلاح الخطأ وإتمام النقص، وهذا غاية في الكمال والإنصاف . يقول السيد أحمد صقر في مقدمة تحقيقه لكتاب «الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري» : «... ومن أجل ذلك قلت - وما زلت أقول - : «إنه يجب على كل قارئ للكتب القديمة أن يعاون ناشريها بذكر ما يراه فيها من أخطاء ؛ لتخلص من شوائب التحريف والتصحيف الذي منيت به، وتخرج للناس صحيحة» [3] .

وقال أحمد راتب النفاخ في مقدمة تحقيقه لديوان ابن الدمينة : «... وإني لآمل أن أجد من آراء الزملاء الدارسين ممن ينظرون في هذا الديوان ؛ ما يعين على استكمال أسباب التحقيق، من تقويم معوج، أو تصحيح خطأ، أو تلافي نقص، وفوق كل ذي علم عليم» [4].

وقد كنت أثناء قراءاتي لأعمال قام عليها محققون كرام، أجد أشياء فائتة في التحقيق، من نحو كلمات قرئت على غير وجهها، أو فسرت على خلاف معناها، أو أحاديث نبوية صرَّح المحققون بعدم الوقوف على مخرجها، أو شواهد نثرية أو شعرية وقع الوهم في تخريجها وعزوها لأصحابها، أو لم يعرفوها .

وقد يحضرني الاستدراك والتصويب ساعتئذ، فأعاجل به النص في موضعه . ولم أزل آخذاً بهذا السبيل حتى اجتمع لديّ من هذا شيء كثير، ورغبة مني في أن يعم النفع بما استدركته ، وخدمة للعلم ؛ بدا لي أن أنشر تلك الاستدراكات والتصويبات على صفحات هذه المجلة .

ومنهجي أني أسوق كلام المؤلف - كما قرأه المحقق - ثم كلام المحقق نفسه، ثم أتبعه بتعليقي، فأقول وبالله التوفيق :

١ - كتاب «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب»، تأليف : أبي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، نشر : دار المعارف، مصر، دون تاريخ .

النص : قال المؤلف في ص٣٠٠ : «وقد ذكرها الأعشى فقال :

ما نظرتْ ذات أشفار كما نظرتْ
حقاً كما نظر الدِّبْسيُّ إذ سَجَعَا [5]

قال المحقق : الدبسي : ضرب من الحمام»

قلت : ههنا تصحيف ووهم ، ولو أن المحقق عرض البيت على ديوان الأعشى لنجا مما وقع فيه .

إن لفظة «الدبسي» هذه مصحَّفة عن الذِّئبي، وهكذا كتبت في الديوان والذئبي هو سَطيحٌ الكاهن الجاهلي، صاحب الأسجاع، وقد نُسب في البيت إلى أحد أجداده، واسمه ذئب، وربما سُمي قوم سطيح بني ذئب» [6] .

٢ - كتاب «دلائل الإعجاز» ، تأليف : عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق : محمود محمد شاكر، نشر : مكتبة الخانجي، القاهرة، دون تاريخ .

النص : قال المؤلف في ص١٨٢ : « ... وعلى ذلك قول الآخر :

أسودٌ إذا ما أبدت الحربُ نابها

وفي سائر الدهر الغيوثُ المواطرُ -١-

قال المحقق : « - ١ - لم أقف عليه بعد»

قلت : البيت لذي الرمة في ديوانه . ورواية الديوان (ساقها) عوض (نابها) (٧) .

* وقال عبدالقاهر الجرجاني في الكتاب نفسه ص٢٨٤ : «وقال الآخر :

ما كل رأي الفتى يدعو إلى رَشَدٍ -٢- »

قال المحقق : «- ٢ - ذكره ابن هشام في مغني اللبيب في باب (كل)، وذكره غيره من النحاة، وكأنهم أخذوه من عبدالقاهر، ولا يعرف تمامه» .

قلت : هو لأبي العتاهية، في ديوانه، وعجزه :

إذا بدا لك رأيٌ مشكلٌ فَقِفِ (٨)

٣ - كتاب «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» ، تأليف : حازم القرطاجني، تحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م.

النص : قال المؤلف في ص٢٤٣ : «... فأما الوزن [أي الشعري] الذي سموه المضارع فما أرى أن شيئاً من الاختلاق على العرب أحق بالتكذيب والرد منه، لأن طباع العرب كانت أفضل من أن يكون هذا من نتاجها - وما أراه أنتجه إلا شعبة بن برسام خطرت -١- على فكر من وضعه قياساً» .

قال المحقق : « - ١ - كذا بالأصل، والتقرير صورته، أي صورة الوزن» .

قلت : الصواب أن يُقرأ النص هكذا: «وما أراه أنتجه إلا شعبة من برسام خطرت على فكر من وضعه...» والبرسام علة تؤدي إلى الهذيان، والكلمة فارسية معربة (٩).

وكأن المؤلف يريد أن يقول : إن سبب وجود هذا الوزن في الأشعار هو هذيان خطر على فكر واضعه .

ولقد تصحَّف حرف الجر (من) عند المحقق إلى (بن) كما ترى، فحسب أن شعبة اسم رجل هو الذي ابتكر وزن البحر المضارع، وأن برساماً والده ولذا أورده في فهرس الأعلام، ومن نتائج هذا التصحيف أن اضطربت العبارة بين يدي المحقق، فجعل يعالجها في الحاشية بتقدير شيء محذوف .

والحق أن عبارة المؤلف - بعد هذا التصحيح - قيمة لا عوج فيها ولا أمتاً .

٤ - كتاب «قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل»، تأليف : محمد الأمين بن فضل الله المُحبِّي، تحقيق : عثمان محمود الصِّيني، نشر مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ .

النص : قال المؤلف في ٤٧٨/٢ : «... لما ورد في الحديث النبوي من قوله عليه السلام : «إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا -٦- » .

قال المحقق : « - ٦ - لم أجد الحديث في كتب الصحاح المشهورة» .

قلت : لا أدري ما يريد المحقق بكتب الصحاح المشهورة، أهي كتب الصحاح المصطلح عليها عند أهل الفن، أم أنه يعني بالصحاح التي لا تحمل في بطونها إلا ما صح من الحديث، أم يريد كتب الحديث مطلقاً ؟

ومهما يكن من شيء ؛ فإن هذا الحديث أخرجه الحاكم في "المستدرك" (٣٤٣/٢) من طريق يونس بن بكير عن المفضل بن صالح عن أبي إسحاق عن حنش الكناني عن أبي ذر مرفوعاً . والمفضل هذا قال فيه البخاري : «منكر الحديث» (١٠)، وكذلك قال أبو حاتم الرازي (١١) .

ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤٥/٢) (برقم ٢٦٣٦) من طريق الحسن بن أبي جعفر عن علي بن زيد ابن جدعان عن سعيد بن المسيب عن أبي ذر به . وأورد الحديث الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٦٨/٩) وعزاه إلى البزار والطبراني، وقال : «في إسناد الطبراني عبدالله بن داهر، وفي إسناد البزار الحسن بن أبي جعفر، وهما متروكان» .

والحديث وإن كان ضعيفاً إلا أنه يجب تخريجه وعزوه إلى هذه الكتب التي روته، لئلا يظن أنه لم يخرج في كتب السنة مطلقاً .

٥ - كتاب «نبش الهذيان من تاريخ جرجي زيدان»، تأليف : أمين بن حسن الحلواني، تحقيق : مازن المطبقاني، نشر : مكتبة ابن القيم، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ .

النص : قال المؤلف في ص٤٠ : «قوله : (بثنيات الطريق) هذا غلط، وصوابه : بِبُنيَّات الطريق، وهذا مثل، كما هو مذكور في أمثال الميداني -٢- » .

قال المحقق : « - ٢ - لم أعثر على هذا المثل في كتاب الميداني، ولكن يقول ابن منظور في لسان العرب ١/١٤٠ وبنيات الطريق : هي الطرق الصغار تتشعب من الجادة ...» .

قلت : المثل في "مجمع الأمثال" للميداني، كما ذكر المؤلف، وقد أورده الميداني في موضعين من كتابه [١٢] . كما ذكره الزمخشري أيضاً في «المستقصى في أمثال العرب» [١٣] .

٦ - كتاب «التذييل والتذنيب على نهاية الغريب»، تأليف : جلال الدين السيوطي، تحقيق : عبدالله الجبوري، نشر : دار الرفاعي، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ .

النص : قال المؤلف في ص٥٩ : «في حديث الزلزلة : وإذا أراد الله أن يُدمِّر على قوم تجلى لها . رواه الطبراني في «السنة» -١- » .

قال المحقق : « - ١ - يريد به : «كتاب السنة» من معجمه» .

أقول: لا جرم أن هذا من المحقق تعليق مرتجل، ذلك أن للطبراني ثلاثة معاجم هي المعجم الكبير، والمعجم الأوسط، والمعجم الصغير، وكلها مطبوعة [١٤] ، فأيها يريد المحقق ؟

ثم إن هذه المعاجم الثلاثة ليست مرتبة على الأبواب ولا على الموضوعات حتى يقال إن كتاب السنة للطبراني في معجمه بل الذي اتبعه أبو القاسم الطبراني في تشييد المعجم الكبير أنه صنف الأحاديث فيه على مسانيد الصحابة، وأما المعجمان الآخران فقد رتب أحاديثهما على حسب مرويات شيوخه، مرتبين على حروف المعجم .

إن كتاب «السنة» الذي ذكره السيوطي وخرَّج منه الحديث، هو كتاب مستقل للطبراني يحمل هذا الاسم، وقد ذكره المؤرخون في ترجمة الطبراني وجعلوه في عداد مصنفاته [١٥] ، ولم يطبع بعد . ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ينقل منه ويعزو إليه، وذلك في كتابه الفحل «بيان تلبيس الجهمية» .

الهوامش

١ - تحقيق النصوص ونشرها، ص٤٨، ط٢ .
٢ - مقدمة كتاب الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ص١٤، ط٤ .
٣ - السابق، ص١٥ .
٤ - مقدمة تحقيق ديوان ابن الدمينة ص٥٩، مكتبة دار العروبة .
٥ - ديوان الأعشى ص١٠٣، تحقيق: محمد محمد حسين.
٦ - ينظر : القاموس، تاج العروس، سطح .
٧ - ديوان ذي الرمة، ص١٠٤٤، تحقيق: عبدالقدوس أبو صالح.
٨ - ديوان أبي العتاهية، ص٢٤٢، شرح مجيد طراد.
٩ - ينظر : المعرَّب للجواليقي، ص٤٥، ط٢، والألفاظ الفارسية المعرَّبة لأدِّي شير، ص١٩، ط٢ .
١٠- التاريخ الصغير، ٢/٢٤١، ط١ .
١١- الجرح والتعديل، ٨/٣١٦، ٣١٧، ط١ .
١٢- مجمع الأمثال، ١/٤٧٣، ٣/٥٠٩، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، قال الميداني في شرح المثل : «أي عليك بمعظم الأمر، ودع الروغان.
١٣- المستقصى ٢/٧٩، ط١ .
١٤- طبع المعجمان الكبير والصغير قبل أن ينشر التذييل والتذنيب، وطبع الأوسط بعد نشر هذا الكتاب .
١٥- من هؤلاء الذهبي في : «تذكرة الحفاظ» ٣/٩١٤، و «سير أعلام النبلاء» ، ١٦/١٢٨ .